حنا مينه

المستنقع





دار الآداب


ketab.me
Best Books

المستنقع

حنّا مينه

المستنقع

رواية

الكتاب الثاني من بقايا صور

دار الآداب - بيروت

المستنقع

حنّا مينه/روائيّ سوريّ

الطبعة السابعة 2003

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 11-4123

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) - (03)861632

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

— ١ —

ها نحن في المدينة !

ليس في المدينة تماماً ، بل في ضاحيتها الجنوبية ، قرب مقبرة للجنود الفرنسيين الذين قاتلوا في كيليكيا أواخر الحرب العالمية الثانية ضد الأتراك ، حسبما قال لنا الوالد، نقلاعن السيد الذي تقع مزرعته بحذاء المقبرة .

كان اسمه خريستو ، وهو نفس الملاك الذي عملنا في حقوله غداة نزوحنا عن السويدية إلى قرية « قره أغاش » قرب اسكندرونة ، ثم تركناه لقسوته وهاجرنا إلى قرية « الاكبر » في ريف أرسوز ، حيث ضعنا ثلاث سنوات متواليات .

أنا لاأدري لماذا وكيف عدنا إليه بعد أن هربنا منه . كل ما أذكره أننا نزلنا في غرفة طينية من حوش كبير محاذٍ للطريق العام عند مدخل اسكندرونة من جهة أنطاكية . وكان الحوش مسوّراً ، وعند بابه الكبير قناق السيد المبني

بالحجر في طابقين ، تسكن عائلته الطابق الثاني المطلّ على باحة ترابية حولها بيوت طينية يسكنها الفلاحون .

وقد قبلت الوالدة ، دون اعتراض هذه المرة ، أن تخدم في بيت السيد ، وتعمل مع الوالد في الحقل ، مستشعرة بعض الطمأنينة لقربنا من المدينة ، حيث بإمكاني أن أذهب إلى المدرسة وبإمكانها أن ترى أختنا الخادم ، وتأمن شرّ ذلك الضياع الذي ترسّب في أجفانها خوفاً تنتفض له كلما تذكرته .

ولم أعرف للوالد عملا محدداً في ذلك المكان . كانت الأراضي سليخاً من حولنا ، وكان السيد يحاول تشجيرها ، ويربّي الخيول والأبقار في الحوش ويخطّط ، دون تجربة كما قال الوالد ، لانشاء مزرعة، لكنه يتخبّط في كل شيء، فهو لايستقرّ على رأي، ولا يقبل رأياً من أحد . ولا عمل له سوى إصدار الأوامر ونقضها ، والصراخ في وجوه الفلاحين ، وضربهم أحياناً . كان قد باع أملاكه في « قره أغاش » وانتقل إلى هنا ، ولا أعرف سبباً للانطباع الذي تخلّف في نفسي عن خيبة هذا السيد ، وشعوري بأنه قاسٍ وسيء ، وان له كرشاً بغيضاً

ومخيفاً ، لم أر مثله قبل الآن. لعل ذلك عائد إلى ملاحظاتي الشخصية ، الناجمة عن الجدب فيما حولنا ، أو من رؤيته وهو يشتم فلاحيه ، أو عن أقوال الوالدين وهما يتحدثان عنه ، وعن شكوى الأم من فظاظته .

أما الوالد فقد كان راضياً ، ولعل الخيبة هي التي جمعت بينه وبين سيده القديم ، فقد كانا ، ظاهرياً ، على وفاق ، وكان الوالد بمثابة وكيل له ، وربما أقنعه انه سائس خيل ، أومربّ الأبقار ، فقدكان اهتمام الوالد بها أكثر من اهتمامه بالتشجير ، وكانت الوالدة تحلب البقرات مساء ، ويحمل الوالد الحليب إلى المدينة ، وفي النهار يعملان مع الفلاحين في الحوش والأراضي الزراعية على السواء .

أماأنا فقدكنت ألعب مع أترابي من أولاد الفلاحين تحت أشجار السرو في المقبرة المسيّجة بأسلاك شائكة . وكنا نحتال بشدّ الأسلاك بعضها إلى بعض ، فتنفتح فجوة نمرق منها ، وتحت السرر نبني بيوتاً ، او نتراكض في سباق من شجرة لأخرى ، أو نلعب الغمّيضة ، وكانت المقبرة تستهويني ، فارتاح إلى صمتها ، وإلى عزيف الريح في ابر السرو ، وتناثر الابر اليابسة على الأرض ، حيث تتكون

طبقة نستلقي عليها ، أو نصغي إلى أختي وهي تحكي لنا الحكايات ونحن جلوس من حولها .

ولشد ماكانت الوالدة تطوف بي حول المقبرة الظليلة في الأمسيات قبل الغروب ، حيث تتوقف وهي ترنو إلى القبور التي تعلوها صلبان حديدية صدئة ، وتتحسّر قائلة : والأسفاه على الشباب ، الله يعلم من أيّ بلاد هم ، وكيف فارقوا أهلهم وجاءوا فماتوا ودفنوا هنا . . . . ترى لهم أولاد ؟ وينتظرون عودتهم ؟

وكنت أسألها وأنا أمسك بيدها :

– ألن يروهم أبداً ؟

– أبدا .

– لماذا ؟

– لأنهم ماتوا . . .

– الموتى لايعودون ؟

– لايعودون أبداً . .

– وأين يذهبون ؟

– ارواحهم تصعد إلى السماء .

– وماذا تفعل هناك ؟

ــ اذا كانت صالحة تذهب إلى الجنة ، واذا كانت خاطئة إلى جهنم .

ــ وماذا في الجنة ؟

ــ الملائكة .

ــ و في جهنم ؟

ــ الأبالسة .

ــ كيف هم الأبالسة ؟

ــ مخيفون ، لهم قرون وأذناب .

ــ هل رأيتهم ؟

ــ لا ...

ــ و ... كيف عرفت إذاً ؟

ــ سمعت .

ــ ممن ؟

ــ من الناس .

ــ وهل رآهم الناس ؟

ــ ربما . . . .

تقول ذلك وترجوني أن أكفّ عن الأسئلة . كانت أسئلتي التي لاتنقطع تتعبها كما يبدو . وكنت ألحظ ذلك عليها عندما تصمت ، فألوذ بالصمت

بلوري ، وعندئذ تداعب شعري وتقول لي :

– ستعرف هذا عندما تكبر يا بني .

ومرة قالت لي : «غداً في المدرسة يعلمونك كل شيء» فقلت : «لن أذهب إلى المدرسة.. سأبقى معك» قالت : «لا يا صغيري ، المدرسة حلوة ، يعلمونك فيها الصلاة ، والقراءة والكتابة ، وسيكون لك فيها رفاق من أمثالك ، تلعب معهم ، وتحفظ الأغاني ، وعندما تكبر تستطيع قراءة الكتب وكتابة المكاتيب إلى أعمامك » ثم تنهدت وقالت كأنها تكلم نفسها : « آه، تراني أعيش فأرى ذلك اليوم ؟» وعند نهاية الجولة حول المقبرة ، كانت ترسم شارة الصليب على صدرها ، وتدعوني لأن أفعل مثلها « لأجل راحة الموتى » .

أما في الأصائل فكنا نجلس أمام باب الحوش ، تحت شجرة توت كبيرة على جانب الطريق ، نشاهد السيارات التي تمر ، وكانت قليلة جداً ، فإذا سمعت صوت محركها من بعيد ، أصفّق فرحاً وتتعلق أنظاري في الجهة القادمة منها ، وتظل تتابعها وهي تدرج مسرعة حتى تغيب، فأركض وراءها ثم أنثني عائداً إلى أمي ، أجلس قربها وأروح أمطرها بأسئلتي عن هذه العربة العجيبة التي تمشي دون أحصنة تجرها أو رجال يدفعونها .

وتقول أمي : «لقد ركبنا السيارة وأنت صغير ، عندما هاجرنا من السويدية إلى اسكندرون ، ألا تذكر ذلك»؟ وأحاول التذكر فتومض في خاطري صورة سيارة ما ، شبيهة بسيارة كرياكو ، وكانت هذه السيارة التى ركبناها تميل على أحد جنبيها وهي تسير ، وقد خفت كثيراً منها ونمت في حضن أمي طوال الطريق ، ولهذا لاأتمثّلها جيداً ، فتقول الأم ملاطفة «لابأس عندماتكبر ستركب واحدة منها ، وستشعر كأنك تطير ، والأشجار تركض من حولك إلى وراء ، ولكن لا تخف . كن شجاعاً . السيارة لاتخيف ».

وكانت هذه الجلسات الأصيلية تلذّ لي كثيراً ، فنحن نستعرض المارة ، ونشاهد الفلاحين العائدين من المدينة مشياً أو على الحمير ، كما نشاهد الدراجات والعربات ، وقد عملت ورشة لترميم الطريق أمام قناق السيد ، فكان العمال يحفرون البقع الاسفلتية المخربة ، ويرصفونها بالاحجار ، ثم تأتي تلك الآلة الضخمة الهادرة التى قالت الأم ان اسمها المدحلة فتمر على الأحجار وتسحقها وتمهدها ، ويشعل بعضهم النار تحت وعاء فيه اسفلت يغلي ، ويحملونه بعد ذلك ويصبّونه فوق الأحجار ويلقون عليه الرمل ، وكانت هذه العملية مسلّية جداً ، فكنت أقضي وقتي كله وأنا أتفرّج على ما يقوم

ـ العمال ، وأسير بحذاء المدحلة وهي تذهب وتجيء،مدهوشاً
ب ذلك كله ، مكتشفاً فيه شيئاً جديداً ، مسروراً إذ تكلفني
الوالدة بأن أحمل الماء من بيتنا إلى العمال ، هؤلاء الذين
كانت لاتكف عن الدعاءلهم بالعافية ، لانهم يتعبون كثيراً،
ولأنهم ، عند الظهر ، كانوا يفتحون صررهم ويتناولون
طعامهم اليائس المؤلف من خبز وزيتون وبصل ، فتتوجع لهم الوالدة ،
وتقول إنهم فقر اءمثلنا ، لكنها تثني عليهم قائلة : «العمل
ولا الشحاذة . كل شيء الا أن تحتاج الناس » وقالت مرة :
«إنهم يأكلون خبزهم بعرق جبينهم » فراقبتهم لكي أرى
كيف يغمسون الخبز بعرق الجبين ، ولما لم يفعلوا سألت
الوالدة عن ذلك ، فقالت : « هذا مَثَل ، معناه أن العمال
يأكلون خبزهم بتعبهم » قلت :« ونحن ؟ كيف نأكل
خبزنا»قالت: «بتعبنا.الاترانا نعمل في بيت السيد وأراضيه؟
قلت : « والسيد يعمل عند من ؟ » قالت : « الاسياد لايعملون »
قلت : « وكيف يأكلون ؟ » قالت : « نحن نعمل وهم
يأكلون » ففكرت في ذلك وسألت : « أليس ضرب الفلاحين
شغلا؟»فاربدّ وجهها وقالت: « أين رأيت ذلك ؟ » قلت
«في الباحة » فقالت : « يا حبيبي من اجل ذلك لاأريد لك أن تكون
فلاحاً . . .ومن أجل ذلك أريدك أن تحب الفلاحين ،
فهم فقراء مثلنا » .

انتهى عمل ورشة ترميم الطريق ، وأقبل الخريف وبدأت اوراق الأشجار تتساقط ، ومالت الشمس إلى الاصفرار ، ولم تعد الأم إلى جلساتها على جانب الطريق عند الأصائل، لكنها صارت تصطحبني إلى بستان قريب. قالت انه بستان « كاتوني » ، وقال الوالد ان « كاتوني » هذا رجل إيطالي غنيّ ، وعنده وكالة بواخر ، وانه يسكن المدينة ولا يأتي إلى بستانه إلا نادراً ، وان هذا البستان يساوي ثقله ذهباً ، وفيه كل أنواع الفاكهة ، وان البستاني دعانا إلى زيارته ، وان في وسعنا أن نذهب إلى هناك ونحصل على بعض الخضار عندما نحتاج إلى ذلك ، لانه هو ، الوالد ، قام بإصلاح بعض الأحذية لعائلة البستاني ، ورفض أن يأخذ أجرة منه .

باب عريض من الحديد الأسود بمصراعيه ، وعمود إسمنتي أبيض على كل جانب ، ثم أسلاك شائكة تمتدّ على جانبي الباب إلى مسافة بعيدة ، ووراءها أشجار السرو الخضراء التي تحجب البستان عن الطريق .

لم أكن قد رأيت بابا بهذا الحجم وهذه الفخامة . فباب الحوش الذي نسكنه خشبي ، قميء ، ورغم أن ثمة سياجاً من الأسلاك يحيط ببستان السيد ، فليس هناك أشجار سرو

ولاخضرة ولامايوحي بالمهابة .هنا كل شيء يختلف ،وقد اعتراني خوف وخجل وأنا أدخل الباب الكبير ممسكاً بيد أمي ،وانفتحت لعيني ، بعـد ولوج البستان ، امـداء من الأشجار والمزروعات ، ووقع بصري لأول مرة على تلك الكرات الصفراء المتدلية بين أدغال من أوراق خضر ، كأنها قناديل مكوّرة ، وقالت أمي : « هذا هو البرتقال » وتذكرت فوراً برتقالات باحة الدار التى ولدت فيها ، وحادثة مرض والدي التي اقترنت بها ، لكنني لم أستطع تحويل نظري عن أشجار البرتقال التى كانت تمتدّ في صفوف طويلة بدت لي غير نهائية .

سرنا عبر مجاز مرصوف با لحصى ، محاط بأشجار الحور ، حتى انتهينا إلى بيت البستاني ،حيث الباحة الرئيسية وبركة الماء التى يدور من حولها بغل على عينيه كمامة . والماء يدفق في البركة ومنها يجري في قناة ، وخرجت زوجة البستاني لاستقبالنا .كانت فلاّحة عجوزا ، رحّبت بالأم ، وعاملتها بمودّة ، ودعتنا إلى دخول البيت ، لكن الوالدة فضلت الجلوس في الباحة ، تحت شجرة توت كبيرة ، وآثرت أنا أن أبقى جانب البركة ،أرى دوران البغل ، وأتابع

صعود وهبوط الدلاء إلى البئر، وأصغي إلى صوتها المتواتر، وخرير الماء المنسكب منها في الحوض، ثم تدفّقه من فوهة فيه وجريانه في القناة.

لقد أحببت هذا البستان مثلما أحببت أشجار السرو في المقبرة المجاورة لبيتنا. كان الخريف قد انتصف، والأوراق الصفر قد تساقطت بكثرة تحت الأشجار، وكان البستان كبيراً، يمتدّ من الطريق إلى سفح الجبل، وفيه مجازات ودروب تفصل بين أقسامه، وكانت أشجار الفاكهة قد تعرّت الا من ورق قليل، وشيء ما فيها يوحي بالأسى الرقيق، وينسجم مع كآبة الخريف في الأصائل، وخاصة عندما تكون السماء غائمة. وكانت عصافير تطير بين الاشجار، وتنتقل من غصن إلى غصن، في حال من الاطمئنان يغري بأن أركض وراءها، وقد حاولت ففشلت، وتمنّيت على الوالدة أن تمسك لي واحداً منها، فأفهمتني أن هذا حرام، وأن للعصافير أمهاتٍ تنتظر عودتها إلى البيت، كما تنتظر هي عودتي عندما أكون غائباً. اقتنعت بما قالته أمي. جعلت أراقب العصافير عن بعد، شاعراً بأنها سعيدة غاية السعادة، لان لها كل هذه الحرية في الطيران والتنقل، ولانها تملك أن تحلق في السماء وتهبط إلى الأرض، وتأكل ما تجده في البستان، وليس ثمة سيّد يأمرها أو يضربها، ولا تخاف شيئاً.

كان البستان مملكتها. وقد أحببته لأنه مملكة العصافير، ولأن في أقصاه، من جهة الجبل، تلك الصفوف من أشجار البرتقال، تتدلى منها كرات صفراء وارجوانية، ويخيم صمت عميق، تزيده السماء الغائمة، الرمادية، عمقاً، وترفع أشجار تعرّت من أوراقها، أغصانها الجرداء كأصابع أكفّ تبتهل لإلّه في الأعالي، ويبدو الجبل، من وراء الأشجار كتمثال ضخم، يحرس البستان ويؤتمن على أسراره.

طوّفت ثمة، بين صفوف الأشجار، وحيداً، مأخوذاً بروعة ما يحيط بي من خضرة وسكينة، وبتلك الألوان الخريفية للأوراق المبرقشة المتساقطة، وبالسماء الغائمة، وبما يتكشف لي، في كل خطوة، من مناظر جديدة علي، أنا الذي لم يسبق له أن عرف بستاناً بهذا الحجم، وبهذه الصفوف من الأشجار، وهذه الخضرة الرصاصية، وهذا الجو الساحر لغابة قائمة عند سفح جبل مهيـــب.

وكانت زوجة حارس البستان قد جمعت بعض البرتقال المتساقط تحت الأشجار، وأعطت الوالدة مقداراً منه وضعته في مريلتها. وكانت في البستان قطعة أرض مزروعة بالملفوف. وقد قُطع الملفوف وبيع، فلم تبق

إلا الجذور في الأرض وبعض الأوراق الخارجية الشائهة ، وقد أجيز لنا أن نقلع الجذور ونقطف الورق الشائه ، وكنت أعاون الأم في ذلك ، فنحصل على شيء منها ، تقشره لنا في البيت ، وتفرم الأوراق فتصنع منها حساء ، أو تطبخها مع البرغل .

تلك الليلة وقع حادث فاجع ، لم أعرف به إلا في اليوم التالي . كان خال السيد خريستو ، صاحب مشروع المزرعة والحوش الذي نسكنه ، قنصلاً فخريا لإحدى الدول الأجنبية في حلب ، وكان هذا الخال غنياً ، وهو صاحب قسم من الأراضي التي يبني عليها السيد خريستو مزرعته ، وقد جاء من حلب إلى اسكندرونه في سيارته « اللندونيه » لبعض الأعمال ولزيارة ابن أخته ، وبوصول السيارة إلى جسر قريب من حوش السيد على الطريق العام ، نفرت فرس السيد أمام السيارة المسرعة ، فاصطدمت بها وهوت عن الجسر فقتل القنصل وزوجته ، وكسرت ساق الفرس .

هذا الحادث هزّ السيد وأسرته وفلاّحيه والحوش وجميع من فيه . كان وقعه مرعباً في أسرتنا ، وقد قصّت

الوالدة علينا النبأ بنبرة حزينة باكية ، ووصفت ، نقلا عن الرجال ، كيف تحطمت جمجمة القنصل ، وكيف تمزق جسد زوجته ، وكيف نقلوهما مع السائق الجريح إلى المستشفى ، ثم نقلوا الجثتين لدفنهما في حلب ، وسفر السيد معهما ، والتحقيق الذي أجري مع الفلاحين لمعرفة من الذي أفلت الفرس على الطريق العام .

كان الوالد ، ذلك اليوم ، في المدينة ، لغرض من أغراض السيد ، ولم يرجع إلا بعد وقوع الحادث ، وقد جنّبنا ذلك نقمة السيد من جهة ، وقسوة رجال الدرك الذين جمعوا الفلاحين وانهالوا عليهم بالكرابيج ليعترفوا من الذي أطلق الفرس على الطريق العام . لقد كرهت الدرك يومها بأشد مما كرهتهم يوم ضربوا وأطلقوا النار على الفلاحين وقتلوا زنوبة في قرية « الأكبر ». خيل إلي أن الدرك يملأون الدنيا ، وأنهم هم أنفسهم في كل مكان ، قساة غلاظ لارحمة في قلوبهم ، وأن ليس من عمل لهم إلا ضرب الفلاحين وسوقهم إلى السجن ، وأن هؤلاء الدرك من رجال الأسياد ، فهم يأخذون لهم التحية . وينادونهم بلقب « البيك » ، وينفّذون أوامرهم . وينكلون بفلاحيهم ، ولهذا تولّد في نفسي خوف منهم موازٍ

لكرهي لهم ، بل ان خوفي كان أشد ، وكنت أهرب ماان أرى واحداً أو جماعة منهم على الطريق . وأركض إلى البيت وأغلق عليّ الباب .

وكانت الوالدة تشاركني هذا الكره وهذا الخوف منهم ، بخلاف الوالد الذي كان قليل الاكتراث بهم . برغم نبرة الامتثال والاحترام التي يخاطبهم بها .وكان يقول للوالدة « انهم مثل بني عثمان . خبزهم وملحهم على ركبتهم » يريد أنهم لايحفظون وداً ولا يرعون حرمة . وكثيراً ماقال : « أولاد الحكومة هؤلاء مثل الحيّات . لايوضعون في العبّ » لكنه كان يضيف :« وماذا في وسعهم أن يفعلوا ؟ يدهم وماتطول ... في المدينة مثل النعامة . وفي القرى مثل الذئاب . يتقوّون على الفلاحين فقط » ولقد حزنت الوالدة لوضع الفلاحين الذين ضربوهم . ودعت على أيديهم بالكسر . ودخل في روعي أن مصيبة الفلاح هي في الدركي . وعجبت لزنوبة التي لم تكن تخاف منهم ، وكيف أنها أحرقت مخزن الحبوب وتحدّتهم. سألت الوالدة :

– ألن ترجع زنوبة أبداً ؟

فقالت وهي تتنهد :

– لا ، لن ترجع أبداً ، أما قلت لك ان الأموات

لا يرجعون ؟

– وهل ذهبت إلى الجنة ؟

– طبعاً إلى الجنة . . وأين يذهب الصالحون اذن ؟

– لكن زنوبة كانت تسكر . . وأنت تقولين ان السكر خطيئة .

– السكر خطيئة . ولكن زنوبة كانت صالحة .

– كيف ؟

– لم تكن تؤذي الناس . الله يغفر كل الخطايا إلا أذى الناس . تعلّم أن تحبّهم يا بنيّ . أحبّ الناس مثل والديك ، ولا تؤذ أحداً .

كنت ألاحظ أن الأم تحبّ الناس بطيبة وبساطة . ويسعدها أن تسنح الفرصة لمساعدتهم . وكانت الأخت الصغيرة الكفيفة . هماً عميقاً من همومها ، فهي تناجي ربها قائلة : « لماذا أخذتها بذنبي يا الله ؟ أنا الخاطئة كنت استحق عقابك . أما هي البريئة، فما ذنبها » ؟

ويبدو أن امرأة ما وصفت دم الحرذون لشفاء عيني الأخت . قالت ان هذا الدم يزيل الزهرة – البياض – عن البؤبؤين فتستطيع أن تبصر . وقد صدّقت الأم ، فكان

علينا ، أولاد الفلاحين وأنا ، أن نصطاد الحراذين من المقبرة التي في جوارنا ، والأم تدفعنا وتشجعنا على ذلك ، وتنفحنا ببعض القروش أو السكاكر ، وعندما تعذّر اصطيادها في المقبرة المجاورة ، لعدم وجود سور حجري حولها ، اصطحبتنا الأم إلى مقبرة أخرى ، قرب الجبل ، ذات سور قديم متهدم ، وكانت تقول ونحن ندخل المقبرة « لاتدوسوا على القبور يا أولاد . ولا تصرخوا حتى لاتقلقوا راحةالموتى » وتقف خاشعة ما ان تتخطّى السور وتتمتم بصلاة قصيرة . ثم تقول بصوت مسموع « الرحمة لجميع الراقدين » ونبدأ بعد ذلك مطاردة الحراذين ورشقها بالحجارة . فإذا وفقنا إلى إصابة حرذون لم يمت لساعته، كانت تضعه في وعاء ، ونعود إلى البيت حيث يذبحه الوالد ويترك دمه ينقط في عيني الصغيرة الكفيفتين ، وكانت الأم تستغفر ربها عن هذا الذنب ، وتناجيه قائلة : «سامحني يا الله ، سامحني يا رب . فأنا أفعل هذا لأجل هذه الصغيرة الضريرة » .وبعد مضي وقت على ذلك . تغسل عيني الصغيرة بماء ساخن . وتمرر يدها فوقهما لتعرف ما إذا كان الغشاء الأبيض قد خف بحيث ترى الصغيرة حركة اليد ، وفي كل مرة كان يرين عليها نوع من الصمت الكئيب ، فندرك أن لاجديد ، وأن أمل الأم يخيب في

هذا الدواء كما خاب في عشرات « الأدوية » المماثلة التي وصفوها لها وجرّبتها .

عاد السيد من حلب بعد تشييع جثمان خاله وزوجته ، وكان يضع شارة سوداء على صدره ، وجاء الدرك مرة أخرى وعاد التحقيق لمعرفة الذي أفلت الفرس ، وتقدم الوالد بشهادة تفيد أن الفرس كانت ترعى على تخم الطريق، وكانت مربوطة بوتد حديدي اقتلعته عندما اجفلت من صوت السيارة ، بدليل أن الوتد الحديدي كان لايزال عالقاً بمقود الفرس عند الحادث . واختتم شهادته بقوله :

– نصيب ... عوضنا الله بسلامتك يا خواجه خريستو .

فقال الخواجه خريستو غاضباً :

– أنت من نصّبك « أفوكاتو » يا سليم ؟

– أنا نصّبت نفسي .

صاح دركي مستكبراً أن يردّ أجير على سيده :

– اخرس . تجاوب الخواجه ؟

– وهل الخواجه الله ؟ أنا أقول الحقيقة .

– أنت تكذب . . من رأى الوتد في رسن الفرس غيرك ؟

قالت فلاحة عجوز :

– كلنا رأيناه ... لاتظلموا رجالنا .

– يا شيبة الضلال . . اسكتي والا قطعت لسانك .

فقال الوالد وقد زجّ نفسه في القضية على غير توقع من الأم :

– لاأحد يقطع لسان أحد إلا بالحق . . اسكندرونة قريبة ونحن معكم إلى السراي . . امشوا يا شباب .

هرعت الأم وأمسكت بالوالد . أدركت أن روح المشاكسة ركبته ، وأنه لم يعد يبالي بشيء ، وربما كانت غضبته ناشئة عن رغبته في اختراع مشكلة للرحيل ، أكثر مما هي غضبة على الظلم النازل بالفلاحين ، وأسقط في يد الخواجة خريستو الذي كان يريد تعذيب فلاحيه وإرهابهم لاسوقهم إلى السجن وتعطيل الفلاحة والبذر ، لذلك تدخّل قائلاً :

– لاحاجة إلى اسكندرونة أو السراي ، سأكتشف الفاعل بنفسي ؛ وأنت ، يا سليم ، سأعلمك كيف تكون المراجل ، أهذا جزاء الإحسان ؟

لفظ هذه الكلمات التهديدية وأدار ظهره ومضى ، ولحق به الدرك ومن عيونهم تنزّ نظرات حقود ، وعاد الأب إلى البيت وهو يقول للأم :

– دعيه يبلط البحر . . هذا الكافر . يا مرحباً بالسجن ، ويا مرحباً بالموت . « يوم ديك ولا ألف

يوم زاغه»(١) وأنا من جهتي مللت الشغل معه – الله يفتح لنا باباً من عنده ، ويجعل رزقنا على غير يديه .

قبعنا ، ذلك النهار ، في البيت . كان الأب نكداً عبوساً ، لاذ بالصمت طيلة الوقت ، وخافت الأم العاقبة فبكت ، ووضعت أختنا الضريرة في حضنها وقالت : « هذا ما كنت احسبه . . أنت لا تثبت في شغل ، وما كدنا نستقر حتى خلقت مشكلة للرحيل ، فإلى أين تريد ان تجرجرنا ؟ وماذا نفعل الآن ؟ »

قال الأب زاجراً :

– لاتنوحي في وجهي وتزيدي همومي . أرض الله واسعة . . إذا رحلنا من هنا فإلى المدينة ، سأعيش في المدينة ، واشتغل في الميناء ، مع أولاد البلد . . الشغل هناك كثير ، ولنا أسوة بغيرنا .

غير أننا لم نذهب إلى المدينة . كان الخواجه خريستو لايثق بالفلاحين ، ويريد أن يبقى الوالد في الحوش ، خاصة في موسم الشتاء المقبل ، حيث تذهب عائلته إلى اسكندرونة ،

---

(١) الزاغة فرخة الدجاجة .

ولا يأتي هو إلى المزرعة إلا أياماً قليلة في الاسبوع . ولقد تصالحنا ، لاأدري كيف . وأشار الوالد على السيد أن يقوما بتجبير رجل الفرس ، وأقنعه بذلك . وأحضر الوالد مجبراً من قرية « قره اغاش » . طلب أن تصنع تخشيبة للفرس ، توضع داخلها ، حتى لاينك « الجبار » عن الرجل المكسورة .

أقيمت التخشيبة في طرف الحوش . وهي عبارة عن أربع قوائم خشبية . وضعت الفرس داخلها . ودقت ألواح خشبية على مستطيل القوائم . ومدّت ألواح تحت بطنها حتى يرتكز ثقل جسمها عليها ، وجبرت رجل الفرس ، وقال الوالد بلهجة ثقة : « بعد اربعين يوماً نفكّ الجبار . ويكون الكسر قد انجبر » وعندما قالت الوالدة ، في احدى الليالي التالية ، انها علمت من الفلاحين أن كسر الحيوانات لايُجبر . صاح بها نزقاً كعادته :

– من هو ابن الكلب هذا الذي قال ؟ يفهم بالخيل أكثر مني ؟

– وأنت منذ متى صرت تفهم بالخيل ؟

– منذ متى ، يا بنت الكلب ، أفهم بالخيل ؟

وهل تحسبيي حماراً ؟

سكتت الأم . ولبدنا أختي وأنا حولها ، ناظرين اليها بضراعة كيلا تجاوبه فيضربها . كان قد اقحم نفسه في الموضوع ، كما أقحم نفسه في الزراعة . كما أقحمها ، قبلا ، في صنع الأحذية للفلاحين . وكانت الأم تعرف أنه يخبص في كل ذلك ، وسيبوء هنا بالفشل ، كما باء به في اللاذقية والسويدية و«الأكبر» ، وسيعود علينا فشله بمزيد من الشقاء . لذلك تريده ألا يتدخّل في أمر الفرس حتى لا يتحمّل مسؤوليتها .

وكان كيدون (١) للأرمن يقوم قريباً من المزرعة ، على مدخل اسكندرونة ، مؤلف من أكواخ خشبية وفيه بعض الحوانيت ، وإلى هناك كان الوالد يذهب في الليالي ، فيشرب ويعود ثملا ، وكانت الوالدة تخاف من ذلك ، لا لأنه يسكر ، بل لأنه قد يتحرش بامرأة ما . والأرمن لايتساهلون في هذه الأمور ، وكثيراً ما عادوا به . بعد أنصاف الليالي ، وهو في حالة سكر شديد . فكانت تغلق الباب عليه ، لتمنعه من الخروج ، حتى لايراه السيد ثملا ،

---

(١) الـ (كيدون) اشبه بحوش كبير ، يتجمع فيه الارمن ويبنون اكواخا يعيشون فيها .

وكان هو يصرّ على الخروج ، مدّعياً أن له شغلاً مع السيد ، ويتعاركان فنستفيق ، أختي وأنا ، وتجفل الأخت الضريرة وتبكي ، وتبكي الوالدة ، ونركض إلى الباب لنساعد الوالدة في إغلاقه ، بينما هو يترنح ويقهقه ،أو يشتم ، ويحطم بعض الأشياء في البيت ، حتى إذا ارتمى أخيراً على الفراش ، بثيابه القذرة ، الملوثة لكثرة ما سقط حيث كان يسكر أو على الطريق العام ، كنا نتجمع حول الأم ، ونلتزم الصمت حتى لايفيق ، وتعمد هي إلى فردة حذائه فتضعها تحت وسادته ، اعتقاداً منها أن ذلك يذهب بسكره ، فإذا نام ، عدنا نحن أيضاً إلى النوم ، وفي الصباح ينهض كئيباً ، نادماً ، ويخرج من البيت إلى الحوش ، ثم إلى العمل في المزرعة ، وتذهب الأم إلى الخدمة في بيت السيد .

أما الفرس فقد ساء حالها ، ولم تمض أيام حتى تورّمت رجلها وتسلّخ الجلد تحت البطن وعند الكفلين ، من احتكاك الجسم بالخشب ، وأقبل الذباب ينهش في المواضع المتسلخة نهشاً متواصلا ،

كانت الفرس تتألم ، ويبدو الألم في عينيها وحركاتها ، والأم تحمل اليها العلف والماء ، وتقف إلى جانبها متوجعة ،

وتكش الذباب عنها ، وتقول لها : « اصبري ، تحملي قليلا ولسوف تشفين ،كلنا نتألم ، والفارق بيننا أننا نشكو، نحن لنا لسان نشكو به ، أما أنت فلا تستطيعين . أنت بكماء يامسكينة . »

واذكرأن الأم قطعتبعضأغصان« اليغنص » (١) ، وجعلت منها منشّة ، وكلفتني بكشّ الذباب عن الفرس ، وقالت « لعل الله ، بحسنة هذه البهيمة ، يرأف باختك الصغيرة ويجعلها تبصر » ، وكنت أقوم بهذه المهمة راضياً ، لأنها تسرّ الأم ، ولأن الله قد يستجيب لدعائي ، وأنا أكشّ الذباب عن الفرس ، فيزيل البياض عن عيني الأخت الصغيرة .

وسمعت الفرس تئنّ ، ورأيتها تضرب رأسها بالخشب لشدة الألم ، وتصهل إذا تركناها طويلا ، وكان صهيلها وانياً ، متقطعاً ، كشكاة مريض مدنف ، وما ان ترى الأم حتّى تلتفت اليها بعينين كليلتين ، حزينتين ، فتتقدم منها وتمسح على رأسها ، وتقدم اليها العلف والماء ، فترفض تناولهما ، حتّى انتهت إلى هزال شديد ، وانتشرت من رجلها المتورمة رائحة كريهة ، وادرك الجميع أنه لم يعد ثمة أمل بشفائها ، ولابد من وضع حد لآلامها ، وقد شتم

---

(١) ضرب من النبات البري

الأب ذلك المجبّر ، ابن الكلب ، الذي لايفهم في التجبير .
وقال الخواجه خريستو : كان من الأفضل لو أحضرنا لها طبيباً بيطرياً. وذات أصيل جاء الطبيب البيطري فعاينها وأعلن أن رجلها مصابة «بالغرغرينا» ، وان أوان معالجتها قدفات ، وأوصى باطلاق النار عليها ، ثم غادرنا بالحنطور الذي جاء فيه .

تقرّر قتل الفرس . « فهم » الوالد بالحيل انكشف عن جهل فاضح . لكنه أصر على أن كسر الحيوان يمكن أن يجبر ، وقال للأم بلهجة ايمان وورع « هذه مشيئة الله ، لاتعترضي على حكمه »فقالت : « استغفر الله ، أنا لاأعترض ، ولكن الطبيب كان يمكن أن يشفيها لو عاينها منذ البدء » فقال الوالد : « الله لم يعط سره لأحد حتى يعطيه للأطباء . . هذا نصيبها والسلام » . . وغادرنا إلى الخمارة ، متذرعاً بشغل لم تصدقه الوالدة ، ولم تعترض على ذهابه أيضاً ، وبكت تلك الليلة على الفرس واختنا الصغيرة . كان حظهما متشابها في نظرها ، وكان هذا قضاء الله في رأيها ، وان كانت ، في أعماقها ، تؤمن أن الطبيب كان أفضل من المجبر ، وان أختنا تحتاج إلى طبيب ، وستوفر قرشاً قرشاً حتى تذهب بها إلى المدينة وتعرضها عليه ، كما قالت .

في اليوم التالي نفّذ حكم الإعدام بالفرس . كانت هيئة التنفيذ تتألف من الخواجه خريستو الذي جاء ومسدسه على جنبه ، ومن الوالد الذي قام بفكّ الأخشاب من حول

جسم الفرس ، وبعض الفلاحين وأولادهم ، وحملت الأم العلف والماء للفرس منذ الصباح ، وودعتها بتمرير كفها على رقبتها ورأسها ، وحين استاقوها إلى البرية وهي تظلع . رأيت الدموع تنساب على وجنتي الأم ، ومنعتني من الذهاب مع الآخرين ، وعندما سمعنا صوت الطلقات الرصاصية يأتي من بعيد ، قالت الأم : « انتهت . . قتلوها المسكينة » ومسحت دموعها ولم تزد ، بل لم تسأل الوالدكيف تمّ ذلك ، وتجنبت النظر إلى الموضع الذي كانت الفرس فيه ، ولازمها حزن ووجوم لبعض الوقت ، وصرفت اهتمامها إلى اختنا الضريرة ، وفي الأصيل حملتها على ذراعها ، وامسكتني من يدي وذهبنا إلى بستان « كاتوني » . . . وهناك لعبت مع أولاد البستاني حتى المساء .

في طريق العودة أخبرتني أنني سأذهب إلى المدرسة ، وأنها ستقصد المدينة في الغد لتسجيلي مع أولاد خالي في المدرسة الارثوذكسية ، وأنها ستشتري لي صندلا ، وتخيط لي محفظة من قماش ، وان علي أن أكون أديباً ، مجتهداً ، وأجعلها تفرح بي ، وسأكون مسروراً في المدرسة ، واستطيع أن أكتب وأقرأ مثل أولاد السيد ، وسأجد رفقة لي ، وأتعود على الجو وآلفه وأحبه بسرعة .

وهكذا كان . . .

ـ ٢ ـ

ها أنا في المدرسة . .

مجلسي على ضريح رخامي مستطيل نُقشت عليه كلمات يونانية ، يقوم في الباحة ، ويلاصق جدار الكنيسة ،ويبدو متوحداً . موحشاً ، كأنه ضائع في فلاة .

كانت المدرسة بناء من أربع غرف ، يليه بناء صغير من غرفتين ، اتخذه المدير سكناً له ، تليه حديقة صغيرة . وكان البناءان كلاهما في طرف من باحة الكنيسة ، وفي هذه الباحة الواسعة بعض القبور الرخامية القديمة ، عليها كتابات يونانية لا أحد يعرف مافيها ، وخلف الكنيسة ، من جهة الهيكل ، كان قبر إسمنتي من الجهة اليسرى للاستدارة الخارجية للهيكل ، وقد علمت من الأولاد أن هذا ضريح أحد الكهنة ، وان الكاهن ، عندما يموت ، يجلسونه في الضريح بثوبه الكهنوتي ، وهو يمسك بالانجيل وأمامه شمعة لا تنطفىء أبداً ، وان الكهنة ، عندما يموتون ، يدفنونهم لصق الكنيسة من جهة الهيكل ،

تعظيماً لهم . وقد انطبعت هذه الصورة في ذهني . وتهيبت الصعود على ضريح الكاهن ، لئلاّ أُقلق راحته . وظلت الشمعة التي لا تنطفىء موضع استغرابي ، وعجبت أن يقرأ الأموات ، وأن يظل الكاهن جالساً ، في ثيابه المقصبة ، ذات الزراكش ، وأن يكون له هذا الامتياز ، وفكرت : الا يخاف ، وهو وحده ، تحت الارض ، ومن أين له الطعام والشراب ؟ وسألت الوالدة عن هذا السر ، وعما اذا كان صحيحاً ما سمعته من الأولاد ، فقالت : « كل شيء جائز ، انها قدرة الله » غير أن الوالد قال لي : « لاتصدق هذا الكلام ، الخوري مثل سائر الناس ، وليس هناك شمع ولا بخور ، وجسمه يفنى كباقي الأجسام » .

أما مجلسي على القبر الرخامي ، المواجه للمدرسة ، فلا أدري سبباً له . ربما كنت أرتاح ثمة ، وسط الهدوء المرين على المكان . وربما كان جو العزلة ، وجلال الموت الذي استشعره ، وتلك الكلمات اليونانية المحفورة عليه ، تلائم روحي الغريبة ، وربما كنت أجد هناك مجالا للتأمل ، فأخلو إلى نفسي التي أوحشها هذا السجن المدرسي .

كنت أفكر بالأم والبيت والحوش والقناق الحجري وبيوته الطينية التي يسكنها الفلاحون ونسكن واحداً منها

وكذلك بالطريق التي تمتد الى ما لا نهاية ، وبالمقبرة الفرنسية ، وأشعر برغبة في هجر المدرسة والعودة إلى البيت .

كنت أجلس على الضريح ، وأسند ظهري الى جدار الكنيسة ، ماداً رجلي فوق القبر ، وأروح أسترجع كل الماضي الذي عشته ، وكل الآلام والعذابات التي عرفتها عائلتنا . ومن عجب أن تلك العذابات ، حتى في أبشع صورها ، كانت تبعث فيّ حنيناً إلى الريف ، حيث الفضاء الرحب ، والشمس الساطعة ، والحقول والمطر ، والموقد الذي نتحلق حوله أيام البرد ، والأم تقصّ علينا حكاياتها العجيبة .

وكانت الكنيسة تبعث في رهبة وخشوعاً . الوالدة تقول ان الكنيسة بيت الله ، وكنت أرغب في مشاهدته يوماً ، لكي أعرض عليه شقاء حياتنا وأطلب منه أن يشفي أختي الضريرة . ولم تكن صورة الله لتختلف في ذهني عن صورة الأم . كان طيباً مثلها ، رقيقاً ، شفافاً ، نورانياً ، وكثيراً ماشممت رائحة البخور تنبعث من الكنيسة ، فكنت أسأل الأم عن ذلك ، فتجيبني ان الملائكة هي التي تشعل البخور بين يدي الرب . ومرة رأيت باب الكنيسة مفتوحاً في غير أوقات الصلاة ،

فدفعني فضولي إلى الدخول . كانت مستطيلة ، ذات قبة عالية ، عليها أربع صور للقديسين الأربعة : متى ومرقص وبطرس ويوحنا ، اصحاب الأناجيل التي يتكون منها العهد الجديد . وكانت الكنيسة تنتهي بجدار فيه ثلاثة أبواب ، أحدها في الوسط والاثنان على الجانبين ، وكان هذا الجدار لا يصل إلى السقف ، بل يفصل الكنيسة عن الهيكل ، وعلى طول الجدار صور للقديسين في أوضاع مختلفة ، وثمة ، على جانبي الكنيسة ، مقاعد ، وحاملات شموع ، وفي أعلى جدران الكنيسة نوافذ ذات زجاج ملون ، وخاصة في أعلى استدارة الهيكل ، وكانت للنوافذ تخاريم خشبية ، في كل تخريمة قطعة زجاج ذات لون يختلف عن لون التخريمة الأخرى ، وكان انعكاس الشمس عليها يعطيها الواناً قوس قزحية بهيجة ، وقد استغرقتني الوقفة في باب الكنيسة حتى نسيت موعد الدرس ، وحين خرجت ألفيت جميع الأولاد قد دخلوا الصفوف وبدأوا الدرس ، الا أنا فقد كنت متخلفاً ، وهذا ما يعرضني للعقاب.فكرت أن أهرب من المدرسة ، أو أدخل الصف وأواجه القصاص ، واحترت في أمري إلى أن أبصرتني المعلمة من النافذة وندهتني ، وعندما سألتني أين كنت لم أشأ أن أكذب ، وقلت لها الحقيقة ، ففركت أذني وأوقفتني إلى الجدار . لأنه كان

ممنوعاً على التلاميذ دخول الكنيسة في غير أوقات الصلاة .

كنا نُصفّ عندئذ وندخلها صامتين . فنقف على الجانبين ، البنات عن جانب والصبيان عن جانب ، والكبار منا يذهبون لحمل الصلبان والايقونات ذات العصي الطويلة كالبيارق ، وبعضهم لترتيل الصلوات ، أو حفظ الايقاع النغمي الذي يسمونه « الايصن » . وكانت الصلاة تطول وتطول حتى أشعر بالتعب والملل . وأنفصل عن الجو الذي أنا فيه . والطقوس التي كانت تجرى أمامي ، وأهيم مع خيالي في دنيا طفولتي السابقة .

ذلك المساء عدت إلى البيت حزيناً . كان القصاص الذي نلته أول قصاص ألقاه في حياتي المدرسية ، ولم يكن قد مضى علي اسبوع فيها وكان علي . بخلاف جميع الأولاد ، أن أسير طويلاً حتى أصل البيت . فالمدرسة في منتصف المدينة . وبيتنا في الضاحية الشمالية البعيدة . وكثيراً ما رأيت الأم والأخت تنتظراني في منتصف الطريق ، فكانت الأم تقبّلني ، وتسألني عما تعلمت . وعن سلوكي في المدرسة ، وعما إذا كنت قد تناولت غدائي الذي تضعه لي في زوادة قماشية أمسكها بيدي ، وكيس الكتب

معلق في عنقي ، يمر تحت إبطي ويتأرجح على جنبي ، وأنا ارتدي ثوباً يشبه الفستان ، وفوقه الصدرية المدرسية .

لم أكن صغيراً بعد ، فأنا في الثامنة من عمري ، لكنني كنت غريباً عن جو المدينة والمدرسة ، وكان لي خال في المدينة اسمه عبد الله ، هو ابن عم أمي ، أضع زوادتي في بيته ، وأذهب مع أولاده إلى المدرسة ، ونعود ظهراً فنتناول طعام الغداء معاً ، وكان هذا الخال فقيراً ، يعمل عتالا في مخزن لبيع مواد البناء ، وكانت امرأته خياطة ، وهي مدبرة ، وكثيراً ما تصنع لنا « البالوظة »،وهي نشا محرور بالماء مع بعض السكر ، أو تقلي لنا بيضة مع كمية من الطحين ، أو تخدع معدنا بألوان من هذه الأطعمة النحيلة التي تتفنن في صنعها .

ولقد كان أول يوم ذهبت فيه إلى المدرسة يوماً مميزاً في حياتي وذاكرتي . كنت خائفاً إلى درجة الرعب . كنت قروياً صغيراً يدخل المدينة لأول مرة ، وكنت طفلاً نحيلاً كشمعة تنوس حتى لتكاد تنطفىء مع كل هبة ريح ، وكان الاحتماء في حضن الأم يقي هذه الشمعة الانطفاء . فجأة وجدت نفسي مضطراً إلى فراق أمي والذهاب إلى مدرسة لاأعرف عنها ولا عن تلاميذها من أولاد المدينة

شيئاً ، ولقد ألبستني الوالدة فستاني ، وهو أشبه بجلابية ، له جيب أسفل جهه اليمين ، وغسلت وجهي وقصت أظافري وألبستني الصندل الجديد ، ومشطت شعري وحاولت وسعها أن تصنع لي فرقاً مناسباً فلم تفلح . وكان الوالد قد أخذني قبل يوم إلى حلاق في « كيدون » الأرمن ، فقصّ لي شعري قصة ضحك عليها الأولاد وأبكوني لأجلها ، ومنذ الصباح قادتني إلى المدينة ، وعرجت على بيت خالي فاصطحبت امرأته إلى المدرسة، وهناك دخلنا على المدير الذي كان رجلا أسود الشعر ، أبيض البشرة ، في عينيه جحوظ خفيف ، لكنه أجمل من كل من رأيت من الرجال باستثناء والدي . وكعادتها التي ستتكرر مئات المرات . والتي سأذوب خجلا منها مئات المرات أيضاً ، قصّت على المدير حكاية حياتنا وفقرنا ، وصادقت امرأة خالي على كل ما قالته أمي ، وزادت وهي تشير إلينا قائلة « انهم لايشبعون اللقمة » فقال المدير بلا مبالاة وبلهجة لا ودّ فيها . متوجها بالكلام إلى أمي :

— ولماذا لاتعلّمينه صنعة يستفيد منها إذن ؟

فعادت الأم إلى التوسل وهي تقول :

— وحيد يا حضرة المدير . وحيد . . وأريده

أن يفك الحرف . . ليس في بيتنا من يكلم الورقة ، وأريد أن يتعلم هذا الصغير الكتابة والقراءة وليس لنا غيركم . نحن أرثوذكس مثلكم – ورسمت إشارة الصليب –أرثوذكس ومؤمنون، وقد تشردنا بين الفلاحين طويلا ، وأريد لهذا الولد المسكين أن يتعلم الصلوات على الأقل .

قال المدير :

– سيتعلم مثل باقي الأولاد ، هذه المدرسة مشهورة .. الأولى بين مدارس اسكندرونة كلها ، ولكن حظّها قليل .. كل أولياء التلاميذ يشكون الفقر . . الطائفة كلّها فقيرة . . لماذا كل الأرثوذكس فقراء ؟

قالت امرأة خالي وكانت تعرف المدير وتذهب إلى الكنيسة دائماً :

– لأنهم مستقيمو الرأي كما يقول أبونا الخوري .

– هذا خطأ – صاح المدير – هذا خطأ . . إستقامة الرأي شيء والكسب الحلال شيء آخر . . . الأغنياء مؤمنون أيضاً ، فلماذا ليس في طائفتنا إلا الفقراء ؟ .

ران الصمت قليلاً . كان المدير يتقاضى راتبه من المجلس الملّي ، وكذلك المعلمات الثلاث ، وكان للكنيسة

بعض الأوقاف ،ومع دخل المدرسة كانت تتوفّر الرواتب الضئيلة ، ويبدو أن المجلس المِلّي كان في ضيق هذا العام . وأوعز إلى المدير بعدم قبول أي تلميذ مجاناً ، ولهذا تشدّد . ولم تنفع حكاية الأم عن فقرنا ، ولاشهادة امرأة الخال ، وفُرض علي أن أدفع خمسة وعشرين قرشاً في الشهر ، ففكت الوالدة منديلها ، وحلت العقدة التي في طرفه ودفعت كل ما معها ، وكان سبعة عشر قرشاً ، على أن تدفع الباقي بعد اسبوع .

نَدَهَ المدير إحدى المعلمات وأسلمني إليها ، نظرت إلى الأم متضرعاً ألا تفارقني ، لكنها انحنت عليّ وقبّلتني ، ووضعت في جيبي قطعتي سكاكر ، وقالت «اذهب يا صغيري مع المعلمة وكن مهذباً ومطيعاً » وأوصت المعلمة بي قائلة : « الله يستّر عليك ويحفظ شبابك وأهلك . . الولد خجول ومستغرب ، فكوني رحيمة به ، ولا تدعي الأولاد يعتدون عليه » وسرت مع المعلمة إلى إحدى الغرف ، وسارت الأم وزوجة الخال إلى الباب الخارجي للمدرسة ، وانغلق الباب ورائي فوجدت نفسي داخل الصف .

كان التعليم يبدأ بالألف باء . وعندما يحفظ التلميذ الأبجديـة بصماً . يعلمونـه كتابة الحروف ،

ومنذ اليوم الأول لدخولي المدرسة حفظت بعض الأحرف، وعندما كنت أنصرف من المدرسة مساء ، وأسير في طريق البيت خارج المدينة ، كان يتولاني إحساس بالرهبة ، ثم بالخوف لبعد البيت عن المدينة ، فما ان ألمح والدتي وأختي تأتيان لملاقاتي ، حتى أطير راكضاً إليهما ، والأم تصيح بي أن أبتعد عن منتصف الطريق وأسير على الحافة . كانت تستقبلني بحنان ولهفة ، وتسألني عن المدرسة والدراسة والمعلمين ، وما فعلت في الصف ووقت الاستراحة ، وكيف عدت مع أولاد خالي فتغدينا ورجعنا إلى المدرسة .وكنت أخرج لها اللوح الأسود الذي كتبت عليه بعض الحروف، وكتاب القراءة للصف الأول الذي اعطتني إياه المعلمة وطلبت مني أن أحضر ثمنه في اليوم التالي .

هنا كانت الأم تغتم ، كان يعز عليها ألا تلبي طلباتي المدرسية ، لكنها لم تكن تملك ذلك ، وأحسب أنها كانت تذهب إلى زوجة السيد وتسألها المساعدة أو تستدين منها ، وتفعل كل ذلك خفيةً عن الوالد الذي لم يكن مهتماً بدراستي ، ولا يرى فائدة من إرسالي إلى المدرسة أصلاً .

عسير على المرء أن يذكر أيام طفولته بكل تفصيلاتها. أنا لاأذكر كيف تقضت الشهور الأولى من دراستي ،

لكنني أعلم أن الطريق بين بيتنا والمدرسة قد صار مخيفا أيام الشتاء ، وكانت الوالدة توصيني أن أنام في بيت خالي إذا كان الجو ماطراً ، وقليلا ما كنت أفعل ، بل أفضل السير هرولة وركضاً إلى البيت وأنا أردد الصلوات والأدعيات التي حفظتني إياها الأم .

كذلك لاأذكر كيف نجحت في المدرسة ، وكل ما أعلمه أن نوعا من الاهتمام المتميز بي قد صار لدى المعلمات ، وأن إحداهن كانت تعطيني بدل المرحى المدرسية صورة أحد القديسين ، ويوم حصلت على أول صورة منها ، كمكافأة على اجتهادي ، وعرضتها على الأم في البيت ، لم يعد المكان يتسع لفرحتها ، وقد علقت في رقبتي ، تحت القميص الكتاني ، خرزة زرقاء اتقاء للعين ، وأوصتني ألا أطلع أحداً عليها ، وأن أحفظها لتحميني .

وكانت الفرحة الكبيرة الثانية ، يوم أعطتني المعلمة وظيفة كتابة بالحبر ، ذهبت الأم إلى « كيدون » الأرمن واشترت ذرورا من حبر الكوبياء أذابته في فنجان القهوة ووضعت لوحا من خشب فوق وسادة سميكة ، وتربعت أنا أمام هذه الطاولة الغريبة وشرعت أكتب . كنت استعمل الحبر لأول مرة ، وقد غمست الريشة كلها في الحبر،

وحاولت أن أكتب حرف الباء ، فاذا نقطة كبيرة تعوم على الدفتر ، وعندما هززته انساحت نقطة الحبر ولوثت الصفحة ، وأحضرت الوالدة رمادا في وعاء ورشت على الحبر ، لكن الدفتر كان قد تلغمط ، ولم تكن الأحرف التالية التي كتبتها بأفضل من الحرف الأول . وزاد الطين بلة أن القطة التي جاءت تتمسح بي ودفعتها عني بنفرة ، قلبت فنجان الحبر فاندلــق عــلى الحصير ، وكانت تلك خاتمــة طاقتي على الاحتمال ، فانفجرت في بكاء مر ، وخفت أن أذهب في اليوم التالي إلى المدرسة ، حتى صحبتني الوالدة واعتذرت من المعلمة على ما حدث معي ، وعلى اتساخ دفتري وتلوثه بالحبر ، فعفت عني ، لكنها نبهت الأم إلى شراء محبرة ، وشرحت لنا كيف نضع الريشة في رأس حاملتها الخشبية ، ونغمس طرف الريشة في الحبر فقط ، ونكتب بتأنٍّ وخطّ جيد .

كان تعليم الخط ، آنذاك ، مادة مهمة من مواد التعليم ، وكان مديرنا جيد الخط بالعربية ، والمعلمة رائعة الخط بالفرنسية ، وقد أعطونا دفتر خط رقعي ، وطلبوا منا أن نملأ صفحة في كل وظيفة من وظائف الخط العربي ، ومثلها في وظيفة الخط الفرنسي الذي كان مطبوعاً بأحرف كبيرة وجميلة .

وكانت عطلة الدراسة الاسبوعية تبدأ من بعد ظهر السبت إلى صباح الاثنين ، ولكن كان علينا أن نأتي إلى المدرسة صباح الأحد ، في أجدّ وأجمل ثياب لدينا ، لندخل إلى الكنيسة فيرى أبناء الطائفة من المصلّين إلى تلامذة طائفتهم وجهود المعلمين في المدرسة ، ولقد طلبت إلي المعلمة ، بلطف جمّ ، ألا آتي يوم الأحد ، لأنها تعفيني من حضور الصلاة في الكنيسة .

لم أسألها لماذا ؟ كنت أعرف أن ذلك بسبب ثيابي غير الملائمة ، ولم أشكُ منها ، أو أطلب من الأم أن تشتّري لي ثياباً ملائمة كأولاد خالي . كنت قد تعلمت ، منذ وعيت الوجود ، أننا فقراء ، وأن فقرنا لامثيل له ، وتقبلت هذا الواقع ونقمت عليه ؛ ولشدّ ما تساءلت عن سبب فقرنا ، ولشدّ ما حاولت الوالدة أن تقنعني أن ذلك من الله ، غير أننا كنا نحب الله مثل غيرنا ، ولم نكن نؤذي أحداًمثل السيد وزوجته ، والوالدة تصلي كل ليلة ، فلماذا يبقينا الله فقراء، وأفقر من جميع الذين نعرفهم ؟

وكان يصدف ، أحياناً ، أن يموت أحد وجهاء الطائفة ، فيخرج تلاميذ المدرسة في صفّين متقابلين أمام الجنازة ، وكنت أعفى أيضاً من الخروج ، لابسبب ثيابي وحدها ،

بل لأن صندلي الذي كان قد اهترأ وليس لي سواه ، غير صالح بالنسبة لتلميذ يسير في جنازة فخمة . كان على التلاميذ أمثاله، وكذلك على الجوقة الموسيقية التي تسير في المقدمة ، يتبعها بساط الرحمة المخملي المطرز بصورة ملاك ، أن يضفوا مزيداً من الفخامة على جنازة الراحل ، وكان سيري ، بالثياب التي ألبسها ، وصندلي البالي ، يفقد هذه الفخامة بعضاً من أبهتها ، لذلك كانوا يُقصونني ، ويعاملونني بقسوة بالغة .

غير أن هذه المعاملة القاسية ، التي كانت تجرى دون قصد من أي من معلماتي ، ستبلغ ذروتها في السنة التالية، عندما انتقلت إلى الصف الثاني الابتدائي . ففي الربيع من ذلك العام نظمت المدرسة رحلة إلى انطاكية ، وطلبت المعلمة من كل تلميذ أربعة قروش للاشتراك في الرحلة ؛ على أن يحضر طعامه معه .

شرع التلاميذ بإحضار قروشهم المطلوبة ، واقترب موعد الرحلة ولم أحضر القروش الأربعة . كنت أعرف أننا على درجة من الفقر لانملك معها أن نشتري الخبز ، فلم أشأ أن أفاتح أمي في موضوع الرحلة أو أطلب منها القروش الأربعة . صممت على عدم الذهاب . وفي اليوم السابق

للرحلة ، أوقفتني المعلمة في الصف وسألتني لماذا لم أحضر ما طلبته مني فلذت بالصمت . رغبت عن الكلام على فقرنا، وعبثاً حاولت المعلمة أن تجعلني أتكلم . فلما اتخذ سكوتي صفة التحدّي تناولت المسطرة وضربتني . لم أبك ، ولم أجب . وأثارها هذا الموقف المتعنّت ، فضربتني من جديد ، وأخرجتني من مقعدي وضربتني أمام التلاميذ ، ومع ذلك رفضت أن أجيب.لم أصرخ أو أبكِ ، لكن ابن خالي الذي كان معي في صف واحد ، طلب الكلام فأذنت له المعلمة، فقال بصوت سمعه جميع التلاميذ : « أهله فقراء ، وأمه خادم ، لذلك لم يحضر القروش الأربعة » وقد ارتعشت لهذه الفضيحة ، وفار تأثر غريب في ذاتي ، وعندئذ فقط انساحت الدموع من عيني ، فبكيت دون تحفظ ، وشرقت بالدمع وأنا أعود إلى مقعدي .

رنّ جرس فرصة الاستراحة بين حصّتين من الدرس ، وخرج التلاميذ إلا أنا . بقيت في مقعدي،شاعراً أن الدنيا غائمة من حولي، وأن كآبة تنثال كرصاص مذاب في صدري، وأن علي أن أغادر المدرسة فلا أعود إليها أبداً ، بل أذهب إلى البراري ، إلى البساتين ، وإلى أشجار السرو في المقبرة المجاورة حيث « يستريح الراقدون » كما تقول أمي .

الضريح نفسه ، ذو الكتابة اليونانية ، لم يعد يوفر لي ذلك الانفراد بالنفس ، والتأمل الطفلي النابع من إحساس مرهف وأخرس ، لايعرف تقصّي الأشياء ولا التعبير عنها .

غيم وريح . كنت أحب الغيم وأكره الريح . الغيم قبة ضبابية تستثير المشاعر المبهمة للنفس الحزينة . ولقد سمعت الوالدة تردد قول الخوري اننا عندما نموت سنخطف جميعاً في السحب لنلاقي الربْ في السماء ، وقرأت على ايقونة مثبتة على جدار الهيكل في الكنيسة إلى جانب صورة يسوع قوله « تعالوا إلي ايها المتعبون وأنا أريحكم » وصرت أفكر بالنبيل التي تؤدي إلى يسوع لنستريح عنده . كانت أمي متعبة ، وأختي الضريرة متعبة ، وأنا متعب . نحن الثلاثة نذهب إلى يسوع . الوالد يبقى هنا . إنه على انسجام مع الحياة . تراه لا يستشعر جهمة الغيوم . ولا يرى إلى عبوس أيام الريح والمطر ، ولا تتبدل الأشياء عنده بتبدل الفصول ؟ .

كنت أفهم أمي أكثر مما أفهم أبي . أفهم أختي الضريرة وأعيش عذابها لأنه عذاب أمي . وأفهم ما تعانيه أختي لأن أمي تعانيه . هي مصب الظلم النهائي ، وأنا شاهد عليه ، ولسوف أخفي عنها هذا الظلم الذي لحقني

اليوم في المدرسة كيلا تتعذب أكثر. الدنيا غائمة في الخارج. وهذا أدعى إلى راحتي. أحبّ الغيم، أحبّ السحب التي سأخطف فيها لألاقي الرب في السماء، وسأقصّ عليه كل حكاية عائلتنا. وأرجوه أن يسمح لي برؤية خالي الذي تقول أمي إنني أشبهه. وعندما نخطف في السحب، سنذهب إلى يسوع ونستريح.. سنقول له: ها قد جئنا. جاء المتعبون يا سيد ليستريحوا لديك. وسوف يفتح ذراعيه. كما في الأيقونة، ويأخذنا في حضنه فنستريح.

لقد لاقيت في هذه المدرسة كل صنوف الهوان. أنا أفقر من كل الفقراء الذين فيها، ولا يسمح لي بدخول الكنيسة مع التلامذة، ولا بالخروج في الجنازات. ولا أستطيع دفع القروش الأربعة للذهاب في الرحلة إلى أنطاكية. وأنا لن أذهب، ولن أقول للمعلمة لماذا لاأريد أن أذهب، وقد غضبت على ابن خالي لأنه أفشى سري.. ومع ذلك فلست أبالي.. كل ماأريده، الآن، أن أخرج من الصف، وأذهب وأجلس على ذلك الضريح حتى يحين موعد الانصراف ظهراً.

كان التلاميذ في الباحة يلعبون. وكنت وحيداً في غرفة الصف حين دخلت المعلمة التي عاقبتني. وقمت احتراماً

لها وجلست صامتاً . تأملتني من موقفها قرب طاولتها . أغضيت حياء وانكمشت بانتظار أن تخرج ، لكنها نادتني إليها . . وكررت النداء فلم أقو على الامتناع . خرجت من مقعدي واقتربت منها . جذبتني إليها وداعبت شعري ، ثم انحنت وقبلتني . قبلتني بحرارة ، وشممت لأول مرة رائحة امرأة غير أمي . ومضت إلى الباب فاغلقته ، وعادت إلي فوضعت في يدي خمسة قروش ، وأوصتني أن أعطيها أربعة قروش منها بعد الظهر ، كرسم اشتراكي في الرحلة .

رفضت القروش الخمسة . أحسست بشعور من الامتنان تجاه المعلمة . قبلاتها مسحت كل ما تبقى من أثر ضربها على جسمي . صارت قريبة إلي ، وكما في الإنجيل ، أحببتها مثل العذراء مريم ، لكنني لم أكن قادراً على قبول قروشها الخمسة . كان ذلك يشكل إهانة تفوق كل الإهانات التي عرفتها ، وأدركت المعلمة ذلك من نظراتي ، فمسحت على شعري وقالت ملاطفة : « آه يا صغيري . كم أنت حساس ولطيف . كنت أرغب أن تكون معنا في الرحلة . وكنت سأدللك كثيراً . لكنك لا تريد . لاتقبل أن تأخذ هذه القروش ولم تستطع أملك أن تعطيك القروش المطلوبة، وأنا حزينة لأجلك » .

قلت للمعلمة : « لم أطلب القروش الأربعة من أمي . أنا أعرف كم نحن فقراء ، ولا أريد أن تتعذب أمي فوق فقرها .أما أبي.. . » وسكتّ . سألتني : « ماذا عن أبيك؟ لماذا لم تطلب منه ؟ » اكتفيت بالقول انه فقير أيضاً ، ولم أقل لها انه يسكر بما يتحصل له . كان هذا عاراً أردت تجنّبه ، فأخفيته عن المعلمة .

على أنني ، في الأيام التي تلت الرحلة إلى انطاكية ، والتي لم أذهب فيها ، صرت أحمل باقة من الزهور وأحياناً وردة أو زهرة ، إلى تلك المعلمة ، وأقدمها إليها لدى وصولهاالىالمدرسة. ولقد طلبت مني ألا أفعل ،لكنني كنت أوصي والدتي بأن تجمع لي من بستان « كاتوني » شيئاً من الزهر والورد كل يوم ، وأحمل الباقة وأضعها على طاولة المعلمة ، دون أن تراني .

ورأيت المعلمة ، ذات يوم ، تشكل وردة من ورودي في عروة سترتها ، فأدركت أنها فعلت ذلك لتدخل البهجة إلى نفسي .

وقد ابتهجت بذلك فعلاً .

— ٣ —

تخاصم الوالد والسيد خريستو صاحب المزرعة . كنا قد أمضينا لديه عاماً ونصف العام ، وفجأة ، ذات ليلة ، أعلن الوالد أننا سنذهب لنسكن اسكندرونة .

كانت أختي خادماً عند عائلة في المدينة ، وكانت الوالدة حاملا ، ولست أدري سبب الخصام الذي وقع بين والدي وسيده ، ولا من أين استدان المال للانتقال بنا إلى اسكندرونه حيث سكنا حي « الصاز »(١)

نزلنا أولا في حديقة المنشية ، ثم انتقلنا إلى كوخ عتيق ، مخلّع الباب والنوافذ ، خَرِبٍ إلى درجة أن السماء كانت تبين من سقفه . وقد أعلن الوالد أن اقامتنا هنا مؤقتة ، ريثما نبني لنا بيتاً كالآخرين ، ونستقر في المدينة فلا نبرحها أبداً

ولا أذكر الأيام التي قضيناها في هذا الكوخ ، كل ما أذكره أن خالي (٢) وبعض رجال الحي ، اجتمعوا

(١) Saz كلمة تركية تعني المستنقع
(٢) ابن عم أمي

يوم أحد ، في أعلى طرف الحي من جهة الطريق العام ، وشرعوا باقامة دعامات خشبية ، وصنعوا منها كوخاً . سيجوه بالقصب ، وطيّنوه بالصلصال المجبول بالتبن ، وقالوا ان سقفه سيُستر بنوع من القش ، ورقه طويل ، منبسط ومقعّر ، يشبه الحُلْفاء أو هو الحلفاء ذاتها ، على أن نستبدله بالقرميد فيما بعد ، يوم يصير لنا وفر من المال .

غير أن هـذا المال لن يتوفر الا بعد سنوات ، لذلك كان على الوالدين أن يذهبا لقطع العشب الذي سنضعه على السطح المصنوع على شكل « جملون » ليحمينا من مطر الشتاء . وكان هذا ينبت في المستنقعات ، وعلى من يريد قطعه أن يخوض في أرض سبخة ويتعرض لكل أنواع الزواحف والهوام .

وقد عمل الوالدان في قطع العشب طوال اسبوعين ، مرض الوالد في نهايتهما ، فحمله بعض الرجال إلى البيت ، وانطرح في الفراش يئن حتّى أشرف على الموت . كانت الوالدة قد بدأت تعمل خادماً في أحد البيوت ، ولم يبق في البيت الا أنا وأختاي ، وكان الوالد ، وقد أصابه مرض غريب ، يتشنج ويغيب عن الوعي ، وصرت أدور حول

فراشه وأبكي ، وأدعو الله أن يلطف بحالنا ويشفيه . وقد فتح عينيه ورآني ، فأخذ يدي في كفه وقال : لاتخف يابني ، لن أموت ، غداً أشفى ، وإذا طال المرض ذهبت إلى الطبيب .

الوالدة التي تعمل خادماً ، كان عليها أن تغيب من الصباح إلىما بعدالظهر ، ثم تعود إلى البيت حتى الغروب . حيث تعود إلى بيت مخدوميها لتقدم لهم العشاء . وكان هؤلاء الناس عديمي الرحمة ، يتأخرون في العشاء إلى التاسعة أو العاشرة ليلا ، وعلى الأم أن تجلس في المطبخ تنتظر أن يطلبوا منها اعداد المائدة ، ثم تنتظر أن يفرغوا من العشاء فتجمع الصحون وتغسلها وترتب المطبخ وتعود ، وخلال ذلك انتظر على نار ، واحمل أختي الضريرة أهدهدها . أوأضعها في ارجوحة من حبل وكيس خيشي وأهزها حتى تنام ، أوأحاول الهاءها بالمصاصة ، وأقوم بخدمة الوالد المريض ، وفي الصباح أذهب إلى المدرسة .

طال مرض الوالد فنصحوه أن يذهب إلى الطبيب . وكان أهل الحي يمرضون ويقضون بغير طبيب ، لأنه ليس لديهم ما يدفعونه أجراً للمعاينة ، وكان في المدينة مستوصف

تابع للبلدية ، يعمل فيه طبيب اسمه الدكتور شحاده ، وهو ذو كرش بارز ، ووجه مترهل ، جامد ، ينظر إلى المرضى الفقراء نظراته إلى حشرات ، فاذا جاءت مريضة نظر اليها باحتقار، وصاح بصوت ساخر : «ايش فيك ؟ » ودفع قبضة يده في صدرها ، ثم امر الممرضة قائلا : اعطيها قرصين كينا ، أوثلاث حبات اسبرين ، أو زجاجة صغيرة من دواء اسمه «آجي صوي »وهي كلمة تركية تعني الدواء المر ، المستخرج من شجر الكينا لمعالجة البرداء .

إلى هذا الطبيب ذهب الوالد حين اشتد عليه المرض . وقد أعطاه بعض الحبوب وصرفه ، فعاد إلى البيت يتوكأ على عصا ، ورقد في الفراش مستسلماً إلى قدره ، لاعناً الطبيب الذي لاينظر في وجوه المرضى الا إذا ذهبوا لعيادته الخاصة بعد الظهر .

وكان أهل الحي يروون القصص عن الدكتور شحادة ولؤمه ، حتى أن بعضهم كان يفضل الموت على وقفة الذل أمام باب المستوصف ، والتعرض لسخرية الطبيب الجلاد الذي يعمل فيه .

أما أنا فسأعرف الدكتور شحادة بعد سنوات ، عندما أمرض بالتيفوئيد ،فيحملني الوالد على ظهره إلى المستوصف ؛

وهناك يعاينني هذا الطبيب ، ويعرف أني مريض بالتيفوئيد ، فيقول للوالد : « خذه إلى البيت ، وفي الطريق اشتر كيلو مشمش وأطعمه اياه » ويفهم الوالد السخرية فيقول له : « بسلامة فهمك يادكتور ، نحن لسنا من جماعة المشمش، الولد لاتفارقه الحرارة منذ اسبوع ، وأنت تصف له المشمش ، أنت طبيب بلدية وتقول هذا الكلام ؟ » قال الدكتور ضاحكاً بخبث : « حسبتك من جماعة المشمش . . ابنك حالته خطيرة ، ويجب أن يصوم على ماء العدس المسلوق والليمونادة ، لمدة أربعين يوماً ، فاما أن يشفى ، او يموت » .

قالها ببرودةلوسمعتها الوالدة لولولت ، أما الوالد فقد عاد بي إلى البيت ، والقيت على الفراش بين الموت والحياة ، ولكن الحياة انتصرت في الجسد الواهي ، وشفيت بعدنحو شهر أوأكثر وقضيت فترة نقاهة وأنا هيكل عظمي .

كذلك شفي والدي بمقاومة جسده للمرض ، لا بقرصي الكينا اللذين حصل عليهما من مستوصف البلدية الذي يشرف عليه الدكتور شحاده ، ولما صار قادراً على العمل جعل يفرش القش على سقف البيت ويثقله بالحجارة ، وجاء أهل الخبرة من الجيران يساعدونه ويرشدونه ، إلى أن فرغ

منه وصار لنا بيت ، فيه غرفة واحدة للنوم ، أقيمت في أرضها تخشيبة على أعمدة ، لاجتناب الرطوبة ، وألحق بها مطبخ مجروره يصب في الخندق الذي يلي البيت من الغرب ، لأن بيتنا كان محاطاً من جانبيه بخندقين يمتلئان بالماء القذر الذي تسبح فيه الضفادع والأفاعي ، وتبدأ المطاردة بينهما أمام أنظارنا في كل وقت .

هذا الحي الذي سكنّاه كان يسمى أيضاً حي أولاد السويدية ، أي الذين هاجروا مثلنا من السويدية . وكانت الأرض مشاعة ، الا البقعة التي بنينا فيها كوخنا ، فهي تابعة لعجوز اسمها « دلي كتور » وتعني كتور المجنونة ، وكنا ندفع في العام اجرة ضئيلة لها .

كانت «دلي كتور» عجوزاً منخورة ، طويلة، عجفاء، طاعنة في السن حتى ليهتز رأسها وهناً وخرفاً وهي تتكلم . وكانت لها ابنة اسمها خريستين، قيل انها حملت سفاحاً من رجل ارمني وانجبت ولداً اسمه «مخزومي» له شكل قبيح حتى ليصلح أن يكون مهرّجاً بغير مكياج، ولكي تبعد الشبهة عن نفسها كانت تزعم أن مخزومي ابن أختها، وكان هو يناديها خالتي.

«دلي كتور » وحدها كانت من اهالي اسكندرونة في هذا الحي،وقيل ان أصلها من ماردين، ولا أحد يعلم كيف صارت لها قطعة الأرض هذه، وكيف بنت فيها بيتاً من حجر بغرفتين ، وأجرت مابقي لبناء ثلاثة او أربعة أكواخ مثل كوخنا، تأخذ عنها أجرة سنوية ضئيلة ، وما تبقى من دخلها يأتيها من الشحاذة.

كانت شحاذه من نوع خاص، تطوف على الأسواق من الصباح الى العصر، وتحمل سلة كبيرة يلقي فيها أصحاب الحوانيت ماتيسر لهم من أشياء تافهة، كالخضار والفواكه المعطوبة، والبيض المكسور، والخبز اليابس، ونترات اللحم والعظام، وهكذا تتحول سلتها شيئاً فشيئاً الى صندوق قمامة، وتختلط محتوياتها وتزداد تفسخاً وفساداً،حتى اذا عادت الى البيت ونشرت بضاعتها، لم يكن فيها سليماً الا النزر اليسير.

ولقد توصلت«دلي كتور» هذه الى ان تتخذني اجيراً عندها. اقنعت والدي ان يرسلني معها، فحملت السلة الفارغة ورحت امشي وراءها،وراحت هي تشحذ على اسمي، فتقول للناس: «من مال الله لهذا الولد الفقير»،

وينظر اصحاب الحوانيت في وجهي ويسألون: «ابن من هذا؟» فتجيبهم: «ابن عائلة فقيرة، ليس لديها ما تأكله» فيهزون رؤوسهم ويلقون في السلة ببعض الأشياء. وقد حاول بعضهم ان يضع في كفي حسنة فرفضت، وعندئذ صاحت بي: «خذ» واضافت وهي تعلمني اصول المهنة: عندما يعطونك حسنة اشكرهم، ادع لهم. بأنك جائع ومريض. وسترى كم تجمع في اليوم.

ولم اطاوعها فيما ارادت. كنت اجهل انها ستفعل بي ما فعلت، بل كنت اجهل انها تشحذ على هذا النحو، وعندما عدنا بعض الظهر الى البيت تركت السلة وهربت، ولما عادت أمي من العمل قصصت عليها ما صنعت بي «دلي كتور» فسألتني:

– ومن أرسلك معها؟

– والدي.

– يا للمصيبة! وهل شحذت يا صغيري؟

– لا.. رفضت الصدقة .. رفضت ان امد يدي الى احد.

– احسنت .. انت ابن مدرسة.. كيف ارسلك والدك مع هذه المجنونة؟ يا الهي الطيب، هل نصبح شحاذين بعد كل الذي جرى معنا؟

على هذا النحو بدأت حياتنا في «حي الصاز». ولم تكن غريبة ابدا. كانت لطخة اخرى سوداء في اللوحة، وكانت اللوحة بمجملها ذات الوان من الفقر العجيب، والمأساوية التي تليق بهذا الحشد من الناس الذين نبعوا من قاع الحياة، وتخبطوا في حمأة الفقر والشر والفساد دون أمل في الخلاص من الحي وأوحاله.

وكان الحي يقع في منخفض عن الطريق العام عند مدخل المدينة، في الجهة المقابلة لشركة الكهرباء التي يملكها فرنسي يدعى «دومولان « De Moulin . وكان يمتد من الطريق العام الى البحر، وتنبت فيه بكثرة النباتات المستنقعية، وكانت أرضه واطئة عن مستوى المدينة، ذات رائحة نتنة كالتي لمعامل الاسمنت ، تغمرها المياه في الشتاء وأغلب الصيف، وترتفع فيها أدغال «البردي» ذات الأغصان الابرية كالمسلات، فيأتي الحلبيون في الصيف ويحصدون الطويل من هذا النبات ويجففونه لصنع الحصر التزيينية التي تعلق على الجدران.

وكنا نحن الذين هاجرنا من السويدية، او الذين طردتهم المدينة لفقرهم وسوء حالهم، او الذين جاءوا

من اصقاع شتّى وبنوا أكواخاً من القش او التنك، نؤلف السكان الفعليين للحي. كنا عشيرة من الفقراء الجياع، العرايا، الذين يعملون في تنظيفات المدينة، وفي العتالة، والميناء، والذين لاعمل لهم، والمقامرين والسكيرين واللصوص، والذين يمارسون كل أصناف الرذائل،ويشكلون كل نفايات المدينة، وكان هؤلاء الناس يختلطون بأهل المدينة نهاراً، وفي الليل تفرزهم الى هذا المستنقع ليعيشوا بين مياهه القذرة ودروبه الموحلة ، وأدغاله وحشراته، وعندما،في الشتاء ، ترتفع المياه وتغمر الأدغال والأكواخ على السواء، تنساح الى المدينة فتلوثها. وهكذا كان التبادل قائماً بين الطرفين، يرغموننا على أن نعيش في الطين،ونحمل هذا الطين معناإليهم ونلوثهم به.

وكانت مياه هذا المستنقع مالحة، تتجمع مما يخلفه البحر عند انحساره في الصيف، او تنز من الأرض المستنقعية على مدى العام، وكل من بنى كوخاً عليه ان يحفر خنادق من حواليه، تتجمع فيها المياه التي تخلفها الأمطار او تنز من الأرض، لذلك كان في كل كوخ ارضية خشبية مرتفعة على اعمدة، وتحت هذه الأرضية تعيش كل أنواع الحشرات، من الجرذان والفئران الى الضفادع

والأفاعي، وكان من العبث قتلها وتطهير البيوت منها، لأن الخنادق المحفورة حول الأكواخ تعج بها، وهي ترفد الأكواخ يومياً بكميات محترمة منها.

أما نحن، البشر الذين نسكن هذا المستنقع، فقد اعتبرنا المدينة، او اعتبرنا انفسنا، نوعاً اضافياً من الحشرات والزواحف، وجيرانا ادنى مرتبة من البهائم التي كانت تعيش على التل القريب، حيث تطرح قمامة المدينة، فتنبش فيها الخنازير التي يربيها رجل اسمه الخواجه اسكندر، ونزاحمها نحن، رجالا ونساء واطفالا، في النبش بين اكوام القمامة، للعثور على مايصلح للاكل، او الاستعمال، او البيع لأصحاب «الروبابيكا» والانتفاع بثمنه الزهيد. مثل الزجاجات الفارغة، والملاعق والشوك، والسكاكين، والصحون المكسورة والتي يمكن تجبيرها، وخرق الثياب التي يمكن الافادة منها في شيء ما، والخبز اليابس الذي يفضل عن الموائد ويوضع في اكياس ورقية ويرمى في القمامة.

لقد نبشت أنا وأمي في هذه القمامة. كنا ننتظر حتى تصل احدى العربات، فيهجم المجتمعون عليها ونحن بينهم، ونقوم جميعاً بالنبش فيها، بواسطة عيدان واسياخ

حديد أو بأصابعنا بكل بساطة، وكانت الخنازير تهجم بدورها تنازعنا النبش بخطومها ، وهي تنفخ وتخمخم،وتنشر رائحة كريهة، وكثيراً ماكانت تجفل منافنترك كومة القمامة حتى نفرغ منها فتعود هي اليها.

وذات يوم،قبل مجيئنا الى الحي، عثر احد سكانه على خاتم ذهبي في احدى كومات القمامة، وعثرت فتاة على اسوارة ، وبرغم ان احداً لم يؤكد او يكذب هذه اللقى ، فإن الآمال كانت تدفعنا جميعاً الى النبش والتنقيب في القمامات علنا نعثر على نقود او حلي او اي شيء ننتفع به.

غدت حكاية الخاتم والاسوارة اللذين عثر عليهما سكان المستنقع في القمامة، كحكاية الخاتم الذي عثر عليه صياد في جوف سمكة.الآمال واحدة؛وان اختلف موضع البحث . كان البحر هناك كريماً، عطراً ، ازرق رحيباً، تتألمس على مياهه أشعة الشمس في الأصباح، وتنهمر شلالات ضوئية في الظهر ، وغدائر ورسية في الأصائل، اما هنا، في «تلة الخنازير» فليس غير القذر والنتن، ونفايات المدينة واوساخها، ومع ذلك كان يصدف ان نعثر على حذاء يمكن اصلاحه، او على جورب يمكن ترقيعه ، اوعلى طابة ما، نفرح بها فرحاً شديداً، لأنها

تكفينامؤونة لعب الكرة بطابة من الخرق. وقد عثر رجل يوماً على قبعة، فلبسها وتباهى بها، وصار يلقب بأبي «قبيعة» لكنه كان فخوراً بها، لايبالي بما يقال عنه .

وخطر للخواجه اسكندر، وهو اعرج يتوكأ على عصا ويملك مزرعة وبعض الأراضي البور، ان يسيّج أملاكه، وخاصة تل الخنازير، بسياج من الأسلاك الشائكة، فحرمنا هذا «رزقنا» في نفايات المدينة.

أخذنا، يوماً بعد يوم، نتجرأ على الأسلاك فنقطعها او نمرق من بينها، وعندئذ كان يرسل الخواجه اسكندر زلمه لطردنا بالقوة، ولطالما نشبت المعارك بين سكان المستنقع وزلم صاحب التل، وجفلت الخنازير وطفشت وهي تشخر وتنخر وتدوس من تصادفه في طريقها، الى ان قتلت يوماً طفلا صغيراً ، داست على رأسه أو امعائه، فنفر الدم من فمه ومات.

نظم سكان المستنقع حملة انتقامية ، بالعصي والفؤوس والرفوش والقضبان الحديدية على املاك الخواجه اسكندر ودارت معركة على التل اولا، ثم دخلنا المزرعة فأعملنا

فيها القطع والتكسير، واقتلعت الخضار وقطعت الفواكه وكدنا نصل الى قناق صاحب الخنازير لولا ان وصلت شرذمة من الدرك، اطلقت الرصاص ارهابا، ثم اطلقته على الناس، فقتل رجل وجرحت امرأة، وأصيب كثيرون برضوض وخدوش في معركة بين سكان المستنقع ورجال الدرك، وكانت الحصيلة شهيداً — هكذا قال رجل يكتب ويقرأ —وسيق عشرات من الناس الى السجن، اطلق سراح بعضهم بعد شهور،وقضى اربعة منهم ثلاثة اعوام في السجن، كانت ثمينة بالنسبة اليهم، لأنهم قضوها في سجن حلب الذي سيعودون منه وهم يحملون أفكاراً جديدةعن الفقر والبؤس واسبابهماوعن«الكريزة»(١) العالميــة وضرورة تنظيــم«السنديكات» وما الى ذلك من كلمات ستزحف في وحل المستنقع، وتنغرز فيه، وتنبت اشجاراً جديدة ، ذات اثمار ذهبية ، ونكهة غريبة، لاحلوة ولا مرة ، بل هي نكهة الحقيقة التي تدخل القلوب والرؤوس دخولا غير متوقع .

(١) الازمة، وهي الأزمة الأقتصادية التي امتدت من ٩٣٣ الى ٩٣٩ وهو تاريخ بداية الحرب العالمية الثانية .

ان لوحة هذا الحي ترتسم في ذهني بكل خطوطها وتفصيلاتها . كانت الأرض « الصازية » كبيرة ، على مدى كيلو مترات ، ومن مرتفع عند بيتنا كان في وسعنا رؤية البحر ، وكان البحر ، أيام النوء ، يخرج إلى اليابسة وينداح دوائر تتشكل منها بحيرات ، فاذا انحسر البحر صيفاً ، ظلت هذه البحيرات مرتعاً للزواحف والهوام ، تنشر رائحة غازية يشمها المرء بقوة وهو يمر ببيوت خشبية على الطريق الممتد إلى البحر يسمونها حارة الكلدان ، ويستغرب كيف يعيش هؤلاء على مقربة من هذه البرك المائية ورائحتها الكريهة هذه .

وكان المستنقع حافلا بادغال « البردى » وبين هذه الادغال كانت تبنى الأكواخ ، ولم تكن ثمة مراحيض ، فالناس يقضون حاجاتهم وراء الأدغال ، ومن الصباح ، في أوقات الصيف ، ترى النساء والرجال ذاهبين بين الأدغال لازالة ضرورة ، وكان هذا الوضع محرجاً ، مشيناً ، لكن أحداً لم يبن مرحاضاً قرب بيته ، لأنه إذا حفر متراً في الأرض خرج الماء ، ومن ثم فان الأقذار التي تتجمع فيه تزيد في الرائحة الكريهة . وربما كان هذا حجة ، أما السبب الحقيقي فان بناء مرحاض يكلف مالا ، ولا أحد يملك

هذا المال ، وبعضهم دقّوا أوتاداً علقوا عليها ستائر خشبية فصارت بمثابة مراحيض .

كان البرغش والذباب في الصيف يتكاثران ، لذلك كان المقتدرون يقتنون « ناموسيات » من التول المخرم ، والفقراء جداً يتعرضون للذع البرغش ، وهذا ما جعل الملاريا والديزنطاريا مستوطنتين في الحي ، يعالجها الدكتور شحادة بأقراص الكينا « والماء المر » أو يقطع الناس أغصان شجر الكينا ويغلون أوراقها فيشربونه لمداواة البرداء .

كانت الأمور في الصيف ، محتملة ، وكان الوالد يقول : « بساط الصيف واسع » أما في الشتاء فكان المرور في الحي متعذراً ، وكانوا يجلبون حجارة كبيرة ، أو لبنات قرميدية ، يضعونها بين البيوت ليسهل التنقل قفزاً عليها .وأحياناً يضعون أخشاباً بين خندق وآخر ، يمرّ عليها الناس ، وكثيراً ما تخبطوا ووقعوا وهم يحملون أطفالهم في الأيام الممطرة .

وكانت البيوت تدلف ، فالسقوف المصنوعة من القش لم تكن تمنع الدلف ، وكان ماء الدلف قذراً ، إذا سقط على بياض لوثه ولطخه فليس من قوة تزيله .

ولم تكن بين البيوت أشجار ، لم تنبت ولم تزرع ، وقد لاتعيش ، ففي الشتاء تغمر المياه الصلصالية الأرض حتى تبلغ العتبات ، وتغطي الأحجار التي نضعها للتنقل عليها ، ويضطر الآباء والأمهات إلى حمل أطفالهم على الأكتاف إذا أرادوا التزاور ، ولم يكن أحد منا قد عرف انه في أجزاء أخرى من العالم ، شقية مثل الجزء الذي نعيش فيه ، ومنكوبة بالاستعمار مثله ، اناس مثلنا ، يقضون حياتهم في قوارب تعوم على سطح الأنهر ، ويعيشون فيها مع زوجاتهم وأولادهم وحيواناتهم ، وينتقل بعضهم الى بعض على متونها . اضافة إلى أن القوارب لم تكن تنفع في المستنقع الصلصالي الذي نعيش فيه ، فلا يتبقى لنا ، نحن سكانه ، سوى الغوص في الطين حتى الركب ، والتمرغ في الأوحال في ذهابنا من البيوت وايابنا اليها .

في هذا الكوخ ، وهذا الحي ، مكثنا حوالي عشرة أعوام ، حتى هجرتنا من اللواء ، عندما دخلته تركيا عام ١٩٣٩ ،

وفي هذا الكوخ وهذا الحي ، تعلمت القراءة والكتابة ، وقد فرحت الوالدة وقالت : ما كنت أصدق أنني أعيش حتى أراك تكلم الورقة .

— ٤ —

كان لوالدي شقيقان يعيشان في مدينة اللاذقية . كان قد فارقهما منذ مرض ونزح بالعائلة إلى السويدية قبل ثماني سنوات ، ومنها هاجر الى قرية الاكبر ثم عاد إلى اسكندرونة . وكانت الوالدة تذكرهما كثيراً ، كما تذكر سائر أقربائنا في النهارات والعشيات ، في محاولة منها لتوكيد وضعنا الاجتماعي ، و لاعلامنا ان لنا أعماما وأهلا كسائر الناس ، وأن يوما سيأتي فنجتمع بهؤلاء الأعمام والأهل وتكبر عائلتنا فتصير قوية مرهوبة الجانب .

ولم نكن ندري أين تقع اللاذقية هذه . كانت ، فيما يبدو من كلام الوالدة ، بعيدة جداً ، وكان الوصول اليها مستحيلا ، واللقاء بهؤلاء الأهل أشبه بالحلم الذي لا يتحقق أبدا ، ولأمرما ، خيل إلي أنني لن ارى أعمامي ابدا ، كما لن أرى خالي الذي مات وذهب إلى السماء . وان اللاذقية خارج العالم الذي أعرفه ، والذي يتحدد بالسويدية وقرية « الأكبر » وحي « الصاز » في اسكندرونة التي نسكنها .

وكان الوالد لايذكر شقيقيه إلا لماما. بل هو لايذكر أشياء الماضي إلا لماما أيضاً .انه لايتعاطى الذكريات كثيراً ، أو لعله لايفصح عنها إذا كانت تراوده ، ويبدو في أوقات الصحو وكأنه يعيش يومه لاأكثر ، ويعيشه منبتاً عن الأمس والغد ، كأنما الحاضر هو كل شيء بالنسبة إليه .

على أنه في الأمسيات ، عندما يشرب إلى درجة لا يفقد معها وعيه ، يتكىء على كرسي وهو جالس على الحصير ، يضع يده على خده ، ويأخذ في غناء رقيق حزين مؤثر. وكان له موال مفضل في مثل هذه الحال ، ومنه عرفت أنه يذكر أخويه البعيدين . الموال يقول :

النار شعلت في قلبي على فراق الخي

ياحسرتي ، راح خيي وما بقالي خي

قالوا تصبّر حبيبي ، قلت : كيف

يجيني الصبر وأنا وحداي

ياجامع الشمل تجمعني بعد الفراق المر

بأهلي حتى أرى بعيني الذكية الحي .

وكانت الوالدة تبكي عندئذ ، وتتحول الجلسة المسائية على الحصير الى ما يشبه المأتم على فقيد غائب ؛ ونروح نحن الصغار نتجمع حول الوالدة وقد بصرتنا

المأساة التي نطالع صورها في دموعها ، وتقول هي موجهة الكلام إلى الوالد كأنها تستمد منه الرجاء على اللقاء :

– ترى نعود فنراهم مرة أخرى ؟

فيقول الوالد :

– الله أعلم . . .

ويضيف جملته المأثورة :

– الأرض قفر والمزار بعيد .

وتنفجر دموع الوالدة من جديد وهي تردد :

– أي والله ، المزار بعيد .

ويقول الوالد :

– الله كريم ياحرمة . . لابد ما يجتمع الشمل . . . سأسأل عنهم البر والبحر وطير الفلاة، ولا بد من أخذ خبر عنهم ولو كلفني ذلك حالي ومالي . . وتسأل الوالدة عندئذ :

– ترى يذكروننا كما نذكرهم ؟

– وأكثر . . هل في الدنيا أعز من الحي ؟

– ويعرفون أين نحن ؟

– من أين لهم أن يعرفوا . . سبع سنوات ولا خبر أو مخبر .

– ضعنا اذن ؟

– لم نضع . . نحن في المدينة ، لكن الغربة كافرة . .
والدنيا بعيدة ، أين نحن وأين اللاذقية ؟

– بيننا وبينهم بحور ؟

– بحور وجبال ووديان . .

– ولماذا لاتكتب اليهم ؟

– سأكتب . .

– هذا الكلام سمعته من سنوات .

– ومن سنوات وأنا أسأل عمن يكتب لي رسالة
فلا أجد . .

– انقطع الخير من الدنيا ؟

– لم ينقطع الخير من الدنيا ، ولكن أين الذي يقرأ
ويكتب بيننا ؟ من السويدية إلى « الأكبر » إلى اسكندرونة
وأنا أسأل عمن يفك الحرف فلا أجد . .

– والخوري ؟

– الخوري لا وقت عنده لكتابة المكاتيب . .

– ومعلم المدرسة ؟

– ماشاءالله . . معلم ابننا ؟ من يصل اليه ؟

– وجارنا جريس ؟

– حلو . . نسيت حادث المدرسة ؟

ضحكت الوالدة وقالت :

– صحيح .. حرفه لايفك ، من أين تعلم القراءة ؟
– من مجراوية الزير سالم .

كنت قد انقطعت عن المدرسة بسبب المرض وأنا في الصف الأول ، وطلب المعلم ، الذي هو مدير المدرسة في الوقت نفسه ، أن أحضر ورقة مكتوبة من الوالد تفيد بمرضي ، فعدت مساء وأخبرت والدتي ، ورجوتها أن تجد من يكتب أنني كنت مريضاً . قامت أمي إلى الحي فطافته بيتاً بيتاً ، ولم تجد من يقرأ ويكتب . أخيراً قالوا لها انجاركم جريس الفحام يمكن أن يفيدك في ذلك ، وظهر اليوم التالي أخذتني من يدي وذهبنا إلى جريس الفحام فانتظرنا حتى عاد من عمله .

كان جريس يعمل عتالا في ساحة الفحم مثل الوالد. كان هؤلاء العتالون يذهبون إلى ساحة الفحم وينتظرون بالدور ، وكلما بيع شوال من الفحم وقع الدور على أحدهم لحمله إلى بيت المشتري ، فكان يضعه على ظهره ، فوق جلال من خيش صنع لهذه الغاية ، يلبسه العتال حتى لايزلق الشوال عن ظهره ، وكانت نخالة الفحم وغباره ينتثران على رقبته ورأسه منذ أن يضع الشوال على ظهره حتى يبلغ به مقصده ، فإذا تكرر الحمل عدة مرات . أصبح العتال أسود العنق والصدر واليدين والوجه ، ولا يبقى منه إلا فم لحمي كشق غائر وسط بقعة سخامية سوداء ، وسوى عينين حمراوين

في أعلى جبهة كرنفالية مضحكة .وقد عرفت هذا المشهد في والدي الذي أغراه أحدهم بهذا الشغل ، فجاء ذات يوم بأكياس من الخيش وكمية من القش و صنع لنفسه جلالا بحجم الظهر ، له فتحتان في أعلاه يدخل فيهما كتفيه .

لم يكن العم جريس قد عاد من ساحة الفحم ، فانتظرت مع الوالدة على نار ، ولما أطل تملكتني فرحة خفية ، فبادرته الوالدة متوسلة أن يكتب لها كلمتين يقول فيهما انني كنت مريضاً ، ولمالم يكن لديه ورق ، فقد عدت راكضاً إلى البيت ، وانتزعت ورقة من دفتري وجئته بها ، وفتش في جيوبه حتى عثر على قلم رصاص بحجم عقلة الأصبع ، راح يبله بريقه ويحاول أن يرسم شيئاً على الورقة التي أسندها إلى أصابع كفه اليسرى ، وقد فعل ذلك قبل أن يغسل يديه ، فاتسخت الورقة واسودت ، وبذل الرجل جهداً مضنياً وهو يفكر ، ويضغط بقلمه على الورقة ، ويعيد تبليل رأس القلم وتخطيط ما سبق أن كتبه لتظهيره ، وعندما انتهى دفع بالورقة مطوية إلى الوالدة التي جعلت تشكره على معروفه وتدعو له بطول العمر ، وتقول لي ونحن في طريق العودة :

– هل أعيش فأراك كاتباً مثله ؟

بعد الظهر حملت الورقة إلى المدرسة وسلمتها إلى المدير وعدت مسرعاً إلى صفي ، لكن باب الصف لم يلبث أن قرع وأطل منه المدير يسأل عني . وقف الصف كله احتراماً ، وقال المدير وهو يدفع بالورقة إلى المعلمة، ويتوجه بالكلام إلي :

– من كتب لك هذه الورقة ؟

– جارنا جريس

– وماذا يشتغل جاركم هذا ؟

– عتال في ساحة الفحم

قال المدير للمعلمة وهو يبتسم :

– هذا واضح من نظافة الورقة .

والتفت إلي قائلا :

– من أي مدرسة تخرّج جاركم ؟

– لاأعرف يا معلمي .

– ألم تجدوا غيره يكتب لكم الكلمتين المطلوبتين يا معلمي ! ؟

أحرجتني سخريته فكدت ألوذ بالصمت ، لكنني

أمام إلحاح نظراته على الجواب قلت :

– لم نجد.. أمي فتشت الحارة فلم تر من يكتب ويقرأ فيها غيره .

– ومن أي حارة أنت ؟

– من حارة « الصاز » .

– تشرّفنا .

قالها واستدار ليخرج ، ثم توقف وأردف :

– قل لجاركم أن يعمل خطاطاً بدلا من عتالة الفحم .

وقبل أن يتخطى العتبة عاد فدفع الورقة إلى المعلمة وقال :

– تأملي ياآنسة هذه الخربشة

وبعد أن تنهد بأسف كعادته في المواقف العصيبة أردف :

– ما أشقى المعلم إذا كان عليه أن يتعامل مع هذا النوع من البشر .

ولم تقل المعلمة شيئاً ، لكنها أغلقت الباب بحركة لاتدل على الرضى ، فقد كانت متعاطفة معنا ، ولاتكن للمدير ذي السمعة السيئة مودة من أي نوع .

ازاء هذا الوضع. كان عذر الوالد واضحاً في ان يحول رسائله الى اخويه مواويل وعتابا في الأمسيات . ان حارتنا كانت تغرز في الوحل وبه تكتب حياتها على مزبلة المدينة. والوالد الذي تعتاده ذكرى اخويه عندما يشرب ينساها عند الصحو. كان يستأنف حياته، في الصباح كأن لم تعن له خاطرة عنهما في المساء وكعادته في العيش يوماً بيوم ، لايفكر ابداً في الغد، بل يبدو على اكتفاء من يومه كأنما ليس ثمة طموح الى ماهو افضل. وحتى العواطف التي لم يعتد التعامل معها، كانت تنزلق، حين تؤاتيه، على سطح نفسه، فهو ينساها قبل ان يضع رأسه على الوسادة.

بالحاح من الوالدة ليس الا ، كانت قضية الكتابة الى اخويه والأهل في اللاذقية تطرح نفسها عليه وعلى الأسرة من حين الى حين ، وهذا ماحمله، ذات يوم، على مفاتحة رجل تعرّف عليه في المقهى وقيل له انه يكتب ويقرأ ،طالباً منه ان يدبّج له رسالة الى الأهل.

وفور عودته الى البيت طلب من الوالدة ان تعدّ مائدة لائقة بالرجل وكما لو ان انساناً من نوع متميز سيزورنا ،بدأت الا ستعدادات لاستقبال الكاتب الذي ، بعد سنوات سبع

سيخط لنا مكتوباً الى الأهل، نبل به اشواقنا،وننفض عن صدورنا تلك الهموم التي تراكمت من جراء الفراق الطويل .

كان الرجل قد تلامح في خيال الوالدة بهيئة سيد يفوق بهيبته وسمته وتصرفاته وكلماته كل من عرفناهم من اسياد، بدءاً بالمختار الذي عملنا في حقله بالسويدية، ومروراً بالملاّك الذي ضرب اخاه في قرية «الأكبر» وتسبب في مقتل العزيزة زنوبة، وانتهاء بالخواجه خريستو الذي سكنّا مزرعته بجانب المقبرة في ضاحية اسكندرونة . وكبر هذا الكاتب في خيالي كبراً اسطورياً، صار معلم المدرسة لاشيء بجانبه، وامتلأت رهبة من وجوده في بيتنا ، وفكرت انه سينطوي على اشفاق لحالنا واستصغار لشأننا، وسيكون غير مرتاح ان يجلس على خواننا العتيق، ويستظل بسقف كوخنا القشي ، ويتناول الطعام في آنية بائسة كالتي نملكها ، ورغبت الى الوالدة ان تسمح لي بالبقاء في المطبخ فلا أمثل أمامه. كنت اخشى ان يمتحنني في بعض دروسي ، وان ارتبك واتلعثم في حضوره، واستعظمت شأنه بمقدار ما استصغرت شأننا وشأن كل هؤلاء الذين يجاوروننا في الحي ويضطربون مثلنا في أوحاله وأقذاره.

ولقد بلغ من اهتمام الوالدة بأمر الحفاوة به، انها استأذنت الذين تعمل عندهم ان تتغيب بعد ظهر ذلك اليوم. ومنذ عودتها الى البيت شرعت في اعدادالمائدة ، وحرصت على ان تصنع اصنافاً من المتبلات والمقبلات، واحسب انها ارهقت نفسها بالمصروف ؛ واخرجت البياضات من الصندوق ففرشت السرير الخشبي والديوان، وكنست البيت قبل ذلك جيداً، ومسحت الغبار وعنرت فانوس الغاز، واستعارت فانوساً اضافياً من الجيران لتكون الاضاءة جيدة.

عند هبوط الليل ارتدى الوالد سرواله وقميصه الجديدين تقريبـــاً ، ومسحت الوالـــدة قذال سترته ونظفتها، ولبست هي ايضاً انسب فستان عندها، ووضعت مريلة فوقه كيلا يتسخ اثناء نقل الطعام الى المائدة، ولما انتهت من كل هذه الترتيبات ابلغت الوالد ذلك، فقال انه ذاهب لاحضاره من المقهى الذي تواعد معه على اللقاء فيه.

بانتظار ذلك عاونتها في بعض الأشغال ، وقالت الي ان من الضروري ان اكون هادئا، والتزم الصمت ، وأراقب جيداً كيف سيكتب المكتوب لاستفيد من ذلك في المستقبل . وكانت قد اتفقت مع الوالد على

ما سيقولانه في الرسالة. وأوصاها الوالد الا تفتح فمها قبل ان ينتهي «الكاتب» من الديباجة، وان البراعة كلها تنحصر هنا، فالكلام الذي سيضعه لابد ان يجعل قلب الحجر يلين ، وهو لن يزيد شيئاً عليه، فالأشواق التي تعبر عنها الديباجة تكفي لكي يذرف اخواه الدموع ، وهو سيحكي له باختصار عما جرى لنا منذ مغادرتنا اللاذقية حتّى يومنا هذا ، وسيقول ان الشدة التّي واجهتنا قدمرت، واننا بألف خير« ولا يكون لأحد فكر من جهتنا»، وعندما يأتي دور السلامات ، تستطيع ان تذكره اذا نسي احداً من الأهل .

اواسط الربيع. المغيب تشكيلات من سحب في الأفق القوسي المنحدر على البحر من جهة الغرب. رأس حصان . لكم احببت الأحصنة. سفر الى جهة ما، والحصان، في تشكيلة السحب، مرفوع الرأس في حالة انطلاق. كل ماهو بعيد جميل. الجمال لايوجد الا في البعيد، ولماذا ، ياالّهي، كان بي ذلك التوق الجارف الى بعيد؟ لم تكن تمضي ليال الآوأحلم في احداها بأنني اطير ، واسبح في الفضاء نحو عالم بلون زهر اللوز ابيض مشرب بالحمرة ، مغمور بأشعة مغسولة بندى الصباح.

خرجت ودخلت بانتظار القادم الغريب، كاتب المكاتيب، وعلى الطرف الغربي، فوق البحر، ظلال حمرة في حواشي سحب تسودّ اكثر فأكثر مع هبوط الليل، ونقيق ضفادع، في الخنادق والأدغال المجاورة، ونسائم ذات لذعات خفيفة، فيها رائحة شتاء يولي وصيف يقبل.

تنحنح الوالد كعادته قبل ان يبلغ الباب فيطرقه. اصلحت الوالدة من شأنها لآخر مرة، ومضت لتفتح، بينما وقفنا، اختي وأنا، قرب السرير بعيداً عن الخوان الذي وضعت امامه طاولة خشبية. دخل رجل والقى تحية المساء، ووراءه الوالد الذي اشار له الى الديوان في صدر البيت. سلم على الوالدة ولم يلتفت الينا. كان مرتبكاً، يلبس بنطلوناً وسترة حائلين، وعلى رأسه طربوش مائل بشكل غير مألوف، وشرابته ناصلة، كأنما صوّحها القدم، ومن جيب سترته العليا، التي كان يقال لها «السيلة» تتدلى اطراف محرمة كانت يوماً بيضاء، وقد شكل في «السيلة» غير العميقة قلمين من الرصاص، بمسكتين معدنيتين، ليبرز طرفاهما عاليين، بشكل يجعل نصف القلم الأعلى بارزاً.

هذاهو «كاتب المكاتيب»، بوجهه الطولاني ، النحيل، وأنفه الرقيق، البارز، وشحوبه الذي ازداد امتقاعاً بما انعكس عليه من ضوء الفانوس فوق رأسه، ولم استطع ،آنذاك، ان اشبهه بمعلم مدرسة في احدى القرى لأنني لم اكن قد عرفت سوى معلم مدرستي. ولهذا ظل شكله غريباً بالنسبة الي ، وانطبع في ذهني قلماه الرصاصيان اكثر من كل شيء فيه.

ربما لأن الوالد كان مستعجلا على الشرب بأشد من عجلته على كتابة المكتوب، فقد اقترح على الكاتب ان يتناول كأساً اولا ، وقالت الوالدة باحترام واعتذار جم «ليس لدينا ماهو بقدر المقام، فلا تؤاخذنا» وقال الوالد: «نأكل مما هو حاضر» وصب له كأساً من العرق، وصب لنفسه كأساً مماثلا وشرب نخب الضيف، ومسح شاربيه بقفا كفه وهو يستعد للشروع بحكاية غربتنا والمعلم صامت ، يفكر بشيء ما، والوالدة تدخل الى المطبخ وتخرج، وأختي وأنا قد جلسنا على الحصير بحذاء السرير ،نسترق النظر الى الرجل ونتهيب ان نمد ببصرنا اليه مباشرة .

سأل الكاتب عن الحي وسكانه، وعن حياة الناس فيه، وعما يمارسون من مهن، فأخبره الوالد كل شيء

بتفصيل، محاولا اخفاء الجانب الأسوأ والأبأس من حياتناجميعاً. لم يكن في الحي كله صاحب مهنة محترمة ، لانجار ولاخياط ولاحداد . الرجال عتالون في الميناء والأسواق. وبعضهم ماسح أحذية ، والنساء والبنات خادمات في البيوت، والأطفال متشردون في ازقةالمدينة، يتعلمون، منذ الصغر، تلك الحماقات التي ستجعل منهم لصوصاً او سوقة، وغالباً، في الكبر، عتالين في الميناء ومستودعات البضائع، والقلة منهم، تذهب الى المدرسة، وكنت واحداً من تلك القلة.

ولم يكشف «كاتب المكاتيب» عن اصله وموطنه وعمله. ربما لم يكن يودّ الكلام على ذلك،وقد يكون في وضعه ماهو محرج او متناقض مع الحفاوة التي استقبلناه بها.ومهما يكن فقد بدا صموتاً، مرتبكاً، مفكراً بشيء غامض،لعله تلك الديباجة اللعينة التي سيشرع في كتابتها بعد قليل. وقد اقبل على الشراب برغبة طيبة، وكانت الوالدة على خشية من ان يجاريه الوالد في ذلك، فيسكر ولا يستطيع ان يملي عليه ما يريد ابلاغه لأخويه البعيدين.

لم أكن في ذلك العمر ، قد حصلت على مبراة

أقلام بعد. والدي كان يبري لي أقلامي الرصاصية. يمضي ساعة اوأكثر في بري قلم واحد، وكانوا يتفاخرون في حينا بشيئين: فرم التبغ وبري الأقلام، وكان والدي بارعاً في فرم التبغ بسكينه الحادة ، فيخرج من بين يديه ناعماً كالشعر ،وأقل براعة في بري الأقلام، هذهالتي يزدان بها الرجال الأميون، والشباب خاصة، ويشبكون بكلاّبها النحاسية في «سيلات» ستراتهم، دون ان يسألهم احد لماذا، كأنما اتفقوا جميعاً على ان يتشبهوا برجال المدينة في هذه الحلية التي تعطي صاحبها اهمية فارغة ومضحكة.

طلب الكاتب ورقاً ليشرع في كتابة الديباجة، فنهضت الوالدة وقلبت الفراش لتستخرج من تحته طبقاً من الورق كنت قد كلفت من الصباح بشرائه. وبكثير من الاحتفال تناوله منها، وطواه بيسر، وبسط صفحته الأدنى على راحته اليسرى، بحيث جاءت نهاية الورق على حافة اصبعيه، واستل القلم الرصاصي الذي فوجئت،أنا ابن الحي الجاهل، المغرم ببري الأقلام، انه لم يكن مبرياً، وشبيهاً بقلم جارنا جريس عتال الفحم .

عرض عليه الوالد بكثير من اللطف، ان يبري له القلم، او ان يحضر له سكين التبغ الرهيفة ليبريه بنفسه، فأبى الكاتب ذلك، بدا معتزاً بقلمه الذي يبلله بريقه وطفق يخط به على الورق الجملة الاستسهلا لية المألوفة في كتابة الرسائل.

خيّم صمت على البيت. وغمز الوالد بعينه باتجاه الأم غمزة باسمة، مؤداها ان الشغل قد بدأ واغتنم ذلك ليجرع من كأسه جرعة كبيرة، بدت شفته السفلى على اثرها تلتمع تحت ضوء الفانوس. وهي ترتخي الى اسفل، كعلامة مميزة على النشوة الآتية، النشوة التي لاترقى الى اي معنى روحي، بل الى ذلك الشره الذي سيأخذه بعد قليل الى الشراب والكلام:

اضطرت الوالدة الى ارسال اشارة خفية بأصابعها الثلاثة المضمومة تدعوه فيها الى التأني فزورها بنظرة عبوس مهددة، وعندئذ وضعت اصبعها على فمها داعية اياه الى السكوت، وتطاولت أنا على قدمي لأرى الى الكاتب وهو يجري القلم على الورق، فوجدته لم يجاوز «ترويسة» المكتوب وخشيت الوالدة أن يلحظني وأنا اشرئب بعنقي اليه،

فشدتني من طرف فستاني واقعدتني على الحصيرة الى جانبها.

كان الكاتب الآن في مرحلة المخاض. يتحرك في مجلسه يميناً ويساراً، كأنه يعاني من احساس غير مريح في معدته، وقد توقف بعد «الترويسة» وصفن قليلا، ثم تناول كأسه وجرع منه جرعة، واراح الورقة قربه على الخوان، وقال للوالد:

– الديباجة اصعب مافي المكتوب.

قال الوالد مؤمناً على كلامه:

– صحيح.. لكنها ليست شيئاً بالنسبة اليك، انت.. قاطعه:

– مهما يكن.. الديباجة هي الديباجة.. هي المكتوب كله.. بعدها لايبقى الا الأخبار والسلامات.

فتناول الوالد كأسه ورشف رشفة وهو يهم بالكلام:

– اريدها ديباجة لم يكتب مثلها.

– من هذه الناحية اطمئن..

قال الوالد:

– لهذا اخترتك بالذات .. اعط خبزك للخباز

ـ الديباجة غير الخبز.

ـ طبعاً

وسألت الوالدة ببراءة:

ـ ماهي الديباجة؟

فانتهرها الوالد:

ـ لاتتدخلي بأشغال الرجال

ـ ولكنكم تتحدثون عن المكتوب..

ـ افهم.. المكاتيب شغل الرجال ايضاً.

فقال الأستاذ:

ـ الديباجة هي الكلام الذي يأتي بعد «الترويسة»

ـ وكيف تكون «الترويسة»؟

صاح الوالد وكان قد أُخذ عليه السكر :

ـ دين النسوان ودين المكاتيب! جاء الأستاذ ليفتح مدرسة أم ليكتب لنا كلمتين؟

فانكسفت الوالدة وهي تهز برأسها استنكارا لسكر الوالد، وقال الأستاذ ملطفاً الجو:

ـ السؤال ليس حراماً، ولكن الشرح يطول.. دعوني أكتب الديباجة وسترون، أنا لاأنقل كغيري من الكتب

الجاهزة، والا لأحضرت معي كتاب«القول اللبيب في كتابة المكاتيب» ودرزت لكم الديباجة بطرفة عين.

قال الوالد وقد افرغ قدحه كاملا، وضم اصابعه الثلاثة كأنما يهدىء الأستاذ ويستأذنه :

– «يواش يواش» (١)

والتفت الى الوالدة كمن يسترضيها:

– لو كنا نفهم بأشغال الأستاذ لكتبنا المكتوب بأنفسنا.. كتابة المكتوب ليست لعبة.. طلوع الكلام من القين(٢) اصعب من طاوع الروح من الجسد.

صمتت الوالدة وقال الوالد:

– اريد بعد اذنك، ان تكتب لاخوي هذا الموال:

النار شعلت في قلبي على فراق الحي
ياحسرتي غاب خيي وما بقالي خي

قال الأستاذ:

– ارجوك ، على مهل، كل شيء في وقته.

---

(١) تعبير تركي يعني : رويداً رويداً

(٢) يريد به الذات

لكن الوالد اصر، فقال الكاتب أمله، وكتب البيت الأول،وكان السكر قد زاد على الوالد فنسي البيت الثاني،ولكي يتذكره وضع يده على خده وراح يغنيه، وترك الأستاذ القلم والورق وتناول كأسه فجرعه، وراح يطيب للوالد وهذا يجود بالغناء، حتّى اضطرت الوالدة الى التدخل ، لأن السكر كان قد ظهر على الوالد جلياً، وازاد ارتخاء شفته السفلى ، وكثر كلامه فلم يعد يترك مجالا لأن يتكلم الأستاذ .

نمت وأختي في موضعنا على الحصير ، فحملتني الوالدة الى السرير وغطّتي. وعلمت في اليوم التالي ان الأستاذ سكر وتعشى وكتب الديباجة فقط . كتبها مسودة ووعد ان يحضر في اليوم التالي كي يبيضها، لكنه لم يأت ابدا.. ولم ير الوالد له وجها بعد ذلك.

وأرتني الوالدة ديباجة الأستاذ كي أقرأها لها فلم أستطع ان افك منها حرفاً. كانت خربشات على الورق وما كان حتّى في وسع الذي كتبها ان يقرأها ثانية، وظهر ان الأستاذ، مثل رجال حينا، يضعون اقلام الرصاص في سيالة السترة للزينة ليس غير.

وستمضي سنوات والام تحتفظ بمسودة الديباجة، ولن يجد الوالد من يكتب له المكتوب الى أخويه البعيدين، حتى اصير في الصف الخامس الابتدائي، صف الشهادة الوحيدة التي احصل عليها في حياتي، وأدشنها بكتابة رسالة الى : عمّيّ العزيزين.



— ٥ —

حين ترفّعت إلى الصفّ الثالث الابتدائي ، وبسبب من اجتهادي ، أعفاني المدير من أجرة المدرسة . عرض ذلك على الجمعية الخيرية للطائفة ، التي كانت تشرف على إدارة المدرسة من الناحية المالية . وكانت الجمعية تعرف فقرنا ، لأن أمي وأختي تخدمان عند اثنين من أعضائها، ولأن اسم الوالد كان مسجّلاً في قائمة الفقراء الذين يُوزّع عليهم الطحين والسمن والسكّر في عيدي الميلاد والفصح.

ولسوء الحظ كان التوزيع يجري في بهو المدرسة . ولكم عانيت من ذل مجيء أمي إلى ذلك البهو والوقوف مع النساء الفقيرات في صف طويل ، بانتظار دورها لتناول نصف كيلو من الطحين وربع كيلو من السكر و٢٠٠ غرام من السمن لكل فرد منا حسبما هو مسجّل في دفتر العائلة .

وكان التوزيع يجري قبل أيام من كل عيد ، فينقلون أكياس الطحين والسكر والسمن النباتي إلى بهو المدرسة .

ويضعونها في الزاوية بانتظار توزيعها . وفي اليوم المحدّد تأتي النساء الفقيرات وأمي بينهن ، ليأخذن نصيبهن بعد استجواب يتكرر كل مرة ، عن وضع العائلة ، وما إذا كان زاد أو نقص أحد منها ، وعن عمل الرجل فيها ، ولماذا لايعمل ، وعن سكان « الصاز » ولماذا هم الأشد فقراً دائماً ، والأكثر طلباً لمعونة الجمعية . وكانت النساء يجبن على الأسئلة بخجل ، وتوسّل ، وأحياناً بضراعة تبلغ حدّ الشحاذة . فإذا اكتشف أحد أعضاء الجمعية أن زوج المرأة التي جاءت تأخذ حصّة عائلتها ، يشتغل في مكان ما ، أو يسيء السلوك في أمر ما ، أو لايصلي يوم الأحد في الكنيسة ، أو يسكر ، أو لايحترم أيما وجيه في الطائفة ، فإنه كان يعترض على إعطائها المعونة .

ولأن الوالد كان يسكر ، فإن الوالدة كانت تتعرض للأذى ، وكثيراً ما أخّروا دورها للتشاور ، أو للنظر فيما إذا تبقّى شيء يوزع بعد أن تأخذ الثكالى ، أو المرضى ، أو اللواتي أزواجهن من العجائز والعاطلين ، ولا يسكرون ، ويحضرون يوم الأحد إلى الكنيسة ، بشهادة واحد أو أكثر من أعضاء الجمعية ، حصّتهن المقرّرة .

أيام توزيع المعونه تلك، كانت من أشدّ الأيام قسوة على نفسي ، وبسببها سأهجر المدرسة حين أبلغ الصف الرابع ، أما وأنا في الصف الأول والثاني والثالث ، فقد عرفت ثلاثة أعوام كان كعك أعيادها مرّ المذاق في فمي ،لأنه من طحين وسكر وسمن الجمعية الخيرية الذي يُوزّع في بهو المدرسة .

كنت أحبس نفسي في الصفّ خلال « الفرصة » كيلا أخرج فتراني أمي وتكلمني أو تعانقني أمام المعلمات والتلامذة ، وكان بعضهم يعرف أمي ويركض إلى الصف منادياً :

– أمّك هنا . . تسأل عنك ، تعال فكلّمها .

أو يركض إلى الأم ويقول لها :

– ابنك في الصف . .

فتأتي معه لتراني وتقبّلني وهي تقول :

– لماذا لا تخرج وتلعب مع رفاقك ؟ هل أنت مريض؟

وأحني رأسي أمامها فلا أجيب . ماذا أقول لها ؟ كيف أعبّر عن مشاعري ؟ بأية كلمات ؟ وهل تقدّر أمي ما أعاني بسبب وقفتها في ذلك « الطابور » من النساء الفقيرات والمتسوّلات ؟

وكان الأولاد يجتمعون حولنا أحياناً ، فأترك أمي وأهرب إلى باحة المدرسة ، إلى ذلك القبر الرخامي ذي الكتابة اليونانية، فأجلس عليه وحيداً ، منفردا بنفسي ، متسائلا : لماذا نحن فقراء إلى هذا الحد ؟ ولماذا ، في الدنيا بؤس بهذا المقدار ؟ وما سبب أن بعض أولاد جيراننا لاتخدم أمهاتهم في بيوت الناس ، ولا يأتين في الأعياد ليقفن في طابور التوزيع ؟ وهل سبب ذلك أننا خُطاة كما تقول أمي ؟ وكيف نخطىء نحن أكثر من غيرنا؟ ولماذا لايعمل أبي كسائر الآباء ويكسب ما يكفينا مثلهم ؟ لماذا لايترك صنعة « المشبك » ويعمل حمالا في الميناء ؟ هل سبب ذلك الكسر في ساعده كما قالت الأم ؟ وهل بسبب ضعفه أم سكره الذي لايستطيع الإقلاع عنه ؟

ويكر حبل الأسئلة دون جواب . كنت مفرطاً في التفكير بمقدار ما أنا مفرط في الحساسية ، ومفرطاً بالتساؤل بمقدار ما أنا مفرط في التأمل في حالنا وحال الناس من حولنا . لكن أمي كانت تردّ شقاءنا كله إلى خطايانا، بل هي تردّ شقاء الحي كله إلى خطايا الحي كله ، وكنت أحب أمي وأومن بكلماتها ، وأعتبر نفسي خاطئاً لذلك . كما أعتبر أختي الضريرة أكثرنا خطايا،

ولذلك فهي ضريرة ، ولأن الصلاة وحدها تجعل الرب، يشفق علينا ويغفر ذنوبنا ، فقد عاهدت نفسي على ألاّ أنقطع يوماً عن الصلاة ، وتطوعت مع التلامذة الذين تتألف منهم جوقة التراتيل الدينية، كما تطوعت في حمل الصلبان والأيقونات أثناء القداديس والصلوات التي كانت تقام في الكنيسة . وكان القداس يطول أحياناً، والصلاة المسائية تتأخر ، فأنام وأنا واقف أمام الهيكل ، قابضاً بيدي كلتيهما على عصا الايقونة أو الصليب ، حتى يراني زميل بقربي فينبّهني لأفيق ، ثم لا ألبث أن أعود إلى الإغفاء ، وأنا استعجل في سري الخوري والمصلّين لبلوغ تلك اللحظة التي يختمون بها الترانيم وينتهون من الصلاة ، فننصرف إلى الخارج ، وقد أصبت بدوار من أثر البخور ودخان الشموع والجوع ، والإحساس بالذنب لأنني أغفيت ، مما سيضاعف خطيئتي عند الله .

ويقرع الجرس أخيراً فأُنزل عن القبر الرخامي وأمضي إلى الصف الطويل الذي نقف فيه لندخل غرفة الدرس دخولا نظامياً ، وكانت أمي اذ ذاك تبتهج اذ تراني اسير في الصف ، وتشير إلى النسوة من حولها قائلة : « هذا

ابني » وترفع يدها فترسم شارة الصليب علي لترد عني الحسد والعين .

وقد تترك مكانها في طابور التوزيع وتذهب إلى المعلمة لتعرفها بنفسها . لتقول لها إنها أمي ، وهي فخورة بذلك ، مزهوة أن أكون ابنها ، بينما أنا أعاني إحساساً بالخزي لفعلتها هذه ، ولأنها جعلت المعلمة تعرف أنها أمي وأنها جاءت لتتلقى معونة الجمعية الخيرية .

ولسوف أفكر بذلك عندما أكبر ، واستشعر أنني كنت نذلا صغيراً . كنت جرواً من حي « الصاز » لايدري من أين تلوّث بتلك العادة الذميمة ، عادة الخجل من الفقر . ولسوف يقول لي أحد العمال يوماً :

الفقر ليس عاراً ، بل خجلك من كونك فقيراً هو العار ، تعلّم أن ترفع رأسك أمام الأغنياء ، وأن تقول لهم انك أفضل منهم ، لأنهم أغنياء بسبب فقرك ، وأنهم كذلك لأنهم يسرقون جهد والدك وأمثاله من الكادحين . وستدخل هذه الكلمات إلى قلبي وعقلي ، وتستقر فيهما ، وأقلع منذ ذلك الحين عن الخجل بسبب الفقر ، واحتضن أمي يوماً وأقبلها وهي لاتدري لماذا . أقبلها تكفيراً عن خطيئتي

عندما كانت تفخر بي وأنكر أمومتها قبل صياح الديك .
وسيأتي يوم أقول لها فيه : « يا أمّ كنت كريمة في حنانك بقدر ما كنت مضحّية براحتك في سبيل تربيتي واخوتي، ولكني ،يا أمّ ، كنت أخجل أن يعرف الناس أنك أمي ، فأيّ ولد عاقّ أنا ؟ » وستعانقني الأم وتقول : « لاعليك يا بني ، ولا تزعل يا حبيبي ، كنت صغيراً ، والصغار لايعرفون أشياء كثيرة في هذا الوجود».

وندخل الصف ، ونتخذ مقاعدنا فيما المعلمة تقف على الطاولة وهي تتفرّس فينا كأنها تتفقد الغائب منا .
ويقول تلميذ عني إنني لم أخرج من الصف وبقيت قابعاً فيه ، ويقول آخر إن أمي في الخارج بين النساء اللواتي يوزّع عليهن الطحين ، وانها سألت عني فرفضت الذهاب إليها . وتسمع المعلمة كل ما يقال دون أن تتكلم . كانت تقرأ خجلي في عيوني ، وتذكر قصة الرحلة إلى انطاكية والقروش الأربعة ، وتعرف حساسيّتي وصعوبة أن تستدرجني إلى الكلام على وضعي العائلي ، لذلك ترنو إلي وفي عينيها إشفاق ومواساة .

وأذكر مرة أنها ذهبت في غرفة الدرس وجاءت عدة مرات . كانت تنظر من النافذة إلى الأبعاد وتفكر . هي

أنما كانت تعاني حالة من الضيق لاتفصح عنها . وقد حكت لنا عن الابن الشاطر الذي طلب من والده حصته من الميراث ، وذهب في تجارة فخسرها ، وأخذ يعمل راعياً للخنازير في بيت أحد الموسرين ، فلما رجع إلى والده ذبح له العجل المسمّن ، فتضايق إخوته وقالوا له «يا أبت إن أخانا هذا قد كان خائباً ، أخذ حصته من الميراث وذهب فبدّدها ، ثم رجع إليك شقيّاً فذبحت له العجل المسمّن ، بينما نحن لم نطلب منك شيئاً ، ولم نغادرك أو نبدد أموالك ، ولم تذبح لنا عجلك المسمن كما ذبحته لأخينا » فيقول الأب : أخوكم هذا كان ضالاً فوُجد ، ومن أجل ذلك أكرمته .

وتقول المعلمة شارحة هذه القصة الإنجيلية ان الأب ذبح العجل المسمن لابنه الذي ذهب وتاجر وخسر لأنه كان طموحاً ، رفض أن يقعد كسولا في بيت أبيه ، ورفض أن يستسلم إلى حياة الدعة والخمول . فجرب ولم ينجح . وهو في تجربته هذه ، حتى وإن كانت فاشلة ، أفضل من الذين لم يذهبوا ولم يجربوا .

تقول ذلك وتعود إلى النافذة فترسل بصرها في الأفق البعيد . وما كنا نعلم أنها هي أيضاً كانت تتحدث عن

نفسها ، وكانت تنقم على وضع الخمول الذي تعيش فيه ، وترغب في السفر إلى بعيد ، إلى المجهول الذي كان يناديها .

وفي آخر ذلك العام سافرت إلى أميركا . هاجرت إلى خالتها في المهجر ، وقبل سفرها انفردت بي في الصف ، وأخبرتني أنها ستذهب بعيداً ولن تعود . وطلبت مني أن أكون مجتهداً كعهدها بي ، ووضعت يدها على شعري وقالت « ستكون عظيماً في المستقبل » وقبلتني فا نتشيت بقبلتها . شممت مرة أخرى ، رائحة أنثى غير أمي ، وتمنيت لو أنني أعانقها وأقبلها بدوري ، ولأنني لم أجرؤ أن أفعل ذلك ، فقد تناولت يدها وقبلتها ووضعتها على رأسي ، فضحكت من فعلتي وقالت :

– ليس هكذا يفعلون ... تستطيع أن تقبّلني كما تقبّل والدتك .

وارتبكت ولم أفعل . عندئذ أدنت خدها من فمي وقالت قبّلني وهي تشير إلى وجنتها :

– قبّلني من هنا . .

وقبّلتها وأنا أرتعش . سرى تيار من الحرارة والعذوبة في جسمي كله ، واحمرّ وجهي وأذني ، وكدت أبكي من فرط التأثر .

بعد سفرها بعام وصلتني منها رسالة . كانت تكاتب زميلة لها تعلّم في مدرستنا ، وقد دسّت داخل رسالتها ورقة صغيرة موجّهة إلي .

لم أعد أذكر ما في تلك الرسالة . لقد قرأتها مرارا، وطويتها وأخفيتها عن أهلي ، وعندما استطعت أن أجمع ثمن الطوابع كتبت لها رسالة عاطفية أمضيت اسبوعاً في جمع كلماتها وتحبيرها ، رجوتها في نهايتها أن تأخذني إليها .

وجاء جواب تلك الرسالة على اسمي بعنوان المدرسة . كانت مكتوبة على ورق أزرق ، وبخط انثوي ناعم ، وكانت لها رائحة عطرة ، وقد اجتهدت أن تتكلم الي بلغة العقل ، وان تنهاني عن التفكير فيها على النحو الذي ورد في رسالتي اليها ، وتقول في الختام « أنت لاتزال صغيراً . وعليك أن تواصل دراستك ، وعندما تكبر وتعمل ، سيكون في وسعك أن تمد يد العون إلى والديك وأهلك الذين هم بحاجة اليك ، والذين لايرضون بسفرك وابتعادك عنهم ، أنت ابنهم الوحيد ».

ولقد كدرتني هذه الرسالة . شعرت معها بأول اخفاق عاطفي في حياتي ، وتأكد لي ، كأنما كنت قد نسيت ، أنني

لا أزال صغيراً ، وأن من السخف أن أفكر تفكيراً عاطفياً على النحو الذي فعلت .

تلك الرسالة كانت آخر صلة لي بمعلمتي . لقد عرفت على يديها العطف الانساني الذي حرمت منه في طفولتي ، وكانت هي ، في كشفها عن أغوار نفسي المعذبة ، قد عرفت كيف تستميل هذه النفس وتفوز بحبها وثقتها وتعلقها الطفولي .

وإذ أذكر نبوءتها وأنا أكتب هذه الكلمات ، ابتسم باشفاق وأتساءل : « أين العظمة التي تنبأت لي بها ؟ لقد صدقت معلمتي في كل شيء الا في هذا ، أم أن رحلة الآلام التي اجتزتها هي « العظمة » التي عنتها ؟

مهما يكن فقد كانت انسانة كريمة ، وليس بالقليل أن يحظى تلميذ مثلي بمعلمة مثلها .

لأجل ذلك أبارك ذكراها ،

وأشعل في الصدر شمعة وفاء تحية لها .

— ٦ —

مارفضته الوالدة في البدء تقبلته في النهاية . صارت خادماً في البيوت مثل شقيقاتي ، وفرضت عليها الحياة أن تعمل بين الجدران ، هي التي كانت ، في الريف ، تعمل في الحقول .

ولقد تقبلت هذا الواقع بصبر وتسليم ، لتؤمن حياتنا فلا نضطر إلى التشرد من جديد ، وكي يتاح لي أن أذهب إلى المدرسة : فيتحقق حلمها الذي تبخر فلم يبق منه الا القليل .

ان فكرة العيش في المدينة ، كربة بيت مستقرة ، تخلو حياتها من القلق والخوف ، وتستطيع أن ترسل أولادها إلى المدرسة ، وأن تطعمهم وتكسوهم على نحو لائق ، قد انتفت الآن .

أما الوالد فانه ما زال كما كان ، ينتقل من عمل لآخر ، دون ثبات ولا نجاح ، واختي الضريرة عبء اضافي ، مبهظ جسدياً ونفسياً ، والحياة أفق مسدود وجدار من عذاب.

كانت الأم ، قد انتقلت إلى الخدمة في بيت جديد . وكان سيد البيت يعمل في تجارة مواد البناء ، وخالي يعمل حمالا عنده ، وهو الذي دبر لها هذا الشغل ، ومدح معلمه ما استطاع . وكفل والدتي عنده ، وأثنى على أمانتها وأخلاقها .

كانت تنهض باكراً جداً ، ونادراً مارأيناها بيننا في الصباح . كانت تغسل وجهها، وتعدّ لنا الطعام وتصلي بخشوع بالغ صلاة صغيرة . وقد سمعتهامرة،فيختامالصلاة ، تتقدم بلائحة من المطالب إلى ربها . أول هذه المطالب أن يديمعلينانعمتهويعطيناخبزنا كفافيومناولايدخلنافيالتجارب. وثانيها أن يلبسنا ثوب العافية ويحفظ علينا صحتنا ولا يشمت بنا الناس . وثالثها أن يهدي الوالد ويجعله يترك السكر ويرمي كره العرق في قلبه ليتوبعنهإلىيومالقيامة. ثم تتدرج في مطالبها من السترة إلى السمعة الحسنة التي هي أحسن من المال المجموع ، إلى حفظ أخواتي من السوء وأولاد الحرام ، إلى فتح قلبي وعقلي على الدراسة حتى أكون ابناً صالحاً وباراً بوالدي .

وبعد أن تنهي صلاتها تركع وتقبل الأرض ثلاثاً . وتنهض فتقبل الايقونات وتتراجع إلى الوراء احتراما وهي

ترسم شارة الصليب على صدرها ، وتنفتل من ثم إلى ترتيب ماتيسر من شؤون البيت ، وتدخل على الوالد الذي يقلي « المشبك » في المطبخ ، وتوصيه بنا ، وبألا يتأخر في العودة مساء ، وتدعو له بالتوفيق وتسأل الله أن يجبر خاطره ويساعده في بيع مشبكه ، ولا تنسى ، ولو تلميحا ، أن توصيه بعدم السكر ، وعندئذ كان ينتهزها بصوت عال . يوقظنا أحيانا ، وهو يصيح بها :

– صبّحي ربك يا امرأة ، دين العرق والذي اخترعه ، أليس لي شغل غير العرق في رأيك ؟

تقول الوالدة فزعة ، رامية إلى حسم الشر :

– أنا لا أتهمك . . أوصيك فقط ، هل الوصية حرام ؟ لماذا تغضب من كلمة الحق ؟

– أنا لا أغضب من الحقّ ولكن من النقّ . . لماذا تفسدين عليّ صباحي وتقطعين رزقي ؟ قلت لك لن أشرب خارج البيت . . كفى ، حفظنا الوصية وتعلمنا الدرس ، فماذا تريدين بعد ؟

وتضرب الوالدة على صدرها خفية ولا تقول شيئاً . هي تعلم أنه لا وصية حفظ ولا درساً تعلّم ، وأنه سيسكر اذا سنحت له الفرصة ، وقد يسكر اذا تعذر معه البيع

ولم ينفق مشبكه ، وهي تعثره ، في أعماقها ، على ما يبذل من جهد في مهنته التي لاتدرّ شيئاً ، لأنه لم يتوصل يوما إلى اتقانها أو اتقان ايما شيء سواها .

كان، كعادته ، يكسر رأسماله بسرعة . عندئذ يعلن أنه سيترك « المشبك » ويسعى في ايجاد عمل آخر . ويذهب إلى الميناء ، أو إلى عتالة الفحم ، أو يذهب فيقف في الساحة العامة في المدينة بانتظار من يأتي لا ستئجار فَعَلةٍ في البناء أوغيره ، فاذا لم يوفق إلى العمل تعطّل ، ويظل كذلك أياماً ، ثم يذهب إلى البيت الذي تعمل فيه الشقيقة ، ويلح في طلب سلفة ، أو يتشاجر مع الوالدة ويرغمها على أن تأخذ سلفة من أجرتها الشهرية ، وقد لايفعل ذلك ، بل يحمل ايما غرض من البيت فيرهنه أويبيعه . لقد رهن الدست النحاسي أكثر من مرة ، ورهن بعض الأواني ،وباع بعض الحلي ، كما باع البطانيات التي نتغطى بها ، ولم يتورع عن فعلة مهما تكن سيئة ومهينة ، وكانت الوالدة تعرف ذلك بعد فوات الأوان ، فتبكي وتندب حظها ، وتسعى إلى فك المرهونات ، واستعادة ما باع اذا وافق المشتري ووجدت لديها نقوداً .

وعندما كان الوالد يحصل على نقود من عملية قذرة

من هذا النوع ، كان يسعى إلى تكبير رأسماله : فيبدأ بكيلوين من الطحين وثلاثة كيلوات من السكر ، وكان ، احياناً ، يعجن العجين فلا يختمر ، فيخرج المشبّك ضامرا يابساً لا يؤكل ، أوقد يزيد في ماء العجين ، وعندئذ يصبح مائعاً أكثر من اللازم ، وعند قليه يتداخل بعضه في بعض ، ويغدو شكله مضحكاً ، وحتّى لو استقام له صنعه ، فانه ينقص كمية المواد يوماً بعد يوم ، حتّى يصل إلى نصف كيلو من الطحين ، ونعرف عندئذ أنه على وشك الافلاس وأن دورة البطالة وبيع أغراض البيت ستبدأ من جديد .

وهنا أيضاً ، كما في « السويدية » و « الأكبر » ، كان يسكر في أية قرية يصلها ، وكان يعود إلى البيت وهو سكران ، وكثيراً ما سقط في الطريق العام ، وتطوح بما يحمل من « صدر » فيه بقية مشبك ، أو فيه بعض الحبوب التي بادل عليها ، وتسقط سلة البيض الذي يجمعه ويتكسر ما فيها ، ويظل ملقى على قارعة الطريق حتّى تسرق أشياؤه ويفيق في اليوم التالي فلا يجد شيئاً ، أو يراه من يعرفه فيحاول إنهاضه وإيصاله إلى البيت .

كان يأتي مجرورا معربدا . ونسمع صوته من بعيد

فنخرج من البيت ، امي وأختي وأنا ، ونحاول ادخاله وهو يمتنع ، ويشتم ، ويحاول ضرب الوالدة وضربنا ، وعندئذ نبكي ويتراكض الجيران ، ويحملونه بالقوة إلى الفراش ، وهو ينهض ويهجم على النافذة الخلفية للبيت محاولا القاء نفسه من النافذة .

ولقد رأيتهم مرة يضربونه ، آه ياالهي كم كان صعباً علي ومؤلماً ومهينا أن أرى والدي يُضرب!
كانوا يأتون به إلى البيت ، بضعة رجال لانعرفهم،وكان هو قد تمرغ في الوحل ، وبال في شرواله ، وكان شعره مشعثا ، وليس معه من عدة المشبك سوى « السيبة » (١) يحملها رجل ، ويحمل رجل آخر سلة فيها بعض الأشياء ، وقد تشاجر في سكره مع أحد الرجال ، فانهال عليا ضرباً حتى جرى الدم من رأسه ، وعندما هرعنا ورأينا الرجل يضربه،شرعنانبكي،ونستجيربالرجال الآخرين أن يخلصوه ، وركضت إلى الرجل الضارب وشددته من سترته ، وتوسلت اليه الوالدة أن يكف عن ضربه ، لأنه سكران ولا يعي ما يقول أو يفعل ، ولقد زعم ذلك الرجل أن

---

(١) الآلة الخشبية التي يضع عليها صينية المشبك .

الوالد تحرش بامرأته ، ولم نجادله في ذلك ، لأن الوالد . في حالة السكر ، كان قمينا أن يفعل أي شيء ، وانما سألته الوالدة الا يؤاخذه فهو لا يقصد ما فعل .

كرهت الرجل الذي ضرب والدي . كان يعيش في حي مجاور لحينا ، وكان معروفاً بسوء السلوك ، وبالتباهي ، فهو يتصدر في مشيته ، ويقلب طربوشه إلى وراء حتى لا يبقى عالقاً بسوى مؤخرة رأسه ، ويتكلم بصوت خشن مرتفع . ولديه عربة بأربعة دواليب حديدية يجرها حصان ويقال لها « البرجقة » وكان فظاً ، شريرا ، ليس له من الرجولة الا مظهرها ، وقد خانته زوجته مع رجل يقال له ابن السوف ، وضبطهما معاً عاريين في السرير ، لكنه لم يستطع أن يفعل سوى أن يطلّقها ، وقد رضيت بالطلاق وفضلته على العيش معه .

وعندما رأيته يضرب والدي أحسست أن الضرب يقع على جسدي . فتشفعت لديه ، ورجوته أن يكف عن ضرب الوالد ، لكنه أمعن في ذلك ، حتى تقدم منه شاب لاأعرفه ، من حارة أخرى ، وأمسكه من كتفه وجذبه ففرق بينهما ، وكان الشاب على استعداد لأن يضرب ذلك

الرجل ، وصاح به ، اذا مددت يدك اليه أكثر كسرتها ، وقال له : « عيب عليك أن تتمرجل على رجل سكران ، فالرجل لا يضرب رجلا في هذه الحال » وقد أحببت هذا الشاب ، وسألت الله أن يحفظه ، وشكرته أمي . ثم انه أدخل والدي إلى البيت ، وعصب له مكان الجرح ، وقال لأمي :« دعي تأديب هذا الكلب علي ، ولسوف أجعله يندم على فعلته . »

ان أرهب الأشياء ، وأشدها إهانة وايلاما ، أن يرى الطفل أباه يُضرب . انه يتسربل بالعار ، ويودّ أن يقتل الضارب ، أو تنشق الأرض فتبتلعه حتى لايرى مشهدا كهذا . ولأنه طفل ، وعاجز ،لايجد وسيلة للدفاع عن أبيه سوى أن يضرب المعتدي ،أو يشد به ليبعده أويتوسل اليه ، أو يبكي مستغيثاً .

أنا أيضاً شعرت بالعار ، وحاولت الدفاع عن أبي ، وبكيت مستغيثاً وتمنيت لو أقتل الضارب ، حماية لإنسان عزيز علي .

لقد كان والدي على كل حال ، ووددت أن أكون كبيراً ، وأن تكون لي قوة ذلك الشاب لأثأر له ،وقلت

لأمي انني سأفعل ذلك عندما أكبر ، فمسحت أمي على رأسي وكفكفت دموعي ودموع أختي ، وقالت لنا ان جرح الوالد بسيط ، وان الله رحيم ، وهو الذي سينتقم من ضاربه . فقلت لها بلهجة رجاء أسيف :

— لو كان خالي رزق حيا . .

فقالت وهي تبكي :

— لو كان رزق حيا ما كان يجسر أحد على الاعتداء علينا

— وخالي برهوم ؟

— انه في السويدية يابني . . لو كان هنا . . آه لو كان هنا . . كان جعل الذي ضرب والدكم يهجر المدينة كلها . .

وفكرت بيني وبين نفسي : « لماذا لايأتي خالنا برهوم ويسكن المدينة عندنا ؟ » وعندما فاتحت أمي بذلك قالت :

— خالكم برهوم لايستطيع ترك السويدية ، هناك بيته وأرضه .

في اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة باكراً ووحيداً . كنت أنطوي على شعور بالانكسار ، وكنت أمضغ مرارة وذلا ، وعندما التقيت الأولاد جعلوا يسخرون مني ، وتحدثوا عن المعركة وسكر الوالد وضربه والجرح الذي أحدثه ذلك الرجل في رأسه . وناداني أحدهم :

– أنت ، يا ابن السكران .

فهربت منهم ولذت في ركن حديقة المدرسة ، وفي الحصة التالية لم أخرج من الصف ، لكن واحداً من رفقتي انتصر لي ، وعند الظهر ، بينما كنا في الطريق إلى البيت صفع ذلك الذي أهانني ، وهدد البقية بأن يؤدبهم إذا تطاولوا علي ، ثم تقدم مني بهذا الاقتراح :

– ما رأيك في أن نكمن للضارب ونرشقه بالحجارة ونهرب ؟

ولقد وافقت على الفكرة ، لكنني لاأذكر أننا نفذناها ، فقد نهتني أمي عن سلوك طريق الشر ، وأوصتني أن أشكر ذلك الفتى الشجاع ، وأن أصادقه وأخلص له ، وقد فعلت ما طلبته مني .

أقسم الوالد ، بعد تلك الحادثة ، ألا يشرب العرق.

قال انه سيكتفي بكأس من النبيذ . عندما يعود إلى البيت مساء ، لكنه صار يشرب بدل الكأس زجاجة ، وفي أحد الأصباح أفقنا على صياح في البيت ، وهرعت إلى المطبخ لأرى الوالد يضحك وهو في حالة سكر شديد . كان قد أحضر في المساء زجاجتين من النبيذ ، شرب واحدة وأبقى الأخرى لليلة الثانية ، غير أنه لم يستطع مقاومة شهوته إلى الشرب ، فوضع الزجاجة قرب الموقد وهو يقلي المشبك في الصباح ، وراح يشرب منها وهو يعمل ، فلما أتى عليها كان قد تعتعه السكر . فأخذ يصب العجين خارج المقلاة ، وعندما حاول أن ينهض سقط فوق الموقد ، فركضت الأم وأنهضته ، وأطفأت الحريق الذي نشب في سترته ، وحاولت أن تجره إلى الفراش . فراح يصيح ويشتم ، وأصر على أن يكمل قلي « المشبك » ، غير أن المقلاة كانت قد انقلبت ، واندلق الزيت على الأرض ، فأطفأت الأم النار . وقالت له :

— الله لا يسامحك على ما تفعله بنا . . لقد أخرتني عن شغلي . إنني أخدم في بيوت الناس ، وسينتهرونني لأنني تأخرت . والصغير سيذهب إلى المدرسة ، وهذه الطفلة — مشيرة إلى أختي — ستبقى وحيدة مع أختها

الضريرة ، وأنت في هذه الحال من السكر ، فكيف أتركك، وماذاأفعل يا ربي ؟

قال الوالد وهو يترنح في سيره ، ويصر على أن يخرج إلى بيع المشبك :

– أنت ، يا بنت الكلب ، تتهميني بالسكر حتّى لو كنت أصلي . ولو كنت في الكنيسة قلت انني كنت في الخمارة ، أنا لم أسكر . . دين السكر . أنا فقط شربت جرعة كانت باقية من المساء ، فلماذا صياحك ؟ ولماذا أيقظت الأولاذ وعملت هذه الفضيحة ؟ وهجم عليها يحاول ضربها ، فركضت واحتضنتها ، وعندئذ انقلب إلى الضحك وهذا ما روعني . كان لا يستطيع الثبات على قدميه ، ونظرت إليه لا أدري ما أفعل ، وأفاقت أختي الضريرة وبكت ، وبكيت أنا أيضاً . لقد أشفقت على الأم ، وخفت عليها من الضرب ، واحتضنتها لاأريد أن أفارقها ، وتألمت لوضع الأب . بدا لي في تلك الساعة غريباً وكريها . بدا لي نفاية لايصلح لشيء ، وأنه لايفعل سوى تعذيب الأم ، وأنه يجلب لنا الذل والعار ، وابتعدت عنه ، حتّى وددت ألا أراه . . لكن الأم ، عندما أفصحت لها عن هذه المشاعر بعد ذلك ، لامتني عليها ،

وقالت : « لا تنس أنه والدك ، وعليك أن تحبه . . إن الطفل ، يا بني ، لايكره أباه ولا أمه ، مهما يفعل أبوه أو أمه ، تعلم ذلك ، واطلب له في صلاتك الهداية ، واسأل الله الرحمة لنا ، واستغفره عن هذه الأفكارالتي لا تليق بولد صالح » .

لم تستطع أمي ، ذلك الصباح ، أن تمنع الوالد من الخروج بالمشبك إلى البيع ، لكنه ما كاد يرفع الصدر على رأسه ، ويحمل « السيبة » ويمضي خارج البيت حتى تهاوى وسقط ، وانتثرت أقراص المشبك على الأرض وتفتتت ، وصاحت والدتي طالبة نجدة الجيران ، الذين أقبلوا لمساعدتنا في إنهاضه وحمله إلى البيت ، وفي جمع المشبك الذي تعفر بالتراب ، وبقيت في البيت حتى نام فذهبت إلى عملها ، وذهبت إلى مدرستي . وبقي الوالد نائماً إلى المساء ، وعندما عدنا وجدناه يحاول إصلاح ما تبقى من المشبك ، فهو يغسله في الماء ليزيل عنه التراب ، ويرتبه في الصدر كي يخرج إلى بيعه في صباح الغد .لم تقل الوالدة شيئاً . كان الألم يعتصرها والقهر يخنقها ، وكان الوالد على حال من الوجوم والانكساف تدعو إلى الرثاء . إنه الآن يستشعر سوء فعلته . يفترسه ندم على ما فعل ، وفي هذه الحال يصمت .

ويتجنب النظر إلينا ، وتقوم بيننا وبينه حال من الغربة ، فكأننا نستشعر الذنب جميعاً ، ويخجل كل منا من الآخر ، ويوَد أن يمسح من نفسه ذكرى ما جرى .

يسود البيت سلام مشوب بالعتاب الصامت ، السائل من العيون ولا كلام . من العبث أن نسأله : لماذا فعلت ما فعلت ؟ هو نفسه لا يدع مجالا لأن نسأل ، ومن كل هيئته ينضح استغفار غريب ، ونغفر ، الأم تغفر ، ونحن نتابع بنظرات قلقة غفرانها الحذر ، الذي لابد منه ، لكي تمشي الحياة ، ويعود إلى البيت جوه الطبيعي ، وتفرح قلوبنا الصغيرة التي أحزنها ما جرى . .

ولقد كانت الأم تتكتم حول كل ما يجرى للمرأة من شؤون خاصة بها ، لم تسمح للوالد يوماً أن يضع كفه عليها بحضورنا ، وكانت العلاقة التي تقوم بين المرأة والرجل تقوم بينهما على ضرورة شديدة وكره من قبل الوالدة فيما كنت أحس ، وفي حياء بالغ ، كأنما تلك العلاقة مع رجل غريب ، وفي طاعة تؤديها كما تؤدى كل الواجبات المفروضة عليها .

كانوا ، في حينا ، يجهلون منع الحمل ، حتى الإجهاض

الذي كانت النساء تتمناه ، لشدة الفقر وكثرة الأولاد، كان يتم بوسائل بدائية وضارة . كانت المرأة تسر في خفر إلى جارتها ، أو أقرب النساء إليها ، بما تشكو من أعراض ، وكان الحمل أكثر هذه الأعراض شيوعاً ومدعاة للغم . كان هذا الخصب المبارك قبيحاً ، ومذموماً في نظرهن ، وكن معذورات في ذلك ، لأنهن بالفقر يحملن وبالفقر يلدن ، وسيدرج الصغير المولود ، كأخيه أو أخته اللذين سبقاه ، في وحل الحي وغباره ونتنه ، ومن أجل ذلك كن يسألن الله أن يدفع عنهن هذه التجربة ، فإذا لم يستجب لهن ، وكان الفقر ذاته ، مقروناً بالجهل ، سبباً في الإنجاب الكثير ، فقد كن يلجأن إلى « الداية » التي تدبر بعض الوسائل لإجهاض الحامل ، وكثيراً ما كانت وسائلها تشرف بالتي تأخذ بها على الهلاك ، ولكن الهلاك كان حاصلا على أية حال ، ومن أجل هذا كانت تلك الوسائل تمارس ، ومن أخطرها عملية « النكش » في رحم المرأة لإسقاط الجنين ، التي تقوم بها « الداية » بواسطة ملقط شبيه بملقط النار بعد أن تطهره بالماء ، وتنزف المرأة التي تجرى لها عملية « النكش » وتنطرح في الفراش ، وكثيراً ما تصاب بالحمى وتموت ، أو ينتج عن تكرار عملية النكش تخرشات لا تلبث أن تتحول إلى التهابات وأورام خبيثة .

وكانت الوالدة نادراً ما تقبل تلك العملية السيئة . وعندما تتأكد من أنها حامل ، تغتم كأن كارثة موشكة على الوقوع ، وكثيراً ما رأيتها تعمد إلى حمل أشياء ثقيلة، مثل الأحجار ، وخاصة بلاطة الكبة ، فترفعها بين يديها ، أو تضعها على بطنها ، وهي تبكي وتسأل ربها أن يصرف هذه البلية عنها .

ولم يكن الرب يستجيب ، وكانت الأم تعتبر الحمل عقاباً منه ، وكذلك تعتبره النساء الأخريات ، ورغم جميع الاحتياطات كانت النساء يحملن ويلدن بكثرة ، مثل الأفاعي والضفادع والديدان التي تتوالد في ذلك المستنقع الرهيب .

وقد شاء الحظ أن تحمل الأم في تلك الفترة ، ولم تنجح معها كل الوسائل التي لجأت إليها . وهكذا ظهر الحمل عليها في الشهر الخامس أو السادس واضحاً جلياً، وكانت مضطرة ، رغم ثقلها ، إلى أن تعمل في البيت وتخدم في بيت أسيادها . وكانت تعرف علائم الحمل المبكرة من أكل « البيلون » وهو نوع من التراب الذي كان يمرح به الشعر عند الاغتسال . ومن الإقبال على أكل الأشياء الحارة ، كالفليفلاء وغيرها .

ولقد أنذرها أسيادها بصرفها من الخدمة نهائياً ففي الشهر السابع ثقل الحمل عليها ، ولم تعد قادرة على أداء الأعمال بالهمة التي كانت لها سابقاً ، فاقترحوا عليها أن تستخدم أختي الصغيرة الثالثة عندهم ريثما تلد ،وقد أخافها هذا الاقتراح ، وأقض مضجعها اسبوعاً ، لكنها كانت أمامه كما أمام قدر ، وكانت ترهبه لأنه بمثابه قدر ،فهي تعرف أنه واقع لا محاولة .

كنا عندئذ خمسة أشخاص في البيت : الوالدان ، والأخت وأنا ، وأختي الصغيرة الضريرة ، وكانت أختي الأكبر تعمل خادماً . وتزورنا يوماً واحداً في الاسبوع ، بعد ظهر كل أحد ، وأذكر أننا ، أختي وأنا ، كنا ننتظر زيارتها بشوق كبير ، وأمل مقرون بفرح مسبق ، إذ كانت تحمل إلينا أشياء صغيرة اقتطعتها من طعامها أو من السكاكر أو النقود التي يجود بها عليها أسيادها في المناسبات . وكانت تصر ذلك في منديل ، وتأتي به إلينا ، فنهرع إليها نعانقها ، ولا نصدق متى تفتح الوالدة المنديل الذي تسلمه لها ، وكان فيه ، أحياناً ، قطعة حلوى ، أو فيه بعض السكاكر ، أو بعض حبات الزبيب ، أو جوزة أو جوزتان . وقروش وأنصاف القروش ، وربما لعبة صغيرة محطمة ،

مما يطرح في المهملات . فتجمعها وتحاول إصلاحها وحملها إلينا . وكنت أرى فرحاً مماثلا لفرحنا في عيون الأخت أيضاً . إن الخادم الصغيرة التي تعود إلى أهلها بلا شيء ، تعود خائبة خيبة مريرة . وهذه الحفنة من الزبيب التي تجود بها عليها سيدتها . هل كانت تعلم مقدار السعادة التي تدخلهاإلى نفسها ، لامن أجل ذاتها ، بل من أجل إخوتها في البيت ، هؤلاء المحرومين مثل هذه الأشياء البسيطة والنادرة بالنسبة إليهم .

ايه أيتها الأخت . يا أخواتي الكبيرات . هل كنتن تعلمن كم من بهجة غامرة أدخلت تلك الهدايا الناحلة ، التي كنتن تقتطعنها من لقمتكن ، وتحملنها إلينا ، نحن إخوتكن الصغار ؟ ولئن لم يتح لي الحظ ، لأنني لم أكن خادماً يوماً ، ولم يرض أحد أن يستخدم صبياً صغيراً مثلي ، لكي اقتطع أشياء مشابهة من لقمتي وأحملها إليكن فابهج بها قلوبكن ، فان ذلك بقي حسرة في القلب ، إذ أكلت من طعامكن ، ودرست وأنتن خادمات ، واشتريت دفاتري وأقلامي من قروشكن ، واني لمدين لكن بكل ذلك ، وأحسب أن كلماتي هذه لا تفي بالشكر ، واني لأسجلها شكراً من القلب .

هل كان ذلك قدراً محتوماً ؟ لاأومن بهذا . كان مجتمعاً ظالماً ذلك الذي حرم أخواتي من الدراسة ، وحرمهن من دفء البيت وحنان الوالدين ، واني لأرثي ، وقد أبكي بغير دموع لكل طفلة خادم ، وأنا أراها تضطرب في بيت اسيادها بين المطبخ وغرفة الطعام والسوق والمجلى ، وتنام تعباً وهي واقفة . إنني أحزن حزناً شديداً لمرأى مثل هذه الخادم ، لأنها في الذكريات التي تعتادني ، تمحي صورتها وأنا أنظر إليها ، وتنبت مكانها صورة إحدى أخواتي الخادمات فأكاد لولا الحياء ، أن أقبل تلك الخادم ، وأن أقول لها : « يا أختي التي كانت » وأن أمنحها حفنة من زبيب ، وقبضة من سكاكر ، ومبلغا من نقود ، كي تحمل كل ذلك إلى إخوتها في يوم إجازتها الاسبوعية أو السنوية . غير أن ذلك لا يتحقق ، أولا يتحقق كما أريد ، وكم فعلت ذلك سراً ، وكم نظرت إلى خادمات صغيرات عند بعض أهلي أو معارفي ،وأنا أبحث عن لحظة أختلي بهن لأ منحهن ما تيسر ، تعويضاً عن أشياء لم استطع ، وأنا صغير ، أن أمنحها لأخواتي الصغيرات.

وها ان القدر الاجتماعي يضرب ضربته الجديدة والمؤلمة . إن أختي الصغيرة ، الأكبر مني سناً ، صديقتي

وعشيرتي والحبيبة إلى قلبي ، تساق إلى الخدمة . إن ذلك
كان فوق احتمال الأم ، وكان ذلك فوق احتمالي أيضاً .
شعرت بفراغ رهيب في البيت ، وبأن أختي الصغيرة ،
التي كانت تحكي لي الحكايات ، وتلاعبني ، وتعد لي
الطعام ، وتؤنس وحشتي في غياب الوالدين ، ستغيب
بدورها . لقدكانت هذه الأخت عزيزة بقدر أوفر ،
لأن معها ، في قرية « الأكبر » عشت تحت التينة على قارعة
الطريق ، ومعها سهرت على أمنا المريضة ، ثم معها ذهبت
في طلب حصتنا من النذور التي تقدم فيها الهريسة ، وقد
حملتني صغيراً ، ودللتني ، وكانت لي صديقة ورفيقة ،
وكثيراً ما مسحت الدموع عن خدي .وجهزتني فيالذهاب
إلى المدرسة ، ثم وجدتها تنتظر أوبتي في الظهر والمساء . الأهم
أنها، عند ذهاب الأم إلى خدمة أسيادها في المساء، وتأخر
الأب عن العودة إلى البيت ، كانت تبث الشجاعة في
نفسي ، وتبعث الأمل في قرب عودة الوالد سليماً معافى،
وتغلق الباب بالمفتاح ، وتشعل مصباح الغاز ، وتسهر كأم
صغيرة ، على راحة أختي الضريرة .

رجوت الأم ألا ترسل أختي إلى الخدمة في بيوت
الناس ، وقلت لها أنا اذهب مكانها . فمسحت أمي على

رأسي وقالت :

ـ ماذا يفعلون بك أنت يا صغيري . أنت لاتعرف الكنس ولاالحلي ، ولن يقبلوا با ستخدام صبي .

ـ إذن لا نذهب ، لا هي ولا أنا .

ـ ومن أين نأكل ! ؟ أنت ترى أن شغل الوالد لا يكفي وحده . إننا فقراء يا صغيري ، فقراء أكثر من كل سكان الحي .

ـ ولماذا حينا فقير يا أماه ؟

ـ لأن المدينة فقيرة كلها . .

ـ كلها ؟ والأغنياء ؟

ـ هؤلاء أسياد المدينة ونحن أجراؤها . .

ـ ولماذا نحن أجراء ؟

ـ لأن الله خلقنا هكذا ؟

ـ أما قلت ان خالي ذهب إلى الله ، فلماذا لايتشفع لنا عنده ؟

ـ خالك لا يقصر في هذا ، من أجل ذلك لانموت جوعاً .

ـ لنصل إلى الله كي يجعلنا أقل فقراً .

– نحن نفعل هذا كل يوم ، ولكن لله حكمته . .
يقال ان الجنة للفقراء .

– والأغنياء . . ؟

قالت أمي :

– كل حسب أعماله

– وما هي أعمالنا نحن ؟ إننا لانسيء إلى أحد .

قالت الأم :

– لا تعترض على حكم الله . أنت ما تزال صغيراً.
لماذا تفكر على هذا النحو السيء ؟

أخبرتها أنني سمعت بعضهم يتحدث على هذا النحو ، فنهتني عن سماع هذه الأحاديث وتصديقها ، وأفهمتني أنه لابد أن تذهب أختي إلى الخدمة في بيت الأسياد ، ريثما تلد هي . وعندئذ ترجع إلى عملها كالسابق ، وتعود الأخت إلى البيت . وقالت ان المدة لا تستغرق أكثر من ثلاثة أشهر ، على أبعد تقدير .

وكعادته ، وافق الأب على أن تخدم الأخت بدل الأم . بل انه تبنى الفكرة منذ أن نقلتها إليه الوالدة ، ولعله هو صاحبها ، وإنها وافقت عليها بإلحاح منه ، أو لعلمها

أن الأخت ستخدم في بيت ما ، إن لم يكن هذا الذي تعرفه ، وتطمئن عليها فيه ، ففي بيت آخر ، طالما أنها كبرت قليلا ، وصارت في السن التي يقبلون فيها استخدامها.

ولقد تمت العملية ببساطة . كانت الأخت شجاعة ، وتدرك على صغرها حاجتنا إلى مورد يساعد في إعاشتنا ، فلم تقل للأم شيئاً حين فاتحتها في الموضوع ، وحاولت أن تظهر أقل ما يمكن من التأثر ، وربما كان ذلك مراعاة لي ، ووعدتني أن تحمل إلي ، في كل زيارة ، صنوفاً من الطيبات ، وقالت أنها ستكون شاطرة ، وسيسر منها أسيادها ويجودون عليها بمنح كثيرة .

هكذا ، ذات صباح ، ذهبت أختي الثالثة لتعمل خادماً ، لم يكن هناك بكاء ولا دموع . لقد اعتاد البيت على مثل هذا الفراق ، واعتادته الوالدة ، وكان الوالد مسروراً به ، وحزنت أنا ، ورغبت في الانفراد بنفسي لأداري شجني ، فسلكت طريقاً دائرياً إلى المدرسة ، وقبعت في الاستراحة على ذلك القبر الرخامي الذي في باحة المدرسة ، ورحت أتأمل الكتابة اليونانية التي عليه . كانت غريبة ، موحشة ، وقد تآكلت بعض حروفها النافرة فبدت حزينة مثل حزني ، ولم تكن الشمس مشرقة ، وفي

السماء غيوم ، وكل شيء معد للاحتفال الكئيب الذي كنت مدعواً وحيداً فيه ، وشاهداً وحيداً عليه .

إن أختي التي ذهبت إلى الخدمة في بيوت الناس لن ترجع إلى البيت بعد ثلاثة أشهر كما وعدت الوالدة : الطريق الذي مضت فيه حاملة صليبها بشجاعة كان طريق الآلام ، وفي الجلجلة ستصلب الطفلة على خشبة الحاجة، ونحن الذين في البيت سنأكل بثمن ردائها خبزاً ، وستنقضي أعوام طويلة قبل أن تعود إلينا ، ولن تعود لتستقر ، بل لتهاجر معنا من اللواء إلى اللاذقية ، ولتبدأ أيضاً كدحاً من نوع مختلف .

وحين عدت ، يوم ذهابها إلى الخدمة ، من المدرسة إلى البيت ، كانت الأم فيه . إن البيت ليعمر عندما تكون الأم فيه ، وبرغم أني كنت أحلم بيوم لا تذهب فيه الأم إلى الخدمة ، وبأن أعود من المدرسة وألقاها في البيت، وتفتح لي ذراعيها كما اعتادت وتحتويني بينهما وهي تقبلني ، برغم ذلك استشعرت وحشة قارضة للقلب في غياب الأخت ، وإذ لاحظت الأم وجومي ، حاولت التخفيف عني بأن أجلستني على ركبتيها ، وقالت لي إنها

أعدت لأجلي طعاماً طيباً ، وأعطتني قرشاً لانفقه لدى عودتي من المدرسة بعد الظهر .

كانت الأخت الضريرة هي الوحيدة الباقية ، ولم أكن أستطيع اللعب معها ، وكنت أحزن إذ أراها تخطو فلا تبصر طريقها ، فتصطدم بأثاث البيت وتقع ، وعندئذ كنت أهرع إليها وأحملها وأقبلها ، وكنتأصلي لأجلها كما علمتني الأم ، وأنتظر مثلها معجزة تعيد البصر إليها.

لكن البصر لم يعد إليها وا أسفاه . لم يكتب لها أن ترى هذه الدنيا . وتفرح بمرأى السماء الزرقاء ، وخضرة الأشجار . وأجنحة العصافير ، بل اختارت طريقاً آخر ، مر با لجلجلة ولكنه اختصرها إذ ذهبت ذات ليلة إلى غير عودة ، وماتت وهي طفلة صغيرة .

بكت أمي عليها كثيراً ، واستغربت هي نفسها كيف تخطفها الموت بهذه السرعة ، بعد مرض غريب لم يدم سوى أيام . وقالت لي :لا تبك يا حبيبي ، إنها ملاك، وقد اختارها الله إلى جواره ، ورحمها من عذاب كان سيلازمها طوال عمرها .

وأذكر أن الوالدة أخرجت من صندوق العائلة الوحيد

قماشاً رقيقاً أبيض ، وخاطت لها فستاناً في الليل ، وساعدتها في ذلك جارة لنا ، وألبستها إياه في الصباح ، وسجتها على فراشها الصغير فوق الحصير ، وأرسلتني فجمعت لها بعض الزهور البرية ، وضعتها على رأسها كتاج ، وجلست قبالتها وقد عقدت منديلا أسود على رأسها ، وراحت تناجيها كأنها لاتزال حية ، وتقول لها: « يا صغيرتي ، يا حبيبتي يا مسكينتي التي لم تر النور ، هل كرهت أن تظلي في الظلمة فآثرت أن تذهبي إلى النور الأعلى ؟ مع السلامة إذن . سلمي على خالك ، قولي له ان أمي بشوق إليك ، وانها تعذبت كثيراً بعدك ، وانها توصيك بي ، فأنا صغيرة ، ومسكينة ، ولم أر وجهها ولا وجوه إخوتي ، لأني ولدت ضريرة ومت ضريرة».

لم أذهب في ذلك اليوم إلى المدرسة . ولم يخرج الوالد لبيع المشبك ، وجاءت إلينا بعض النسوة وبعض الرجال. وكنت خارج البيت ، أستند إلى حافة النافذة ، وكنت أصغي وأبكي ، وعبثاً حاولت جارة أن تأخذني بعيداً. وقال الوالد للام :

— استراحت . .

فقالت جارة :

– أي والله استراحت . .

وقالت أخرى :

– الله أحبها فأخذها . . لم يشا أن يتركها للعذاب .

ثم حملوها قبل الظهر بقليل إلى المقبرة . حملها الوالد بثوبها الأبيض الصغير على ساعديه ، وسار ومعه بعض الرجال ، وبقيت مع أمي والجارات في البيت، وقد أدنتني أمي منها وقبلتني وقالت لي : لاتبك يا بني ، استراحت أختك ، وعلينا ألا نزعل لأجل روحها التي ذهبت إلى السماء .

لكنني كنت قد تجاوزت العمر الذي تعزيني فيه مثل هذه الكلمات ، فأنا الآن أعرف كيف يولد الإنسان وكيف يموت ، وقد اقتنعت أن موت الأخت كان راحة لها ، لكنني رغم ذلك بكيت ، وربما ، لو لم تلبسها أمي ذلك الثوب الأبيض الصغير لما بكيت .

وبعد شهر من ذلك ولدت أمي بنتاً . وقد كانت خائفة أن تكون ضريرة أيضاً ، لكنها كانت سليمة البصر وقد فرحنا بذلك فرحاً كثيراً ، وجاءت أختي إلينا في ذلك اليوم ، ومعها هدية من سيدتها ، وصرة ملأى بأشياء طيبة .

— ٧ —

نعمت الأم بشيء من الراحة بعد ولادة أختي الصغيرة وانقطاعها عن العمل في بيت سيدها . ولقد نابت أختي عنها منابآ حسنا ، ونالت رضى السيد وأهل بيته ، حسبما حدثنا خالي عبد الله الذي يعمل عنده .

وكان هذا الخال قد عاد من مرسين إلى اسكندرونة مباشرة ، فكان له شرف افتتاح السكن في حي الصاز ، وهو يتحدث عن ذلك بغير قليل من الفخر ، ويقول ان كوخه كان أول كوخ قام في هذه المنطقة التي لم تكن الا مستنقعاً كاملا تغمره المياه .

وكان حفيا بوالدتي ، عطوفاً عليها ، يناديها أختي ، ويسترجع معها ذكريات الماضي ، يوم كانا في برالا ناضول ، يعملان مع خالي رزق الله . واذ يرد ذكر هذا الخال كان يقول :

— هيهات أن تلد النساء مثله !

ولقد صادفت كثيرا من الرجال والنساء الذين

كانوا يذكرون خالي رزق الله ويترحمون عليه وبعد ثلاثين عاماً من هذا التاريخ ، سأجتمع يوما في بيروت برجل كهل ،أبيض الشعر ، يلبس شرْوالا ويلف زنارا حريرياً معرقاً على خصره ، وتبدو الزكرتية من عينيه ، فلما عرفوه بي دهش وسألني :

– أنت ابن فلان ؟

قلت : نعم . .

قال : وامك فلانه ؟

قلت : هي نفسها .

عندئذ تنهد وقال : « هيهات » قالها بنبرة أثارت الفضول في نفسي ، وكأنه أدرك ما جاء في خاطري فقال : « هل تعرف لماذا أسأل عنها ؟» قلت :«لا ، لكنني استغرب » قال « ذلك حقّك » وبعد لحظة صمت أضاف : «كنت أرغب في خطبتها ، لكن خالك رزق الله مانع ، ولم تكن كلمته تصير اثنتين » قلت :«وهل تحقد عليه بسبب ذلك ؟ » قال : أبداً . . من يحقد على رزق الله رحمه الله؟ كان ريسنا . وحبيبنا ، والمحسن الينا جميعاً. قلت : ولماذا مانع في أن تتزوج أمي ؟ قال : « لأنه كان قد وعد بها والدك ، ولم يشأ أن يتراجع عن وعده . . كانت كلمته كلمة رجال » .

وعندما سألت الأم عن ذلك قالت : انه يخلط بيني وبين أختي ، كان هذا الرجل يحب خالتك التي ضاعت في بلاد اليونان ، وكان من أصدقاء خالك العزيزين .

هكذا ستظل ذكرى الخال تتردد من حولي ، وتظل قامته تكبر في نظري ، وقد علمت من الأم أن سبب حفاوة ابن عمها عبد الله بنا ، مرده أن خالي رزق الله قد رباه ، كان صغيرا ويتيماً ، وقد هاجر من السويدية الى مرسين ، وهناك التجأ إلى خالي فأسكنه عنده وكفل له قوته ، وشغله في المواسم الزراعية التي كان يقود الناس للعمل فيها ، ومن أجل ذلك ، كانت أمي بمثابة أخت حقيقية لابن عمها هذا الذي وجدنا فيه قريباً وملاذا في أول عهدنا بالحياة في اسكندرونة .

وكان عبد الله يحب الدهن ، وقد مات بسببه .

وكم قالت له الأم :

– لاتكثر من الدهن ياعبد الله !

فكان يجيب :

– لاحياة لي بدونه .

– ومعدتك ؟

– لاتعمل الا بالدهن .

– والقرحة ؟

— العمر بيد الله .

— ولكن الدهن لايناسب القرحة

— كلام !

كان يغادر بيته صباحا وفي يده سلة ، يعود بها مساء وهي ملأى بالمواد والأشياء التي اشتراها لأجل البيت . وكانت « الدرنات » من مآكله اليومية المفضّلة ، فقد اتفق مع أحد بائعي الفضلات ، مثل الكروش والأمعاء و« القبوات » والرؤوس والكوارع ، على أن يخصه يوميا بكمية من « الدرنات » التي تكون لاحقة بالأمعاء ، فيحفظها له مع كل ما فيها من دهن ، ويأخذها منه في المساء بينما يكون عائدا إلى البيت ، وهناك تنظف وتقلى وتعوم في الدهن الذي يغمس فيه خالي وزوجه وأولاده خبزهم ويأكلون .

كان يشرب كل مساء . ولديه زجاجة خاصة يملأها بالعرق ويمزجه بالماء ، ويشرب من فم الزجاجة مباشرة ، وكلما جرع جرعة نظر في محتواها ليرى الى أين وصل . ولم يكن ينهض من مقعده على الخوان قبل انهاء الزجاجة . عندئذ كان يخبله السكر ، ويتراخى حتى لا يستطيع الوقوف ،

وتجحظ عيناه ويتقوس ظهره ، فيدب إلى فراشه على أربع ، وما أن يصل اليه حتى يغط في نوم ثقيل إلى الصباح ، حيث ينهض لمعاودة العمل وشراء الدرنات والشرب في المساء .

ولم يكن عمله ليدر عليه الا ثمن الخبز والأدام وبعض الثياب الرخيصة التي تخيطها زوجه .

فهو يذهب في الصباح إلى المحل ، وينظفه ويمسح غبار المكتب ، وكلما اشترى زبون بعضاً من مواد البناء ، كالحديد والأسمنت والخشب ، قام بحملها على ظهره لمسافات بعيدة ، حتى تقوس ظهره وهو في الأربعين ، وأصبح عجوزا قبل الأوان .

هذا الخال كان موسيقيّ الحي . فهو ضارب ايقاع على الدربكة ، وكان لأمر ما ، عندما يضع الدربكة في حضنه ، ويأخذ بالخبط عليها بكفيه الغليظتين ، ينفخ فمه ويدير رأسه إلى الوراء . وكان يرافقه في العزف حوذي جاء من السويدية وعمل أجيرا عند أحد أصحاب الحناطير ، وهو يعزف على زمر من القصب ، ذي عقد عديدة ، يفكها ويركبها حتى يصير الزمر بطول متر أو أكثر .

كنت أسهر عندهم في بعض الليالي ، وكانت امرأته

طريفة سيدة في مثل عمره ، تقول انها من أصل أرمني لكنها عربية ، فاذا اقتضت الضرورة أن تنتسب إلى الأرمن رجاء مغنم ، قلبت اسمها إلى زاروتين . وقد فعلت ذلك خلال الهجرة من اللواء ، فاستطاعت أن تؤمن لعائلتها مكانا مجانياً في الباخرة التي نقلت أرمن لواء الاسكندرونه إلى سورية ولبنان ، اما اذا لم يكن ثمة داع لذلك حافظت على اسمها العربي ، وزعمت أنها رأت العذراء في منامها ، وأنها طلبت منها كذا وكذا من الأشياء ، فيصدق أهل الحي ، ويتسابقون إلى تلبية طلباتها ودعوتها للصلاة على رؤوس أولادهم المرضى .

ويبدو أنها كانت تعتمد لائحة بأسماء القديسين ، فهم يظهرون عليها بالتناوب ، وكل منهم له مزاج وطلب ووصية ، وكانت واسعة الخيال فيما يبدو ، فهي لاتكرر قصة ظهور قديس مرتين ، بل تخترع كل مرة قصة جديدة . وذات يوم كنت أنام عندهم ، وكان منامي قرب الجدار الخشبي الفاصل بينهم وبين جيرانهم ، وكانوا يلصقون أوراقاً من أكياس الأسمنت على هذه الجدران ، لسد الثقوب والشقوق التي بين الألواح ، ومنع الرؤية بين الجار والآخر . وصدف ان كان الورق ممزقا على الجدار حيث نمت ، وعندما أفقت ، مصادفة ، فجر ذلك اليوم ، سمعت حركة

في البيت المجاور ، فنظرت من الثقب ورأيت شيئاً أبيض ينحرك على السرير ، لعله الرجل أو المرأة ، في حركة ركوع واضطجاع .

أنا لم أكن أفهم معنى هذه الحركات ، ولا ما الذي يجري بين الرجل وامرأته ، وقد قصصت ذلك على امرأة خالي عندما أفقت صباحاً ، فلما كان الظهر وعدت من المدرسة : كان الحي كله قد سمع أن « مار الياس » قد ظهر علي في ثوب أبيض ، وأنه كان يصلي تحت الأيقونات ! لقد أبدلت امرأة الخال ببراعة مكان ظهور القديس فنقلته من السرير إلى تحت الايقونات ، وهكذا صرت بين عشية وضحاها من أصحاب الكرامات ، وأرغمتني على أن أصلي على رؤوس المرضى ، وصدقت أمي القصة فأشعلت البخور ، وقالت لي إذا ظهر عليك « مارالياس » مرة أخرى فاطلب منه أن يهدي والدك إلى طريق الحق فيمتنع عن السكر ، وقل له اننا فقراء ، عسى أن يساعدنا . ولكن مارالياس لم يعد يظهر لي لأنني لم أعد أنام في بيت خالي ، ولأن الجار الذي سمع بالقصة جاء بكيس فارغ من الإسمنت وألصقه على الجدار ليمنع جيرانهمن أن يروا ما يعمل مع زوجته في الليل .

إضافة إلى ذلك ، كانت إمرأة خالي خياطة ، وهي تزعم أنها تلتقط «الموضة» على الطاير ، فإذا رأت أحداً يلبس قميصاً أو فستاناً جديداً ، مدت يدها وتحسسته ، وطلبت من صاحبه أن يدور أمامها ، ولكنها لم توفق في ايما يوم إلى خياطة ثوب لا يشكو علة من العلل . وكانت تمد قصبة في الأعياد من الجدار إلى الجدار في بيتها ، وتعلق عليه الثياب التي خيطتها ، ولا تسلمها إلى أصحابها إلا قبل العيد بيوم أو يومين ، لأنها كانت تحرص على عرض الثياب التي خيطتها طلباً لمزيد من الشهرة .

ولقد أحببت السهر في بيت الخال ، لأننا كنا نأخذ فيه حريتنا ، فنقفز من التخوت إلى الأرضية ، ونط من الأرضية إلى التخوت ، ونتضارب بالوسائد ، ونرمي الطابة من جدار لآخر ، وكثيراً ما كانت الطابة من قصاصات الأقمشة التي تفصلها إمرأته ، وكان هو يضحك ، بل يستغرق في الضحك ، إذا كان يشرب ، وكان سكره لطيفاً ، يجعله كطفل ، فهو لا ينزعج أبداً ، حتى ولو جاءت الطابة في صحن « الدرنات » الذي أمامه على المائدة ، وتبللت بالدهن أو نثرته كما ينثر الحجر الماء الذي يقع فيه .

شيء آخر كان يحبب بيت الخال إلي ، هو « البروفات»

الموسيقية التي يقوم بها مع عازف الزمر قبيل الأعراس والأفراح التي يدعون لإحيائها . كان الزمار يدعى دميان ، وكان يعمل حوذياً ، فهو يتأخر إلى الساعه التاسعة أو العاشرة ليلا ، وعندما يصل أخيراً يكون قد هده التعب ، ويكون الخال قد تعتعه السكر ، وعندئذ تبدأ « البروفة » العجيبة ، الخال يضرب على طبلته ، ودميان ينفخ في زمر القصب ، وأولاد خالي وأنا نرقص ، وقد يتراكض الجيران للسماع والفرجة ، فيصيح خالي بالزمار :

— انفخ ، انفخ أكثر .

وينفخ الزمار ، إلا ان خالي لا يفتأ يدربه :

— اقلب النفس دون أن تقطع العزف ، لا تنشز . .

ويعيد الزمار المقطوعة من جديد ، ومن جديد يصرخ به الخال :

— انفخ ، اقلب النفس . . . اجعل القصب حنونا ، واتبع الإيقاع ولا تنشز .

وكان الزمار ينفخ بقوة ، فيتورم خداه ، وتنتفخ أوداجه ، ويرفع رأسه إلى أعلى فتصير نهاية الزمر الطويلة قرب السقف ، أو يخفض رأسه فتلامس الأرض ، وتنقط منهاقطرات هي بعض اللعاب الذي يندفع مع النفخ من فمه .

هذا الثنائي الموسيقي كان كل الجوقة الموسيقية التي يمتلكها الحي ، وكانت الحفلة الكبرى السنوية تقام في عيد الغطاس ، أي عيد اعتماد السيد المسيح في نهر الأردن ، وكان يقع في أوائل كانون الثاني عادة ، وقبله بشهر تبدأ المشاورات لإحيائه ، وتجمع النقود من الشباب والرجال الذين يريدون الإشتراك في الحفلة ، وكان الخال وإمرأته يتكفلان عادة بإقامتها في بيتهما ، ويعدان لها ما يلزم من مشروب ومأكول .

كانوا يقلون العوامات ، ويشوون المعاليق ، ويصنعون التبولة في طست كبير ، ويحضرون البرتقال والجزر واليوسف أفندي ، وتبدأ الحفلة في المساء وتستمر إلى الصباح ، حيث يخرج الجميع إلى النهر ليعتمدوا به ويعمدوا ما أحضروه معهم في السلل من فواكه .

في هذه الليلة كانت يدا الخال تتورمان من الضرب على الدربكة ، وكثيراً ما تعطل الرقص في منتصفه لأن دربكة الخال قد انفختت ، ويكون قد استعد على بديل لها ، فيحمصها على نار الفحم قربه ، ويضعها في حضنه ، ويدير وجهه إلى وراء ، وينفخ خديه ويضرب بكل قوته ، والزمار ينفخ بكل قوته أيضاً ، وهو يستجير ، بين فترة

وأخرى ، طالباً الراحة ، لكن الحال كان شديداً عليه ، فهو لا يفتأ يصرخ به :

— انفخ . . اقلب النفس ، اقلبه من حلقك لا من بطنك . . غشيم !

وينفخ الزمار ، ويقلب النفس من حلقه ومن بطنه على السواء ، ويرقص الراقصون ، وخاصة الرجال ، الذين كانت رقصتهم المفضلة « الوحدة والنصف » وهم يعصبون رؤوسهم بكوفيات ، يدعون شراشيبها تتدلى على عيونهم ، فإذا اندمج راقص منهم في الرقص ، وطاب له النغم ، ركع على ركبتيه أمام الزمار ، وأخذ طرف الزمر فوضعه في أذنه ، ومعنى هذا أن الوجد قد بلغ به حده الأقصى ، وفي هذه الحال يجود الخال في الخبط على الدربكة ، وغالباً ما كان يفختها في مثل هذه المناسبات الوجدية.

وكما يكون لكل حي شيخ شباب ، فإن حينا كان له شيخ شباب ، وكان دوره في مثل هذه الليلة أن يحمل السنجق أمام الجوقة الموسيقية وأهل الحي الذين يخرجون رجالا ونساء وأطفالا إلى النهر للاعتماد في مياهه .

هذا السنجق — وهو كلمة تركية تعني اللواء — كان في حينا عبارة عن قصبة أو قضيب حور ، تربط في رأسه

كـفية بيضاء كالعلم ، ويزين بالزهور والفاكهة من برتقال وموز وجزر ، ويحمله شيخ الشباب مركزاً قاعدته في زناره عند الخاصرة ، ويسير في مقدمة الموكب ووراءه الجوقة الموسيقية (زمر القصب والدربكة ، وفي الإحتفالات غير العادية الطبل والزمر) ويتبعه الجمهور من رجال ونساء وأطفال ، في أيديهم السلال التي فيها الفاكهة لكي يعمدوها في النهر .

كانت الإحتفالات بعيد الغطاس هذا تتعددفي الحي . فكل مجموعة من الرجال والنساء والشباب والصبايا يؤلفون فريقاً له احتفاله الخاص . ومن أجل ذلك يبدأون الاستعدادات قبل شهر من العيد ، فيجمعون الفلوس ، ويذهبون إلى القرى المجاورة لإحضار الزمارين والطبالين ، ويتنافسون في إعداد السنجق وتهيئة المأكولات والمشروبات وأهمها المقالي ، مثل الزنكل وغيره ، وانتقاء البيت الذي يقام فيه الإحتفال والذي يفرغ من أثاثه القليل ، وتصف فيه الطاولات والكراسي ، وتبدأ الاحتفالات عادة في العشيات وتنتهي في الأصباح ، ثم تستأنف بعد الظهر إلى المساء .

ويكون الخروج للغطاس في النهر مع الفجر ، ويحرص كل فريق على أن يكون سباقاً إلى الخروج ، فإذا تلاقى

فريقان تقدم حامل السنجق في كل منهما وحنى سنجقه تحية للفريق الآخر ، ثم يتصالب السنجقان ، وتتشكل حلقة من الفريقين ، ويعزف الزمران والطبلان لحنا واحدا ، يرقص الشباب والشابات على إيقاعه وسط الحلقة ، ويتبادل الرجال زجاجات المشروب ، فيجرع كل فريق من خمرة الفريق الآخر ، وينفصلان بعد ذلك في طريقهما إلى النهر أو عودة أحدهما منه .

عائلتنا كانت في فريق الخال عبد الله دائماً ، وجوقتنا الموسيقية كانت تتألف من زمر القصب والدربكة ، وكان حامل السنجق شاباً يدعى « البوي بوي » — أي الطويل الطويل — ليس هو بشيخ شباب . لكنه يحرص على حمل السنجق ، ويقاتل في سبيل ذلك ، وكان الوالد هو مشكلة للوالدة في هذه المناسبة ، لأنه يسكر بسرعة ، وكثيراً ما أساء إلى المناسبة بعربدته وسكره ، ولهذا كان من غير المرغوب فيهم ، لكن الخال عبدالله كان يصر على قبوله ، وكنت أشعر بأعمق الإمتنان لموقف هذا الخال ، وأحس بأعمق الخجل والأسى من سكر الوالد ، لكن « البوي بوي » كان يتكفل بحمله إذا ما سكر وتهاوى ، ويحمله إلى البيت ويرقده في فراشه ، فأبقى أنا مع الوالدة

والأخوات اللواتي كن يأتين بإذن خاص لقضاء هذه الليلة بيننا .

المصيبة الأخرى كانت في الحوذي دميان . العازف على زمر القصب . فهو يسكر إذا شرب كثيراً . وعندئذ تتراخى شفتاه ولا يتمكن من العزف . من أجل ذلك كان الخال عبد الله يفرض عليه رقابة صارمة . ولا يسمح له بالشرب إلا قليلا ، فإذا أصر رجل ما على أن يسقيه ، كان الخال ، الذي يعرف اقدار الرجال ، يقول له كيلا يخجله : « اسق الزمر » فيمسك الساقي بطرف الزمر القصبي الطويل ويغطسه في الكأس ، ثم يعود إلى الرقص ، ويتعالى التصفيق من الحضور ، والزغردات من النساء .

وكانت الأغاني جماعية ، يشترك فيها جميع الحاضرين ، وكانت الأصوات ناشزة ، يغطي عليها التصفيق الإيقاعي الحاد ، والراقصون والراقصات يذهبون ويجيئون ، فإذا أخذت الحماسة أحد الشباب ، كان يمد بندقية الصيد من النافذة ويطلق ابتهاجاً ، وعندئذ يعلو الاحتجاج واللغط ، لأن شهر السلاح وإطلاق النار يخيفان النساء والأطفال.

كانت عين الماء في سفح الجبل القريب ، ومنها يجري نهر كالساقية ، وكانت الفرحة تبلغ أشدها عند

الخروج إليها . وإمرأة الخال تصر على اخراج ايقونة العذراء معنا ، وإكراماً للأم . كان الخال بوليني شرف حمل الإيقونة والسير وراء حامل السنجق ، أمام الجوقة الموسيقية . وكان هذا الإمتياز يغمرني بشعور من البهجة والتفوق . وكثيراً ماتلفت إلى وراء لأرى الأم وهي تحمل سلة الفواكه وتسير مع الموكب .

عند بلوغ النهر كان يجري الإحتفال . هناك يتبدى الإيمان الذي كان كل زاد هؤلاء الفقراء في مناهضة الفقر . كانوا يحسبون انه بمقدار ما يظهرون من إيمان، يستجيب الله لدعائهم ويحسن أحوالهم . إن الذين يلقون بأنفسهم في نهر الغانج في الهند ليسوا بأكثر حماسة دينية من أهل حي الصاز في مدينتنا . كنا، على كل حال ، نتشابه في الفقر والجهل والإيمان . وكان « البوي بوي » وإمرأة الخال يتقدمان الجميع للاعتماد في النهر . هو يحمل « السنجق » وهي ترفع الايقونة التي تأخذها مني . وبكامل ثيابهما ينزلان في النهر . يغطسان ، « السنجق » والايقونة أولا . بينما الأصوات تلعلع من حولهما بالصلاة المعتادة : « باعتمادك يا رب في نهر الأردن » حتى إذا انتهى نشيد المعمودية هذا ، ألقى بعضهم بأنفسهم في النهر . واكتفى الآخرون بخلع أحذيتهم وجواربهم والنزول في الماء .

لتعميد سلال الفاكهة . وإملاء الزجاجات من الماء الذي تقدس في هذه الليلة ، وجلب بعض الحصى من النهر كبركة إلى البيوت .

وبعد الإعتماد يخرج الجميع من الماء ، ويعيد الموكب تشكله في الإياب ، فينتصب السنجق شامخاً في خاصرة « البوي بوي » وأسير وراءه حاملاً الأيقونة ، وتشرع الجوقة الموسيقية بالعزف . حتّى إذا بلغنا الحي تفرقنا إلى بيوتنا على أمل اللقاء بعد الظهر .

وكانت الوالدة ، منذ عودتنا إلى البيت ، تشرع في توزيع الفاكهة التي عمدتها في النهر علينا،وتكون في المساء قد قلت لنا المجنجل (١) ، والعوامات . فهي تطعمنا منها . وتقبلني قائلة :

— آه يا صغيري ما كان أحلاك وأنت تحمل الأيقونة.

— وهل تعرف العذراء أنني حملت صورتها ؟

— العذراء تعرف كل شيء . إنها حاضرة ناظرة.

وكان عليك أن تطلب منها في سرك ، لأنها ، في مثل هذه الليلة المباركة ، تلبي جميع الطلبات .

---

(١) المجنجن رقاقات من عجين تقلى وتحلى بالسكر .

وحين أخبرت والدتي أنني طلبت منها بعض المطالب ، سألتني ملهوفة :

– مثل ماذا ؟

– ألا يسكر الوالد بعد الآن .

فابتسمت وقالت :

– ثم ماذا ؟

– ألا تخدمي أنت أو الأخوات في بيوت الناس .

فتنهدت من حرقة وقالت :

– أما طلبت منها أن تعيد إلينا أختك الغائبة .؟

– نسيت . .

– عليك ألا تنسى ذلك في المرة القادمة .

وقلت للأم انني طلبت من العذراء أن تغير لنا الحي . فسألتني باهتمام :

– كيف ؟

– قلت لها يا سيدتي العذراء ، أرجوك ، بشفاعة ابنك يسوع المسيح ، أن تجعلي حينا نظيفاً ، جافاً ، لاماء فيه ولا طين ، ولا ضفادع أو أفاعي ، وأن تنبتي لنا بدلا من أدغال البردي أشجاراً حلوة ، فيها أثمار ، وعلى أغصانها

عصافير ، وتحتها فيء نلعب في ظله أيام الصيف.

فربتت الوالدة على كتفي وقالت :

ـ أحسنت ، أحسنت ، وعليك أن تطلب منها ذلك في صلواتك أيضاً .

ولقد طلبت من العذراء ذلك طويلا ، ولم يتغير حينا . وقصصت ذلك على شاب من الحي ، كان سجيناً في حلب فقال :

ـ لو كان الدعاء يغير أحوال الناس والأحياء لتغيرت منذ زمن بعيد . . أمك جاهلة ، أما أنت فابن مدرسة ، وعليك بدلا من أن تطلب إلى العذراء أن تغير الحي ، أن تغيره بنفسك .

ـ أنا ؟

ـ نعم أنت . .

ـ وكيف ؟

ـ أن تفهم الحقيقة ، وتعرف السبب في أن حينا على هذا الشكل ، وتعمل مع العاملين لتغييره . .

فقلت وأنا دهش لسماع أقواله :

-- ومن هم هؤلاء ؟ ما اسمهم ؟

فوضع يده على كتفي وقال :

– ستعرفهم في المستقبل . . تعال إلي وسأقول لك أشياء لايقولونها في المدرسة ، ولاعندكم في البيت .

– مثل ماذا ؟

– هذا ما ستتحدث به . وستقرأه في كتب لا تجد مثلها في الأسواق .



— ٨ —

إضافة إلى احتفالات عيد الغطاس ، وبأهمية تفوق أهميتها ، كان حينا يشارك في احتفالات المرافع التي تسبق الصوم الكبير .

كانت هذه الاحتفالات تقع في شهر آذار ، مع قدوم الربيع ، على التقويم الشرقي ، وتدوم يومين كاملين ، فهي تبدأ مساء السبت ، وتنتهي مساء الاثنين ، ويسمونها « الماسكوز » ولم أعرف مصدر هذه هذه الكلمة ، واحسب أنها مأخوذة من كلمة Masque أي القناع ، لأن المشتركين فيها كانوا يتقنعون ، فهي اذن حفلات تنكرية .

وكان أهل الحي ، خاصة الصغار منهم ، يبدأون بتأليف جوقات صغيرة تنكرية قبل اسبوعين من المرافع على الأقل . وكنت أحب هذه الجوقات وأشارك فيها . وكان فتيان الحي ينقسمون إلى عدة فرق . وكل فريق معه دربكة ، يضرب عليها أحدهم ، عندما يدخلون أحد البيوت ويشرعون في الرقص ، وكنت في فريق أولاد

الفلفاط بصورة دائمة ، لأن الأخوين فلفاط كانا من أشجع الفتيان ، وكانا يبسطان علي نوعاً من الحماية ، لأنني من زملائهما في المدرسة .

كنت أعرف نقطة ضعفي وهي نحول جسمي ، فأنا لا استطيع أن أكون مبرزا في المعارك التي تنشب بين أولاد حينا وأولاد الأحياء الأخرى ، لكنني كنت أحسن تدبير الأمور ، وكانت صداقتي للأخ فلفاط الأصغر حميمة إلى درجة أننا لاننفصل في المدرسة وخارجها ، فهو في مثل سني ، وفي صفي ، وكان ذكيا ، مقداما ، على رأس فريق الصدام في الحي بصورة دائمة ، وكنت أمحضه مودتي وصداقتي .

وكانت والدتي توصيني بأن أكون وديعاً ، مهذبا ، وأن أحب الناس ، واحترم الكبار ، وأقاسم لداتي ما في يدي من ألعاب أو حلوى ، وكنت أعمل لمرضاتها ، ولأن تكون مسرورة مني . وهكذا نشأت على خصال طيبة ، أفسحت لي مكانا في قلوب رفاقي ، فكنت محبوباً من اكثرهم،وقادرا على أن أساعدهم في الدراسةواللعب،وأبذل هذه المساعدة بطيبة خاطر ، وفي كل وقت .

ولأن الجوقات التنكرية كانت تطوف على البيوت والأحياء ليلا ، فان والدتي كانت تخاف علي ، لكن الأخوين فلفاط كانا يضمنان لها عودتي إلى البيت سالما ، وتبقى المشكلة في الشكل التنكري الذي سأتخذه ، فالوالدة لاترغب في أن أتنكر بثوب فتاة ، لأن عندها من الفتيات مايكفي ، اضافة إلى أن التربية العامة لحي جاهل ومتخلف ، كانت تقوم على تفضيل الذكر على الأنثى ، وعلى اثبات ذلك التميز بين الولد والبنت بشكل صارخ ، حتى لكأن القدر يتدخل بشكل ظالم ضد من يرزق بنتاً من سكانه . لقد كانت البنت ، في نظر أهالي المدينة بعامة ، وأهالي حينا بخاصة ، مصيبة لوالديها . وكان الخوف من العار الذي قد تلحقه بأهلها عارا مسبقاً في توقعه الدائم . من أجل ذلك لم يكن أحد يرضى أن يتنكر بزي فتاة من الصبيان ، وكانت الفتيات لايسمح لهن بأن يتنكرن معنا ، وهكذا تظل المشكلة مطروحة ، إلى أن أقدم القلفاط الصغير ، بجرأة حسدناه عليها ، على قبول دور فتاة ، وكنت العب أمامه دور الفتى ، أما الفلفاط الكبير فكان يدهن وجهه بدهان أسود ، ويعتمر طر طورا ، ويلبس سروالا أحمر له ذنب ، ويمسك بيده جرساً أو بوقاً ويمثل دورالشيطان .

كنا نشتري الأقنعة من الورق المقوى من السوق ، وباقي اللباس من ثياب الأهل ، وكان أغلبها عتيقاً ممزقاً ، وكنا نعنى بأن يضع الذين يتنكرون بفساتين الفتيات « البودرة » والأحمر على وجوههم ، وكانت البودرة رخيصة وموفورة ، فهي العنصر الأول في الزينة ، والنساء يرششن بها وجوههن رشاً ، أما أحمر الشفاه فلم يكن مستعملا ، وعندما تجرأت فتاة ووضعته اعتبرت من قليلات الأدب والساقطات ، وكانت الحمرة المستعملة عبارة عن مسحوق في علب صغيرة ، وكانت نساء غير قليلات يستخدمن نقيع طرابيش الرجال ، فهن يقصصن قطعة صغيرة من الطربوش العتيق ، وينقعنها في الماء ، ثم يعصرنها ويدلكن بها وجناتهن ، وهذا ما فعلناه نحن أيضاً في تنكرنا .

كانت الجوقة تتألف من عدة أزواج ، ومن شيطان ، ودب ، وكنا نسير في الحي ، ونخب في الأوحال ، بألبستنا ذات الأذيال الطويلة ، والأردان الفضفاضة ، فالعريس يلبس شروال أبيه ، والعروس تلبس فستان الأم ، والدب يلف نفسه بجلد خروف ، وكل هذه الألبسة الرثة ، الواسعة ، كانت تغمرنا وتنسحب وراءنا وكانت تتلوث بالماء والطين ، ونحن لانبالي ، بل نرقص مبتهجين ، غير

شاعرين بالمطر أو البرد ، وعندما ندخل بيتاً ، كان يفرض علينا أن نخلع أحذيتنا ، وكانت هذه مسألة محلولة ، لأن نصفنا على الأقل دون أحذية ، والنصف الآخر يلبس أحذية مهترئة ، وبعضا يلبس الشحاطات والقباقيب ، وكان عدد الأولاد الذين يرافقون الجوقة ، ويصفقون لها ، ويهرولون في الدروب والأزقة وراءها ، أضعاف عددها .

يحدث، أحيانا ، أن ينضم إلى هذه الفرق التنكرية الكبار. كانوا، قبل المرافع، يتنكرون، أيضا رجالا ونساء، لكنهم ما كانوا يغادرون الحي ، بخلافنا نحن الأطفال الذين كنا نطوف المدينة .

على أن « الماسكوز » الحقيقي هو الذي كان يقام في المرفع الثاني ، قبل الصيام الكبير مباشرة . كانت المدينة بأسرها تشارك فيه ، وتتألف عدة فرق تنكرية ، بعضها شهير لما يملك من ألبسة واسلحة ، كالسيوف والخناجر والنبابيت ، ومن امكانات مادية ، مثل فرقة طنوس الأبيض، هذه التي كانت لها الصدارة ، لأنها تطوف حي الأغنياء ، وتدخل بيوت أثرياء المدينة ووجهائها ، وهكذا كان الانقسام الطبيعي يبدو جلياً في كل شيء ، حتى في « الماسكوز» الاحتفالي .

حينا الفقير كان له فريقه الفقير مثله ، وكان يتألف من الشباب ، وأغلبهم من عمال الميناء أو محطة القطار ومن الباعة وأصحاب الحرف اليدوية والمتعطلين . كانوا يجمعون القروش من أعضاء الفريق ، ويستأجرون لذلك طبالا وزمارا من القرى القريبة ، وتجرى التجارب قبل الاحتفال التنكري بأسبوع على الأقل ، وكنت أحرص على حضور هذه التجارب التي تقام أمام بيت عبده حسني .

كان عبده هذا شابا ضئيل الجسم ، هادىء التفكير ، ذكيا ومنطقيا ، وكان اريحيا جداً ، وأول من تعلم العزف على العود في حينا ، فصار من بعد أحد أعيمدة جوقته الموسيقية ، وكان وحيداً لأبويه ، أو على الأصح وحيداً لأمه ، لأن والده مات وهو صغير فتزوجت أمه من رجل يدعى نقولا ، كان يناديه والدي ، وكان كل منهما محباً للآخر براً به .

وكانت البروفات تجري كما في المسرح ، بغير ألبسة الرقص ، وتعتبر نوعاً من التمرين لأعضاء الفريق وللطبال والزمار على السواء . وأصعب ما في هذه التجارب تلك القفزة التي سيقوم بها في الهواء من يمثل دور عبلة ، بحيث

يضع يديه على الأرض ، ويقلب باتجاه ظهر عنتر ،فتأتي قدماه على ظهر هذا الأخير ، ومن ثم ترفع عبلة رأسها حتى تجلس على كتفي عنتر ، فيرقص بها ، وقد تقف على كتفيه . ويرقصان ، وهذا كله يحتاج إلى خفة ورشاقة ومقدرة على التوازن ، لأن سقوط عبلة عن ظهر عنتر ، أو عدم قدرتهاعلى القفز في الهواء،أو قلة مرونتهافي تقديم جذعها حتى تستوي جالسة على الكتفين ، إن ذلك كله ، إذا لم يحدث بالشكل الجيد أو المناسب ، يعتبر فشلا للفريق . لقد كانت قفزة عباة تلك تعتبر من أبرع حركات الرقص ، ودونها لايتم سرور الناس ، أو لايستثارون ، كما لايستثار جمهور مصارعة الثيران إذا لم يقتل المصارع الثور .لذلك كانوا نادرين أولئك الذين يستطيعون القيام بدور عبلة . وفي حينا كان ثمة شابان يستطيعان ذلك ،هما عبده حسني وانطوان الكلداني ، وكان كلاهما ضامرا، نحيلا ، قادراً على مثل هذه الوثبة التي تتباهى بها الفرق التنكرية الأخرى ، وتكون موضع منافسة بينها .

يتألف الفريق التنكري بشكله الطبيعي من عدة أزواج : العريس والعروس ، الفلاح والفلاحة ، عنتر وعبلة ، ولايمكن أن تكون فيه إلا عبلة واحدة وفلاحة

واحدة، وكذلك عنتر واحد وفلاح واحد، أما العرسان فيمكن أن يكونوا عدة أزواج ، ويأتي في النهاية دور المهرجين الذين يلبسون ثياب الشيطان الحمراء ، بطراطير وأذناب ، ويحملون بأيديهم بالونات أو هراوات ويركضون وراء الفريق وأمامه ، ويدورون من حوله لإبعاد الجمهور عنه ، ويكون في الفريق عادة من يمثل دور شيبوب أيضاً .

وكانت ثياب العروس تتألف من فستان حريري، مع منديل على الرأس ، وحذاء وجورب نسائيين ، ونهدين اصطناعيين ، من مطاط أو خرق ، وهذه الثياب النسائية كانوا يحصلون عليها من بنات المبغى الذي يقع في الجهة الشمالية من المدينة . . وتتألف ثياب العريس من تنورة، وقميص أبيض فوقه دامر بردنين يتدليان من الكتفين كجناحين ، وعليهما وعلى الصدر نقوش كنقوش الاغباني ، وترتدي الفلاحة ثوب فلاحة يستعيرونه من إحدى القرى ، ويلبس الفلاح جزمة حمراء وشروالا، وفوقه عباءة يلفها زنار تشكل فيه الغدارات والخناجر، وعلى رأسه طربوش بعصبة ، يشكل فيه الزهور والأغصان والخضر وحتى البصل الأخضر ، كلوحة زراعية تشير إلى مهنة الفلاح . أما الثياب الفاخرة فهي ثياب عنتر وعبلة ،

وأقل من ذلك ثياب شيبوب.عنتر يلبس الشروال الاسود من الجوخ المعرق على الجانبين ، والحذاء الأسود اللماع ، والقميص الأسود المطرز ، ويعتمر كوفية وعقالا أسودين ، بخلاف العرسان الذين يعتمرون الكوفيات والعقالات البيضاء ، وعبلة ترتدي ثوباً طويلا أسود محلى « بالبرق » وهي دوائر وازرار صدفية لماعة ، تبرق وتتوهج في الشمس وتحت الأنوار ، كما تفعل المطربات ، ولشيبوب لباسه الخاص ، وحذاؤه الحلبي الأحمر الذي هو الخف لسرعة الحركة .

ثم هناك الأسلحة العتيقة التي يتنافس كل فريق في اقتنائها ، مثل الغدارات والسيوف والخناجر والنبابيت، عنتر يحمل نبوتاً ، وعبلة تضع في أصابعها الصنوج ، والعريس يحمل سيفاً ، والعروس تضع الصنوج ، والفلاح يحمل عصا ، والفلاحة منديلا،والشياطين يحملون سيورا من جلد وينهالون بها على أقدام الناس لصنع حلقة رقص للفريق ، ولفض الإزدحام ومنع دخول المتفرجين إلى البيوت التي يدخلها الفريق .

هكذا كانت الإستعدادات تتم . ومنذ صباح السبت

تبدأ الحركة في البيت الذي يتخذه كل فريق مركزا له يضع فيه ثيابه وأسلحته بانتظار المساء حيث يبدأ التنكر . وكنا لانصدق متى ننصرف من المدرسة ذلك اليوم ، حتى نهرع إلى الحي ، فنقذف حقائبنا القماشية وكتبنا من الأبواب ، ونركض إلى بيت حسني حيث كان مركز تجمع فريق حينا .

ومع أنه افقر فرق المدينة وألبسته وأسلحته رثة عتيقة، وطباله وزماره من الغجر لا من القرويين ، فقد كان فريقنا وكنا نعتز به ، ونحسد أعضاءه ،نتمنى إشارة منهم لننفذ طلباتهم .

كان يسمح لي بدخول بيت حسني . وكنت أعتبر هذا إمتيازاً أدل به على الأولاد . وداخل البيت ، حيث أفراد الفريق يلبسون ثيابهم ، كانت فرجة حقيقية . كان يسعدني أن أقدم خدماتي لهؤلاء الشباب ، فأناولهم الثياب ، وأمسح لهم الأسلحة والنبابيت ، وأحمل إليهم الماء ، بل أنني عقدت أشرطة أحذيتهم في نوع من الحماسة للعمل الجماعي الذي يباشره الجميع . وكنت أدخل وأخرج لسبب وغير سبب ، متباهياً أمام الجمهور المتجمع في

الباحة . وألوح لأمي الواقفة بين النساء . وأنقل الأخبار لمن هم في الخارج عن استعدادات الفريق في الداخل ، وقد باغتني الشاب الذي يمثل دور عنتر ، فحملني على كتفه وخرج قائلا : هذه عبلة ، وصفق الحاضرون . فسرت أمي لذلك كثيراً .

عند هبوط الليل كان الفريق يصبح على أتم استعداد للانطلاق. عندئذ يخرج الجميع إلى الباحة ، ويضرب الطبل بقوة، ويفتح صاحب البيت زجاجات العرق والنبيذ تحية للمناسبة، ويرد الفريق تحيته بأن يؤدي أولى رقصاته أمام بيته ، ويتقدم رئيس الفريق فيعطيه سيفاً ويدعوه إلى الرقص ، تعبيراً عن التقدير والاحترام .

كانت العادة أن يطوف الفريق في الأسواق ، وينتقل من حي لآخر حتى منتصف الليل ، ويدخل البيوت حسب الدعوات الموجهة إليه . آخذاً في الإعتبار الوضع الإجتماعي والمكانة لصاحب الدعوة . وبعد ذلك يعود إلى البيت المقرر إحياء الليلة فيه ، ويكون هذا شرفاً لا يناله إلا وجيه معروف. أما فريقنا فكان يعود إلى الحي ، وفي بيت رئيس عمال الميناء ، أو مسؤول في محطة القطار ، أو شيخ شباب الحي ،

يحيي ليلته إلى صباح الأحد ، حيث ينام أعضاء الفريق قليلا ، ويستأنفون في الصباح تجوالهم في الأسواق .

كنا ،أولاد فلفاط وأنا ، نتبع الفريق إلى منتصف الليل ،ثم نعود إلى بيوتنا فننام لنستأنف اللحاق بالفريق صباح الأحد إلى الليل أيضاً ، ثم نعود إلى بيوتنا . ونستأنف ذلك يوم الإثنين الذي تعطل فيه المدارس . إلى أن تنتهي احتفالات الكرنفال في المساء ، فنعود إلى أهلنا وقد هدنا التعب ، وشبعنا من الفرجة ومن المشاركة في الإحتفالات ، وأنفقنا كل ما جمعنا من قروش لهذه المناسبة السعيدة .

ولقد حدث ، ذات عام ، حادث فريد في حياتي ، عرفت فيه لأول مرة المبغى الذي كان الأولاد يتحدثون عنه . وعن البنات اللواتي فيه ، حديثاً مثيراً كنت أنجذب إليه وأخجل منه في وقت واحد . كانوا يقولون ان البنات في هذا المكان ذي البيوت الخشبية المتفرقة على ضفة نهر وبين الأشجار مومسات .وكانت نساء الحي ، في الأحاديث التي تدور بينهن وتتناهى إلينا أطراف منها يصورن هؤلاء البنات صوراً منفرة كريهة .. كن يقلن أنهن ساقطات ، وأنهن داعرات لا يعرفن الشرف ، وأن أهلهن قد تبرأن منهن ، وأن الفجور يبلغ بهن حداً يخرجن معه إلى الأسواق

في ثياب قصيرة ذات أكمام عارية ، وكانت بنت المبغى تعرف من شكلها ومشيتها وسيكارتها والمساحيق التي تطلى بها وجهها . ولقد قيض لنا نحن الأطفال أن نرى هؤلاء الفتيات يتجولن في الأسواق ، أو يركبن عربات الخيل ، واضعات رجلا على رجل ، بشكل يكشف طرفاً من أجسامهن ، أو يظهر جذور نهودهن عند الصدر ، وكان الاخوان فافاط يركضان وراء هؤلاء الفتيات ، ويتبادلان معهن كلمات فاجرة ، تدخل الحياء والحزن إلى نفسي ، فانفصل عنهما واعود إلى البيت وقد استبدت بي مشاعر متضاربة ، من إثارة وقرف ، ورغبة ورهبة ، وسخط على وضع هؤلاء الفتيات البائسات . ولقد عبرت عن مشاعري هذه لعبده حسني ، فسألني :

ـ وأنت ، لماذا تكرههن ؟

قلت في اندفاع ونبرة اتهام :

ـ لأنهن ساقطات !

ففكر قليلا ولاحظ :

ـ هذا خطأ.

وفي عصر أحد الأيام ، توفيت إحدى بنات المبغى. ورأينا ونحن نلعب في الحديقة بضعة مشيعين يحملون

جثمانها في تابوت ويسيرون إلى المقبرة . كان بينهم عمال من حينا ، وقال لي عبده حسني في اليوم التالي :

– مهزلة ! لم يمش في جنازتها أحد . ورفض الخوري أن يجنزها .

كانت كلمات عبده تبدو لي مغايرة لكل ماأسمعه من أمي ومن الناس ، ولهذا كانت تربكني في تلك السن . كان يعز علي أن تكون الأشياء غير ما ألفت ، وأن يحسم عبده فيها بحيث لايدع لي مجالا للاعتراض .ولم أكن أفهم لماذا يتكلم على الأغنياء بهذا الحقد ، ثم يشفق على بنات المبغى هذا الإشفاق ، ولما قلت ذلك للأخوين فلفاط قالا :

– له صاحبة هناك . .

وسألت عن معنى الصاحبة فتطوع الأخ الأكبر في شرح الموضوع . وأدركت عندئذ الفرق بين الصاحبة والزوجة . لكنني وقفت من المبغى موقف المشمئز ، وظللت منطوياً على مشاعر عدائية تجاه البنات اللواتي فيه ، برغم أني تبعتهم إلى المقبرة القريبة حين شيعوا جثمان تلك البائسة التي رفض الخوري أن يصلي عليها .

ولقد حدثنا الفلفاط الكبير . ونحن نتكيء على العشب عند غروب أحد الأيام ، عن عالم المبغى ذاك ، الذي عرفه من زيارات قام بها إليه للفرجة . قال أن البنات يعشن في غرف خشبية ، ذات أدراج واطئة ، وأنهن يبقين في الصيف شبه عاريات ، وأنه رأى واحدة منهن فلم تحتجب منه ، ولم تستر نفسها ، بل قالت له تعال معي إلى الداخل إذا كنت تريد أن تراني عارية على شرط أن تدفع نقودا . . ثم جاء رجل فأخذها إلى الداخل ، وأغلقت الباب وراءها . وكان عجوز يخدم هناك ، فمنعه من الإقتراب من الباب ، وعندئذ تحول إلى النافذة ، وأنه رأى الفتاة والرجل في الفراش . وسمع صيحات الفتاة . . ثم فتح الباب وخرج الرجل . وعادت الفتاة إلى مجلسها بانتظار زبون جديد ، وشرعت تغني وهي تضع رجلا على رجل ، وتكشف عن جسمها الأبيض الجميل .

وقال ان كل بيت في المبغى فيه « فنوغراف » ، وأن الأغنيات تنطلق من جميع البيوت ، والبنات يجلسن أمام الأبواب ، وينادين على الرجال بكلمات بذيئة . وأن المبغى يمتليء ليلا بالرجال ، وتفوح منه رائحة حادة . كما تفوح منه رائحة الكحول ، ويسكر الرجال هناك

ويعربدون . وأنه رأى فتاة سكرى . وقد تشاجرت مع أحد الرجال وقذفته بشتائم فاجرة ، وأن للبنات أما يسمونها « البطرونة » وهي التي تقبض الفلوس ، وتنفق على بناتها . وأن في المبغى شبابا يعملون ، ويدافعون عن البنات إذا حاول الرجال الإعتداء عليهن ، وأن هؤلاء الشباب ساقطون مثل البنات سواء بسواء .

لقد أثارتني وأرهقتني كل هذه الأقوال . لم أكن قد رأيت إمرأة عارية ، وكنت قد عرفت ما يصنع الرجل والمرأة في الفراش ، لكن الكلمات التي نقلها الفلفاط عن بنت المبغى وهي في السرير مع الرجل جعلتني أضطرب ، ومع أنني رغبت في الإنصراف لئلا أسمع المزيد من التفاصيل ، غير أن قوة خفية منعتني ، فبقيت حيث أنا أصغي وأتعرض لمشاعر متضاربة وعنيفة ، وخرجت بانطباع كريه وقاس ، وتصورت بنات المبغى في صورة إبليسات مقيتات ، وبقيت كذلك إلى أن حدث معي ، في عيد الكرنفال ، ذلك الحادث .

تبعنا فريق حينا منذ صباح الأحد ، ولم نعد إلى البيوت الا ظهرا ، حيث تناولنا الغذاء وأسرعنا إلى اللحاق بالفريق ثانية . كنا نسمع أصوات الطبول من بعيد ، ونصادف فرقاً

أخرى غير فريقنا ، واقترح علي الفلفاط الصغير أن نذهب مع فريق طنوس الأبيض طوال بعد الظهر ، وامتدح هذا الفريق الذي هو أحسن فرق المدينة ، وهكذا تبعناه في الأسواق والبيوت إلى المساء ، وعندما التقينا بفريقنا انفصلنا عنه . وقال الفلفاط ان عليناان نظل مع فريقنا ،وأنه سيريني هذه الليلة شيئاً عجيباً ، لم اره في حياتي ورفض أن يقول لي ما هو .

كان يعرف من أخيه الأكبر أن الفرق التنكرية اعتادت أن تبيت ليلة الأحد ــ الأثنين في المبغى العام . فهي تذهب إلى هناك في منتصف الليل وتبقى إلى الصباح . وأوصاني أن أظل معه ولا أبوح بهذا السر إلى باقي الأولاد ، ولم يذكر لي المبغى صراحة ، بل قال أن علينا أن نتبع الفريق حيثما ذهب ، وسأعرف بعد ذلك السر الذي أوصاني بكتمانه .

وافقته على ذلك ، ولحقنا بالفريق طوال ساعات . كان الرقص يجري أحياناً في الساحات ، وأحياناً في البيوت ، وكان الناس يقدمون العرق والمأكولات لأعضاء الفريق ، وقد رأيت عبده حسني في دور عبلة ، وشاهدته يقفز إلى ظهر عنتر بشكل ارضاني ، وحوالي منتصف الليل خرج الفريق إلى ظاهر المدينة من جهة الشمال ، ثم سلك درباً صغيرا بين الأدغال والأشجار ، قريباً من النهر ، أفضى :

إلى تلك البيوت الخشبية ذات الألوان الصارخة ، وقال لي الفلفاط الصغير :

– احزر أين نحن ؟

هززت كتفي علامة على الجهل ، فقال فخورا بتفوقه علي :

– نحن في المبغى وسترى البنات الآن .

أضاف :

– علينا أن ننظر من النوافذ لنرى ما يفعلون داخل الغرف .

وقال :

– سأقترب جدا من البنات فلا تتخلف عني ، وإذا سنحت الفرصة فسأقبل احداهن وأهرب . . انني لم أقبل امرأة بعد .

انتابني ذعر عقد لساني . كنت غير قادر على العودة إلى البيت بمفردي ، وكنت غير راض عن وجودي في المبغى ، وتراءت لي صور البنات والغرف والأسرة ، واستعدت ما قاله لنا الفلفاط الكبير ، واضطربت لهذه المفاجأة ، وقررت أن أبقى بعيداً ، خارج الغرف ، فلا

أقترب من النوافذ أوالبنات ، وسألت الله أن ينقذني من هذه الورطة ، وألا يطول مكوث الفريق هنا .

أمام بيت أزرق، يرتفع عن الأرض عدة درجات خشبية، وله عدة نوافذ ، بعضها مفتوح وبعضها مغلق ، وتحيط به الأشجار والأدغال ، وهو قريب من النهر ، توقف الفريق ، وخرجت من البيت امرأة بدينة ، مكشوفة الصدر ، تزين جيدها وذراعيها عقود وأساور، وفي أذنيها قرط طويل ، وفي أصابعها خواتم ، ووجهها مطلي بالمساحيق الفاقعة ، فاستقبلت الفريق مرحبة ، ومن ورائها ، على باب البيت وقفت عدة بنات ، لم يلبثن أن نزلن الدرجات وعانقن بعض المتنكرين ، وكنت لأول مرة في حياتي ارى منظراً كهذا ، وأشاهد رجلا وامرأة يقبل احدهما الآخر من الفم ، في وضع مستهتر .

اقترح علي الفلفاط أن ندخل البيت ونلقي نظرة على مافيه فرفضت.مكثت في الباحة ، بين المتفرجين الذين تبعوا الفريق ، وجعلت أرصد حركات البنات في نوع من الاستثارة البالغة . كنت خائفاً قليلا . كان شيء مشين يجري أمامي . وفكرت بأمي فاستشعرت ذنباً كبيرا. بدت لي الحياة غريبة متناقضة، تمثلت وجه الام، ووجه العذراء ، وصور النساء القديسات ،

وافتقدت ذلك الطهر وأنا أشهد حمأة الرذيلة ، فاستولت علي كآبة تدفع إلى الفرار ، تجاورها وتتصارع معها شهوة مبهمة كانت تستيقظ فتسمرني مكاني .

بعد أن رقص أعضاء الفريق . ورقصت أيضاً تلك المرأة البدينة ، دخل الجميع إلى البيت حيث أعدت المائدة . كان واضحاً أنهم سيأكلون ويشربون وينامون مع البنات . وان مشاهد مثيرة ستجري ، وقد دخل صديقي الفلفاط مع الداخلين . وبقيت وحيداً في الباحة بانتظار خروجه لننصرف إلى بيوتنا .

أنا لا أذكر كيف انقضى الوقت . لكنني أذكر أنني لم اقترب من أيما نافذة . كان شيء ما يفور في ذاتي الآن ضد الجميع ، بمن فيهم صديقي الفلفاط . وكان الليل الصاخب والأصوات المعربدة المتناهية الي من الداخل . وضربات الطبول في بيوت المبغى . وسواد الأشجار . والنهر الذي يمضي إلى البحر حاملا أقذار المدينة . وتنصب فيه أقذار هذه البيوت التي كرهتها . قد شكل لوحة متنافرة . زاد تعبي من بغضي لها .

طال انتظاري ولم يخرج صديقي . كانت الضحكات تنفجر وتدوي ، والصخب والضجيج . وتلك الرائحة الحادة

غير المألوفة ، وبرودة الليل ، والشعور المهين لوقفتي وحيداً في ذلك المكان ، قد بعث غثيانا في نفسي ، فتلاشت قواي ، ودار رأسي ، وتهاويت على الدرج الخشبي ، وجعلت من ركبتي وساعدي المتصالبين مسنداً لهامتي المكللة بشعر خرنوبي غزير ، وتجمعت على بعضي ونمت . .

وعندما أفقت ، في صباح اليوم التالي ، كانت الشمس مشرقة ، ووجدت نفسي في سرير غريب ، وفتاة تجلس قربي وتداعب شعري ، وكانت تنظر الي وتبكي ، ولم افقه شيئاً للوهلة الأولى ، وصدمني وجودي في الغرفة ، مع الفتاة التي أدركت فورا من هي ، وهممت أن أقفز من السرير وامضي خارجاً ، لكنها أمسكت يدي متوسلة أن أبقى قليلا ، واتحدث معها .

كانت في هيئة ضراعة ، ومن المرجح أنها لاتراني شخصياً ، بل ترى في صورة شخص آخر عزيز عليها ، في مثل عمري ، وتريد أن تحس بأنه قريب منها ، وأنها مازالت في بيت آخر ، هو بيت الأهل الذي غادرته يوما ، وان أطفال ذلك البيت لن ينكروها اذ رأوها ، ولن يعاملوها باحتقار كما يعاملها الكبار .

ولقد أشفقت عليها وأنا ارى دموعها . كانت قد اغتسلت بدموعها ، وتطهرت من آثامها ، وخيل الي انها لاتشبه الفتيات اللواتي رأيتهن ليلة امس ، ولا الفتيات اللواتي كنت أراهن في عربات الحنطور . وانها مثل فتيات حينا ، محتشمة ، صغيرة ، بسيطة ، وأنها تتعذب ، وتشعر بأنها منبوذة ، ومنفية ، وداخل سجن مظلم ، برغم الضوء والشمس وهذه الخضرة التي ترى من النافذة .

سألتني عن اسمي وأهلي والحي الذي أسكنه ، وعما اذا كنت أذهب إلى المدرسة ، ومن الذي جاء بي إلى هنا ، ولماذا كنت نائماً على الدرج . وأجبت على أسئلتها باقتضاب ، وأنا مطرق الرأس لا أنظر اليها ، وتبدو على وجهي أمائر دهشة ممزوجة بأسى رقيق ولهفة لأن تخلي سبيلي فأخرج راكضاً ولا أعود أبداً .

سألتني .

ـ تخاف مني؟

ـ لا ، ولكن من أنت ؟

ـ أنا زينب . . هذا اسمي القديم .

ـ لك أهل . . ؟

ـ كان لي أهل . .

ـ أين هم الآن ؟

– لاأدري . .

– ولماذا لاتبحثين عنهم وتعودين اليهم ؟

– لاأستطيع . .

– من يمنعك ؟

– آه . . أنت لاتعرف . . . قصة طويلة . .

وفكرت : لماذا لا أدعوها ان تأتي معي ؟ وخطر لي أن هذا سهل فقلت :

– هيا نذهب من هنا . .

– إلى أين ؟

وابتسمت بين دموعها وقالت :

– أنت صغير . . لو كنت كبيرا لذهبت معك . . صدق ذلك . . انني أكره هذا المكان ، أكرهه كثيرا ، ولكنني مضطرة إلى البقاء ، علي ديون ، ولا بيت لي في المدينة ، ولا أحد يقبلني عنده . .

– أهلي يقبلونك . . أمي طيبة جداً . .

– وماذا يفعلون بي . . . ؟

– تعيشين بيننا !

فداعبت وجنتي وقالت :

– أنت لطيف وبرىء . أنت لاتفهم ماذا يعني أن

أكون هنا وأدخل بيتكم . . أمك الطيبة لا تستطيع شيئاً ، وفي الحي سيعادونني ويعادونكم . . ولن أجد من يقبل أن أشتغل عنده ، لقد كتب علي . . كتب علي . .

وانهمرت دموعها من جديد ، ورأيت القطرات تسيل على وجنتيها وتتساقط على عنقها وثيابها . نهضت فوقفت إلى جانبها ، واحترت فيما أفعل ، وأمسكتها من يدها وأنا أقول :

— كفى . . لو كنت كبيرا . . أنا ذاهب . . أين فريق « الماسكوز » ؟

— ذهب باكرا . .

— أنت وحيدة ؟

— لا . . نام الجميع ومازالوا نائمين . .

— و لماذا لم تنامي مثلهم ؟

— لم يأتني نوم . . وكنت أنت على السرير ، وليس لدي فراش آخر .

فعبرت عن أسفي ، وقلت لها ان علي أن أسرع لأن أهلي يبحثون عني ولاشك ، ووعدت أن أزورها . .

لكنني أخلفت الوعد !

- ٩ -

أخفيت عن أمي ما جرى معي . اعتقدت أن تلك خطيئة لاتغتفر ، ليس لأني نمت خارج البيت وسببت لأهلي قلق ليلة كاملة فحسب ، بل لأنني تورطت وذهبت إلى المبغى ونمت فيه ، وخشيت أن يشاع ذلك عني فزعمت لصديقي فلفاط أنني قفلت راجعاً إلى البيت ، وأنني تفرجت على الكرنفال في المدينة إلى الصباح .

كان خوفي شديداً أن يسمع مدير المدرسة والمعلمات . ونذرت أن أصلي وأدعو الله أن يغفر ذنبي الذي تبت عنه ، ويوم الأحد أشعلت شمعة لأجل خلاص زينب ، وفكرت أنها ، كالبنات الأخريات ، ستعيش هناك في حسرة إلى الأهل والأخوة ، وعندما تموت ستدفن كما دفنت تلك الفتاة ، ولن يسير في جنازتها أحد ، وان رجالا من حينا الفقير سيحملون نعشها ، ولن توضع على قبرها زهرة ، ولن يزورها أيما مخلوق .

ولم أفاتح عبده في الموضوع . استعدت كلماته عن

فتيات المبغى وغيرت رأيي فيها . وجدت أنه على حق ،وتمنيت أن يتعرف على زينب ويتزوجها . بهذا وحده تخلص من شقاء تلك الحياة الضالة ، وتتاح لي فرصة زيارتها ، ولو تحقق ذلك لجمعت لها باقة من الورود ، كما جمعت لمعلمة المدرسة ،ولشعرت براحة لان نفساً معذبة قد أنقذت ، وعجبت لماذا لاينقذ الرجال هؤلاء البنات ، ما دام ذلك في وسعهم ، وقلت في نفسي : لو تزوج كل رجل فتاة من هناك لأغلق المبغى ، وصار مكانه حي نظيف للسكن ، وتطهّر النهر ، وزادت خضرة الأشجار . غير أني لم أقل لأحد شيئاً عن تلك الأفكار . وفي ذلك النهار ، وهو الإثنين وآخر أيام الكرنفال ، عثرت على صديقي فلفاط ، ولحقنا بفريق الحي ، في تلك المسيرة التي تقوم بها جميع الفرق الكرنفالية إلى « العين » عند خاصرة الجبل .

هنا كان منتزه المدينة في الربيع ، كما كان شاطىء البحر منتزهها في الصيف . و لم يكن الجبل سوى رابية عالية ، تتصل بسلسلة جبلية تذهب شرقاً ، تقوم عند سفحه البساتين ومنها بستان «كاتوني ». وكانت هناك غرفة من حجر ، فوق صخر ، ومن تحتها ينبع الماء الذي يتدفق في قناة اسمنتية

عريضة نسميها نهراً . ومن هذه القناة تتفرع مجاري المياه ، وفي طرف إحد المجاري « حاووظ » مربع طول ضلعه من خمسين إلى ستين متراً ، وعمقه أكثر من مترين ، انشئ لسقاية أحد البساتين ، كنا نذهب للسباحة فيه صيفاً ، وكثيراً ما طردنا الحارس اوألقى ثيابنا في الماء إذا داهمنا على حين غرة ، لذلك كنا نسبح وعيننا عليه ، فإذا رأيناه مقبلا من بعيد حملنا ثيابنا وركضنا عراة مسافة طويلة ، حتّى نأمن وصوله إلينا فنرتدي ثيابنا .

وكانت باحات كبيرة من الحشائش والخضرة تحيط بالعين ، من على جانبي الطريق الموصل إليها . وفي هذه الباحات بعض المقاهي التى تفتح ربيعاً وصيفاً وتغلق شتاء ، وكانت المرافع موعد افتتاحها المبكر . وموسمها الذي سيستمر حتّى الخريف .

يوم إثنين المرافع كانت المدينة تزحف إلى الجبل والعين والمنتزهات المحيطة بهما ، وكان الفقراء يمدون بسطاً على الأرض ، ويتناولون وجباتهم في الهواء الطلق . تحت الشمس إذا كان الربيع بارداً ، وفي فيء الأشجار اذا كانت الدنيا حراً ، وكانت المقاهي تمتلئ بالناس ، وإلى هذه المقاهي تأتي الفرق

التنكرية ، وكل فريق له مقهى ، كما لكل فريق في المدينة حي .

وكان المقهى الذي يرتاده أبناء حينا ، أو المقتدرون منهم ، على يمين الطريق الذاهب إلى الجبل ، وإلى هذا المقهى تبعنا فريقنا التنكري ، وقد أفسحت له حلقة بين الموائد للرقص ، وظل الطبل والزمر يعزفان ، والرقص مستمراً إلى ساعة متقدمة من الليل ، حيث بدأ الناس بالعودة إلى بيوتهم ، وعاد الفريق كمجموعة إلى بيت حسني ، ومنه تفرق معلناً إنتهاء الاحتفال ، لان في اليوم التالي يبدأ الصوم الكبير الذي يتلوه عيد الفصح .

خلال الصوم لاتقوم الأفراح في الحي ، ولا يتزوج الناس إلا بعد الفصح بأسبوع . كانت تلك إحدى الوصايا ، وكانت وصية محترمة لأن للكنيسة سلطة على الناس ، برغم أن الذي يديرها كاهن ، هو صاحب المطبعة الوحيدة في المدينة ، وهي مطبعة يدوية ، تطبع فيها جريدة « اللواء » وغيرها من المطبوعات الرسمية والتجارية .

ولقد عرفنا هذا العام عرساً من أطرف الأعراس ، اقيم يوم الأحد الذي تلا أحد الفصح ، وكانوا يسمونه

أحد البياض ، لان الناس يلبسون فيه الأبيض ، ويأكلون البيض المسلوق غير الملون .

كان في حينا رجل عجوز اسمه قسطنطين . وله أبناء يعتبرون من وجهاء الحي ، لأنهم يملكون بضعة « طنابر » لنقل الاحجار والرمل من الجبل إلى أحياء المدينة . ولقد انهدمت مرملة جبل العين على أحد أبنائه ، فكانت مناحة في الحي ،وغطست زوجه في السواد ،وضرب بها المثل في الحداد على زوجها .

وكان العجوز قسطنطين نجاراً ، يصنع الصناديق للأعراس و « النمليات » لحفظ الأطعمة ، وله ولد آخر ، غير أبنائه المتزوجين ، يسمى نيقولا ، من زوجته الأخيرة ، يعيش مع والده العجوز في كوخ يقع على الطرف الآخر من الحي .

نيقولا هذا كان رفيقنا في المدرسة ، برغم أنه يكبرنا بأعوام كثيرة . وكانت الشهادة الابتدائية تلك الأيام ، هي المرحلة الأخيرة من التحصيل في مدينة اسكندرونة . كانوا يسمونها « السرتفيكا » وقد عرفت ، في مدرسة الرشدية التى انتقلت إليها في أواخر دراستي الابتدائية ، رجلا متزوجاً اسمه حنيفة ، يداوم على المدرسة بعد أن تزوج وصار

له أولاد ، لأنه حتى تلك السن المتقدمة لم يكن قد استطاع الحصول على « السرتفيكا » .

ان نيقولا ابن العجوز قسطنطين ، كان يشبه حنيفة في تخلفه في الدراسة ، ولهذا وصل إلى مرحلة الشباب وهو لايزال في الصف الثالث الابتدائي . والسبب في تخلفه في الدراسة ، هو أنه أصم . كان لايسمع . وهذه العاهة كانت ترغم المعلم على أن يصرخ في أذنه ، مما يثير الضحك في الصف ، وقد كان نيقولا يتحمل عاهته بصبر ، ويفكر بالزواج قبل الحصول على السرتفيكا كما فعل حنيفة .

كنا نذهب معه عصراً إلى كوخ أبيه، وهناك نلعب في بيته الخالي من الأم والأب ، لان والدته متوفاة ووالده يكون غائباً عن البيت . وكان يحكي لنا الحكايات ، وهو أول من شرح لنا العلاقة بين الرجل والمرأة ، وسر الاتصال الجنسي ، وأثار ، قبل الأخوين فلفاط ، حواسنا الطفلية وهيج غرائزنا المبكرة بحكاياته الداعرة التى كان الأولاد يقبلون على سماعها بكثير من الشغف والحماسة .

كان نيقولا يحلم بامرأة بدينة . وليس ذلك لأن السمنة كانت من علامات الجمال في تلك الأيام فقط ، بل لانه ،

ببساطة ، يحب النساء البدينات ، وكان صدر المرأة مركز الجمال في نظره، ويقاس جمال هذا الصدر بكبر النهدين، ولهذا كانت حكاياته كلها تدور حول نساء لهن نهود كضروع البقر . كان يفتح راحتيه ويكورهما ويباعد بينهما وهويتحدث عن نهد من النهود . وكان أقل مقاس للنهد الجميل في نظره حجم البطيخة الحمراء المتوسطة .

انه ، على عاهته ، شبق إلى درجة المرض ، وعندما كان يشرع في الكلام عن النهود« البطيخية »يستثير فينا خيالا جامحاً إلى ملامسة نهد من هذا النوع ، وكان الأخوان فلفاط يستدرجانه إلى الكلام عما سيفعل ليلة العرس ، فكان يوغل في تفصيلات كثيرة مثيرة داعرة ، يبدأها وينهيها من النهدين. وفجأة انقطع نيقولا عن المدرسة . اعلن أنه سيتعلم مهنة النجارة ويعمل مع أبيه ، وبعد فترة اجتمع بنا نحن الأطفال في الباحة العشبية الخضراء ، وراء كوخ أبيه ، وأبلغنا أنه سيتزوج من فتاة لها نهدان ليس أكبر منهما بين نهود النساء في المدينة.

كانت هذه الفتاة يتيمة ، لاأحد يعرف لها والدين ، ولاهي تعرف والديها ، تربت عند نسيب لها فقير يسكن

حينا ، وعملت خادماً في بعض البيوت حين كبرت . لكهنا كانت تطرد من عملها بسرعة ، برغم أنها تعمل أكثر من رجل . كانت قوية البنية ، عريضة الكتفين ، رحبة الصدر ، مدورة الرأس والوجه ، لهاعينا باشق ، ونظرة مرحة لكن نافذة . وكان أهم مايميزها صدرها العامر بنهدين كبيري الحجم إلى درجة ملفتة للنظر وعيبها الوحيد، والأكبر أيضاً ، انها خرساء بكماء .

وحين انتشر في الحي أن نيقولا الاطرش سيتزوج من هذه الفتاة البكماء ، اعتبر ذلك نكتة العام . كانت الأحاديث حوله لاتنقطع ، والناس لايصدقون ، وحتى بعد أن ذهب والد نقولا وأخوه الأكبر عبده إلى نسيب الفتاة لخطبتها ، ظل الناس لايصدقون ، ثم أعلنت الخطبة فضحكوا ، ورأيناه لأول مرة يخرج معها بمفرده يوم الأحد الذي تلا الخطبة ، كان يلبس شروالا أسود ، فوقه سترة ، في جيب سيلتها منديل ابيض وثلاثة أقلام رصاصية بحبكات ، وعلى رأسه طربوش جديد ، ذو شرابة منفوشة ، وتحت السترة قميص أبيض ، مفتوح الياقة ، لان حينا لم يكن قد عرف ربطة العنق بعد.

ولقد تبعنا نقولا وخطيبته نحن الأطفال . قادنا إلى ذلك الأخوان فلفاط ، وقالا لنا ان نقولا هذا اذا خرج مع خطيبته إلى النزهة ، فسوف يختلي بها في مكان بعيد عن الأنظار ، بين الأشجار مثلا ، ويخرج نهديها من صدرها ويلعب بهما . وقد أغرتنا هذه الكلمات بمطاردة الخطيبين ورأينا اليهما وهما يتبادلان الحديث بالاشارات ، وضحكنا ، ولم يفلح المسكين بالتخلص منا فقفل عائداً إلى البيت . ولشد مارغبنا إليه أن يتحدث إلينا عما يفعل مع خطيبته إذا اختلى بها ، فكان ينتهرنا حيناً ، ويقسم أنه لا يفعل شيئاً حينا آخر ، ومللنا من مراقبته وملاحقته فتركناه إلى يوم الزواج .

في أحد البياض حدد موعد العرس . طاف شقيقه على البيوت يدعو أصحابها إلى حفلة الزفاف ، وكان الاقبال على هذه الحفلة كبيراً إلى درجة غير معتادة ، لان كل من في الحي كان يدفعه الفضول إلى رؤية أغرب عرس لأعجب عروسين.

اقيم العرس أمام بيت السيد عبده ، الشقيق الاكبر لنقولا الاطرش كما تقضي الأعراف في تكريم الاشقاء ؛ إضافة إلى أن الكوخ الذي يسكنه العجوز قسطنطين يقع في منخفض من الأرض،

وليس أمامه باحـــة صالحة لعرس ولده . وكان هذا القسم من الحي يقع على يسار الطريق العامة ، وهو في مرتفع بالنسبة للحي كله ، كأنه حصل على امتياز في ذلك . وكانت البلدية التي تنقل الأتربة والأحجار من جبل «العين»لتردم المستنقع ،قد توصلت ، خلال أعوام ، إلى ردم هذا الشريط المرتفع من الأرض ، ومن حظ نقولا أن العرس اقيم فيه .

كان المطر الذي تعاقب أعواماً قد رص التربة . وبقيت الأحجار في الباحة ، فقمنا نحن الأطفال بتنقية الأرض من الأحجار . وكان ذلك اسهامنا الوحيد في عرس زميلنا السابق . ويجب القول ان مثل هذا العمل الجماعي قد جلب لنا تسلية ومتعة . وجاء بعض الرجال فصفّوا الكراسي من حوالي الباحة ، وتقاطر المدعوون منذ الساعة الثانية بعد الظهر .

دميان الزمار كان يعمل حوذياً عند شقيق العريس . وقد أعفي بعد ظهر ذلك اليوم من عمله ، وخالي عبد الله كان في عطلته الاسبوعية . وهكذا كان التخت الموسيقي المؤلف منهما يقوم بمهمته منذ بعد الظهر .

وقد أقبل أهل الحي ، فجلست النساء على الكراسي المقابلة لصفوف الرجال ، وأخرجت العروس وهي تلبس فستاناً أزرق ياقته على شكل كرسي فاجلست في الصدر، وجلس العريس إلى جانبها ، واستدعي مصور شمسي ، لالتقاط صورة لهما ، فوضع كل منهما راحتيه مبسوطتين على ركبتيه ، ونصب ظهره وتخشب في وضع مستقيم ، فكانت هذه صورة العرس ، ثم بدأ الرقص، النساء أولا، والرجال بعد ذلك .

حوالي العصر حدث هرج ومرج في الحفلة ، واشرأبت الأعناق إلى الطريق العام ، ورأينا دميان الزمار وخالي عبد الله الطبال ينهضان عن مقعديهما ويمشيان باتجاه الطريق وهما يعزفان ، وقد تبعهما كثير من الرجال ، يتقدمهم والد العريس وشقيقه . كان القادم السرجان عبده ، وكان قدوم السرجان إلى عرس اوحفلة يعني شرفاً كبيراً ، نظراً لعلو «مكانته» لان الرتب الأعلى في الجيش كانت كلها وقفاً على الفرنسيين .

ولقد غمر الوالدة سرور كبير لمقدم قريبنا السرجان ، هذا الذي أنقذنا من مكافحة الجراد في قرية «الأكبر »

وعشق زنوبة التي قتلها الدرك ، وكان الوالد بين الرجال الذين استقبلوه برفع اليدين الإثنتين إلى الرأس ، ثم المصافحة والسير معه إلى أن اتخذ مجلسه في الصدر إلى جانب العروسين .

كان يلبس « السدارة » التي لايلبسها إلا الفرنسيون ويرتدي طقماً عسكرياً من « الكبردين » وله مهابة ، فهو لايتكلم إلا قليلا ، ولا يدخن أو يشرب الخمرة أو القهوة . وكان مشهوراً بقسوته التي هي طبيعة فيه ، برغم طيبته التي لاتظهر إلا في المواقف الحرجة . وكنت قد عرفت من الوالدة أن قريبنا السرجان يكاد يكون كامل الصفات لولاخصلتان فيه ، أولاهما أنه يحب النساء، والثانية أنه مقامر لدرجة المغامرة، وقد انفق كل دخله في القمار الذي كان فيه عنيفاً إلى حد أنه يلعب بأي مبلغ في جيبه ، ولا يتراجع أمام تحديات المقامرين من أي مستوى كانوا .

لقد خفته كثيراً في الصغر ، أما في الكبر فقد كان لي صديقاً ، وعندما ، بعد سنوات طوال ، دخلت السجن ، لقيني عند خروجي مرحباً . كان قد تقاعد ، وصار بائع حلويات ، وقد قال لي :

كيف وجدت السجن ؟» قلت : «إنه رهيب» « فقال : « أنت مازلت صغيراً وستألفه وتتعلم » وصمت قليلا وأضاف « السجن ليس رهيباً إلا بالسبب الذي تدخله لأجله » وفجأة سألني : «هل دخلته لأنك سرقت ؟ لأنك زنيت ؟لأنك قتلت؟»قلت : «ابدا ، انت تعرف السبب» قال : « إذن لماذا تقول أن السجن رهيب؟ تعلم أن على صاحب المبدأ أن يضحي ، والسجن أهون التضحيات . . كن رجلا . . وعندئذ لاترى الأشياء رهيبة » ثم دفع عربة حلوياته ومضى . . لكنه ، في المقابـــلات الأخرى ، تحدث معي عن النساء . . ولما رويت له احدى مغامراتي بانت الاستثارة في ملامحه وقال : « قص علي كل شيء بتفصيل . . . لماذا تخجل ؟ هل أنت بنت ؟ » وفرك ذقنه بأصابعه الثلاثة على عادته ولاحظ : « لاتكن مع النساء فظاً ولارخواً » وردد كمن يستعيد ذكرياته الخاصة « هل قلت لي أن جسمها جميل . . ؟ الوجه ليس كل شيء . . ان تضم جسماً أبيض، ملفوفاً ، حاراً ، فذلك هو الجنس . . وان تضع رأسك على سرة امرأة ذات بطن مدور ، وخصر منحوت ، طري ، وتسمع كلمات غريبة ، مغناجة ، فتلك هي المرأة . . . .

إنها الحياة . اسمع ما أقوله لك . ان لي في ذلك تجارب كثيرة »

وكنت كلما رأيته، أذكر حادثة زنوبة، وأقارن بينه وبين

والدي. كان كل منهما ماخورياً إلى حد الجنون، لكن والدي كان أجمل ، وكان لامبالياً ، فاسقا بصمت ، وليس في صدره قلب للهوى بل للشهوة .

وعندما أبصرته ، في ذلك العرس ، قلت في نفسي : « ماذا في هذا السرجان من شيء غير عادي حتى يستلفت النظر بهذا المقدار ؟ » ولكنه عندما دعي إلى الرقص اظهر أنه وحده يملك ذلك الشيء غير العادي .

كانوا يضعون أمام العازفين طاولة صغيرة عليها منديل أبيض ، لجمع « النقوط » وهي قروش قليلة توضع في أيدي النساء فيحملنها ويضعنها في المنديل ، وأما الرجال فكان « المنقطون »(١) يبللون القروش وأنصاف القروش ويلصقونها على جباههم ، فيجمعها الراقصون ويرمونها

(١) المنقط هو الذي يدفع النقوط للراقص او الراقصة من الحاضرين .

في المنديل ، وكلما زاد «النقط» لأحد الراقصين زاد العزف واشتد التصفيق علامة الاستحسان . وقد يسحب رجل ليرة ورقية ويشكلها تحت طربوش الراقص ، وهذه تكون للمفاخرة وإظهار الوجاهة والتقدير ، وعند انتهاء الرقصة يدفع صاحب الليرة أربعة قروش إلى العازفين ويستعيد ليرته ، وقد دعي السرجان للرقص ، وكانت مفاجأة لنا،أمي وأخوتي وأنا ، إنه أعلن على الملأ وبصوته الحاسم أنه سيرقص مع فليونته (١) التى هي أختي ، والتي كانت رفيقة طفولتي وتكبرني بعامين فقط . إن هذهاللفتة الكريمة من السرجان كانت فوق مانتوقعه : ولعله أراد بها أن يظهر للحي أنه قريبنا ، وأن يحذر الجميع من التعرض لنا بسوء ، وخاصة للوالد الذي كثيراً ما دخل في شجارات مع الآخرين اثناء السكر. وقد ارتبكت الأخت،واحمرت من الخجل ، ومانعت، لكن الأم،في فرحةطاغية،انهضتهاو دفعتها إلى حلبة الرقص . كانت صغيرة ، ودهشت انها تجيد الرقص ، ووقف العازفان احتراما للسرجان ، فلم يطللب منهما الجلوس .

---

(١) الفليونة هي الأبنة في المعمودية .

أبقاهما واقفين ، ورأيت خالي يهمس في إذن دميان الزمار شيئاً ، فتورمت اوداجه ونفرت عروقه لشدة النفخ ، وقوي ضرب خالي على دربكته واشتد ، وتعالى التصفيق مرفوقاً بزغردات النساء ، وسمعت أمي تزغرد ، فانتشيت وتباهيت ، وتقدمت مع الأولاد بين صفوف الكراسي حتى صرنا على حافة الحلبة .

كنت أجهل حتى ذلك اليوم أن السرجان يرقص . ما كنت أقدر أنه يخرج عن وقاره فيفعل كالآخرين . ولقد دهشت كما دهش الآخرون لرقصه . وقالت لي أمي بعد ذلك ان قريبنا السرجان راقص ماهر ، وانه كان نداً في الرقص لـ « كاترين الحلوة » في مرسين ، وان هذه كانت فاتنة الرجال . وكانت عشيقة خالي رزق الله وهو الذي بسط عليها حمايته ومنع عنها كل « قبضايات » الأحياء . وبعد موته لم تستطع البقاء في مرسين فهاجرت إلى مصر . وصارت هناك راقصة مشهورة .

وبرغم صغر سني ، استطعت في ذلك اليوم أن أميز

بين رفع الأيدي وتحريك الرجلين وبين الرقص الحقيقي، الفني، ذي القواعد والأصول ، والذي تختلج معه كل عضلة في البدن ، كان السرجان عبده ، الذي نزع السدارة عن رأسه وألقاها على مقعده ، قد صار في باحة الرقص غير ما كنت أعرفه . وجهه تغير ، وعيناه ومضتا ، وقدماه استقامتا مشدودتين كأنه يؤدي حركات تعبيرية تدرب عليها طويلا . ولقد رأيته في بدء الرقص ، ينظر إلى العازفين ، عبوساً ويشير بيده. كان العزف دون المستوى ، وفيه نشاز على ما يبدو ، وبيده أشار إشارات معينة ، كأنه « مايسترو» يضبط الإيقاع ، وسمعت الخال ينتهر الزمار . كانت معزوفة « الدقة والنصف » التي يرقص عليها تحتاج إلى مهارة في التوقيع ، وهي تبدأ بطيئة ثم تتسارع ، وكان الزمار في حرج ، لكن مهارة الخال أنقذت الموقف ، وأشار السرجان بيده موافقاً ، وعندئذ بان الإرتياح على وجه الخال ، وقاد الرقصة ، كضابط ايقاع قديم ، رقصت « كاترين الحلوة » ذاتها على ايقاعاته . وجعل السرجان يلا مس الأرض بقدميه ، ويقفز برشاقة ، متجاوباً مع الإيقاع ، ويفرد ساعديه ويطويهما ، في حركات غاية في التوافق والاتقان .

انهالت « النقوط » على السرجان ، لم يبق رجل إلا وقام بالواجب . حتى الوالدان الفقيران فعلا ذلك . وكان حظ الأخت أقل . لقد دفعوا إليها بعض القروش ، اما السرجان فقد امتلأت كفاه وكان يتناول النقوط بيديه ولايسمح لأحد بأن يلصق القروش على جبهته ، ونقطه بعض الرجال بليرات سورية وشقيق العريس ، عبده ، نقطه بليرة ذهبية ، وكانت القطعة الوحيدة التي سمح بأن تلصق على جبينه ، وبعد ذلك ، في هنيهة حاسمة من الرقصة ، فعل السرجان ذلك الشيء المتميز الذي أدهش الجميع . من جيب سترته العسكرية الطويلة ، أخرج قبضة من النقود . ليرات وأنصاف ليرات فضية كثيرة لامعة ، لعله ربحها في القمار تلك الليلة ، ولعله استعد لها فجمعها في جيبه ، وسار بها إلى الأخت ، ونثرها على رأسها ، وتركها تتساقط وتتدحرج في أرض الباحة ، بل أجاز للأولاد أن يدخلوا حلبة الرقص ويلتقطوها. لقد فاز كثير منهم بقطع لم يحلموا بها يوما ، وفزت أنا بنصف ليرة فضية ، هي أول قطعة من هذا النوع تقع في يدي ، وفاز الأخوان فلفاط ببضع قطع ، وصرخ الخال بالأولاد منتهراً ، لأن هذه النقود من حصة العازفين ، غير أن السرجان زجره بحركة من يده . وفي نفس اللحظة ،

أخرج ليرة ذهبية من جيب بنطاله ،ولوح بها في الهواء،
والتقطها وقذفها إلى منديل العازفين ، وعندئذ جنت الباحة
بالتصفيق ، وتقدم السرجان وأمسك يد الأخت ، قبل
أن يدور دورته الختامية وينهي الرقصة .
وقد كانت حركته هذه ، أول تحية كبيرة تتلقاها
عائلتنا الفقيرة المسكينة في تاريخ تشردها وبؤسها الطويل ،
ورأيت الدموع في عيني الوالدة سعادة وعرفانا بالجميل .

وقال الناس عن العرس إنه جميل ، وإن ماحدث فيه
لم يكن متوقعاً ، غير أن العرس كافأ المدعوين بمشهد آخر ،
طريف هذه المرة ، ارضى الفضول الذي دفع كل هذا
الحشد الى حضور اغرب زواج بين اطرش وبكماء .

ذلك انعبدهشقيق العريس ، وهو احمق رغم وجاهته،
تقدم باقتراح قصد به الى اظهار ان الاشياء سوية تماماً في
هذا الزواج الميمون . ولقد لوحظ ان اقتراحه ، قبل أن يبلغ
المدعوين ، اثار معارضة زوجه وبعض اقرباء العروسين ،
لهذا تنبه الناس الى الضجة الجارية واتسعت دائرة المشاورات
ودائرة المعارضة لكن عبده تمسك برأيه ، وابلغه إلى العازفين
لكي يستعدا .

كانت العادة قد جرت على أن يرقص العروسان في ختام حفلة العرس ، وكان هذا ، من وجهة نظر العازفين ، امراً لا بد منه ، لأن النقوط التي تأتي للعريسين تشكل مبلغاً محترماً ، يعول عليه في أجر (التخت الموسيقي) الذي لا يتقاضى سواه ، إلا أن العازفين لم يتمسكا ؛ في هذا العرس ، بهذه النقطة ، نظراً لطرش الزوجين السعيدين ، وأمام اصرار شقيق العريس ، تقرر أن يرقص العروسان ، فانتشرت في صفوف الحاضرين الهمسات والابتسامات ، وتهيأ الجمع لشهود اطرف مافي الحفلة كله.

نهض العريس ووقف في الباحة . وجاءت امرأة من القريبات فدعت العروس إلى الرقص . دعتها بالاشارة وردت العروس رافضة بالاشارة أيضاً . واشرأبت الاعناق لرؤية « حوار الطرشان » هذا ، مع الرغبة المستترة في أن ترغم العروس على الرقص ليكتمل الفرح في معاينة الفصل الختامي للملهاة الدائرة .

وعندما ارغمت العروس على النهوض سرى الارتياح في الحضور مقرونا بالابتسام والضحك وضجة غير اعتيادية وعزف« التخت الموسيقي » المعزوفة المعتادة بهذه المناسبة ، وظل العريسان يحدق احدهما في الآخر دون أن يدريا

ما يفعلان . انهما لا يسمعان الموسيقي ، ولا يبلغهما الايقاع والتصفيق ، وقد احتارا كيف يتحركان ، وأشار البعض إلى العريس أن يحرك يديه ، فرفعهما في الهواء ، وحرك قدميه كيفما اتفق ، وظلت العروس جامدة ، وهي تبتسم ابتسامة بلهاء . وتطوعت إمرأة فأشارت إليها أن تتحرك مثلما يفعل عريسها ، وردت الزوجة الخرساء باشارة من يديها أنها لا تستطيع ، وسرى المرح في الجمع ، وسمعت ضحكات وقهقات ، ولاحظت العروس كل ذلك فاغتمت وتقهقرت لتعود إلى مقعدها ، غير أن شقيق العريس ، صاحب الاقتراح ، منعها من الجلوس ، ودفعها إلى الباحة طالباً منها باشارة زاجرة أن ترقص ، وهكذا اضطرت إلى رفع يديها والخبط على الأرض بقدميها ، في حركات لا تتوافق مع الايقاع ، مما جعل الكل يغرقون في الضحك علانية .

لقد رقص العروسان نزولا عند رغبة الآخرين . وربما كان العريس، في اندفاعة الشهوة التي ملكت عليه حواسه لمداعبة النهدين الكبيرين ، أقل تأثرا بوقع المفارقة . لكن العروس،وهي تدرك مدى المأساة ، وترى الناس يضحكون، قد تألمت بصمت ، وخبطت الأرض بقدميها في نوع من الاحتجاج على هذا التعذيب اللاانساني . إن الارادة العمياء

للتباهي، والرغبة في المتعة ولو على حساب ألم الآخرين، هما اللتان دفعتا إلى هذا العمل الذي بدا منغصا للوالدة. وقد قالت بعد رجوعنا من العرس إنه من غير الجائز أن نجعل الآخرين هزأة لنا، وإن هذا الزواج، ولو أنه ستر فتاة فقيرة ويتيمة، لكنه مصيبة لكلا العروسين، فكيف سينشئان أولادهما؟ وكيف سيتعلم هؤلاء الأولاد الكلام مع والدين اطرشين؟

وقد صحت نبوءة الوالدة، فبعد عامين رزق نقولا وزوجه مولودا، ولأنهما فقيران فقد كانا ينامان في فراش واحد مع الطفل، ويبدو ان الأم قد انقلبت في الفراش ليلا، وجاء جنبها على الرضيع الذي بكى ولم تسمعه، وهذا ما ادى الى اختناقه، فانتشر الخبر في الحي ذات صباح ان ان الطفل مات، وقالت الأم: «من الافضل لهما الا ينجبا اطفالا بعد الآن.»

ولم ينجبا اطفالا بعد ذلك، لان نقولا مات قتيلا في احدى الليالي، عندما فاجأه زوج مع زوجته في فراش واحد. وكان هذا اول حادث حب في الحي، يذهب ضحيته

رجل لم يكن في ظن احد انه سيكون شهيد غرام في يوم من الايام .

وكل ماعرف من اسرار هذه الحادثة . ان المرأة كانت ذات نهدين كبيرين جدا .



— ١٠ —

أغلقت المدرسة في الصيف ، وانطلقنا نلهو حفاة في تراب وأقذار الحي ، وكثر ترددنا على مكان القمامة الواقع على الرابية القريبة ، حيث يربي الخواجه اسكندر خنازيره . كنا ننبش فيها لنعثر على بعض الاشياء العتيقة ، وعلى زجاجات فارغة ، نحملها الى البيت او نذهب فنبيعها باغراء من الاخوين فلفاط ونشتري بثمنها سكاكر او فواكه او رغيفاً من الخبز وقطعة من الجبن نأكلها .

كنا متشردين حقيقيين ، ننطلق من الصباح فلا نعود الا في المساء ، وكانت الوالدة تغضب لسلوكي هذا ، وكم وعدتها بالكف عنه ، ثم اخلفت لانني لااستطيع البقاء في البيت والافتراق عن لداتي الذين يقومون بمثل هذه الشقاوات طيلة النهار .

ولقد تعلمت ان اجمع نوى المشمش مثلهم ، فنحن ننطلق في الاسواق ، وننبش في القمامات امام البيوت ، ونتسكع في

الطرقات ، ثم نعود الى الحي فنقامر على ماجمعنا ، وكنا نصنع كرة من قطع القماش ، نلعب بها كرة القدم ، او نذهب الى البساتين لسرقة الفاكهة ، وكان الاخوان فلفاط زعيمين لنا في كل ذلك .

كذلك صنعنا « النقافات » لاصطياد العصافير ، وكان اولاد ديب اكثرنا براعة في الرماية بها ،وقد توصلوا الى اصطياد عصافير كثيرة ، ولم يبق طفل في الحي الا فاز بعصفور او اكثر ، الا انا فقد اخفقت في اصطياد أي عصفور ، وكان هذا مبعث حزن لي ، برغم ان رؤية العصفور وهو يتهاوى من الشجرة مكسور الجناح او مبقور البطن بفعل الحجر الذي اصابه كان يؤلمني ويجعلني آسف لعدم استطاعتي اقناع الرفقة في الاقلاع عن صيد العصافير اللطيفة بهذه الطريقة التي ليس فيهاسوى التربص بالعصفور والغدر به على نحو مؤلم .

المرة الوحيدة التي اصطدت فيها عصفورا ، في حياتي كلها ، كانت في طفولتي المبكرة ، فقد اشترت لي أمي في قرية « الأكبر » فخا حديدياً مما ينصب في البراري لاصطياد العصافير ، وعلمتني « زنوبة » كيف استعمله ، وأرشدتني إلى مكان ملائم تحت زيتونات قريبة من بستانها ، يصلح لذلك .

شرعت في نصب الفخ . كنت أفرك التربة وأنخلها حتى تتحصل لي كومة من التراب الناعم أغطي به الحديد لخدع العصافير . وأنبش الأرض عن دودة أجعلها طعماً ، وأذهب فأقف بعيداً بانتظار أن تهبط العصافير من الشجرة وتعلق في الفخ .

ولقد انتظرت طويلا ، في البرد والريح . وعدت إلى البيت والحقل ، وداومت على ذلك أياما فلم يعلق عصفور واحد في فخي . ويبدو أن العصافير نفسها أشفقت علي ، فقرر واحد منها أن يكون الضحية ارضاء لي أنا الطفل الصغير المتلهف إلى اصطياد عصفور والفرح به . وهكذا ، في الأصيل من أحد الأيام ، عدت إلى حيث طمرت الفخ فوجدت مكانه خالياً . فرحت لمجرد أن الفخ ليس في مكانه . معنى هذا أن عصفورا ما قد وقع عليه ، ولكنني خشيت أن يكون عصفورا كبيرا حمله في رجله وطار ، فرحت أركض هنا وهناك ، بين المدرات والأشواك ، حتى عثرت على « دوري » عالق في الفخ ، وقد جره برجله إلى أن اصطدم بمدرة ، وراح العصفور يقاوم حتى كسرت رجله وسال منها الدم .

كانت فرحتي بهذا التوفيق من أندر ما عرفت من

فرح ، أنا لاأذكر بهجة غمرتني كتلك البهجة ، فرحت أعدو راجعاً إلى البيت ، قابضاً على العصفور ، صائحاً من بعيد كأنني عثرت على كنز .

اقترحت الوالدة أن نذبح العصفور الذي لا أمل في شفائه ، لتنتفه وتشويه لي فرفضت . حرصت على ابقائه حياً ، وعلى أن تراه زنوبه والوالد وجارتنا العجوز ، ولم توفق الوالدة إلى اقناعي بأن رجل العصفور مكسورة ، وأنه يتألم ، وأنها ستسمح لي بتربية واحد آخر اذا ما اصطدته سليماً .
ربطته بخيط في رجله السليمة ، ودققت وتداً في أرض البيت ربطت الخيط فيه ، وعدت إلى الزيتونة لأنصب الفخ تحتها ، فلما رجعت انطنط من الفرح ، كانت الوالدة كئيبة وطرف الخيط فارغاً ، ولا زقزقة في البيت ، لقد غافلت قطتنا الوالدة ووثبت على العصفور فأكلته .

هذا الدوري الصغير ، كان صيدي الوحيد طوال حياتي . لقد حز في نفسي دائماً ألا أستطيع الصيد في «النقافة» كباقي الأولاد ، ولطالما جلست تحت أشجار التين ، أترقب أن تحط عليهاالعصافير ، وعندما كانت تفعل ، كنت أضع حصاة في النقافة وأشدها إلى درجة التوتر واطلق ، لكن تصويبي كان خائباً ابداً ، فلم يصب أي عصفور ، واني

لسعيد بذلك الآن . فلست أرغب في أن تكون العصفير الجميلة قد ماتت على يدي هذه الميتة القاسية .

كذلك لم أعرف الصيد بالبندقية . لم يكن للوالد بندقية ولم يعرف هواية صيد العصافير . بل لم يعرف ايما هواية في حياته . وعندما كبرت لم أشتر واحدة ، لأن سبل الحياة القاسية قادتني مبكراً في منعطفات البحث عن الرغيف ، ولم تدع لي وقتاً أنفقه في اللهو أوصيد العصافير .

في هذا الصيف عمل الوالد في بيع « الليمونادة » . ادعى أن الحلويات تكسد في الحر ، ومن الأفضل أن يبيع المرطبات. كان ذلك يحتاج إلى رأسمال ، فذهب إلى البيت الذي تعمل فيه الأخت وأخذ سلفة من اجرتها كعادته . واشترى « قطرميزاً » من الزجاج . واصطنع له في السوق مايشبه القميص من السيور الجلدية ، وصار يعلقه في رقبته ويذهب إلى بيع الشراب في الأسواق . وعندما اصطدم القطرميز ذات يوم بما لست أدري وانكسر ، عدل عنه إلى سطلين من « الشنكو » وصار يبيع المرطبات فيهما .

كان يحضر كمية من الليمون الحامض ويقطعها إلى شقف صغيرة ، ويفركها بالسكر . ويعصرها ، ثم يصفيها بخرقة من الشاش ، بعد أن يضيف اليها ملء السطل من الماء .

والسطل الآخر خصصه لبيع « العيران » وهو مصل اللبن الذي خض ورفعت زبدته . وقد سارت أموره على مايرام لمدة اسبوعين أوأكثر ، وفجأة جاء من يحدثه عن الذهاب إلى بيروت ، حيث بيع المرطبات يدر أرباحاً طائلة كما زعم .

كان استعداد الوالد الدائم للرحيل يعطيه المبرر الجاهز لتلبية أية دعوة من هذا النوع . وكان استقراره مع العائلة في اسكندرونة موضع فرحة الوالدة واستغرابها ، لكنها لم تكن تغفل عن بوادر امتعاضه الدائم ، وترى فيها نذرا على النزوع إلى الرحيل في أول فرصة . وعندما حدثه ذلك الرجل عن بيروت والحياة والربح فيها ، عاد إلى البيت ظهرا ليبلغ الوالدة أنه راحل إلى حيث يستطيع الكسب وادخار بعض المال للشتاء . وعبثاً حاولت الوالدة اقناعه بالبقاء ، فقد زعم أن بيع المرطبات في كساد ، وأن بائعي المرطبات من الكثرة بحيث لايستطيع بيع سطل واحد في النهار ، برغم انه يطوف الأسواق والأحياء من الصباح إلى المساء . عندئذ اقترحت عليه الوالدة أن يعمل في المرفأ ، أو في أي مكان آخر ، فانتهرها معلنا أنه ليس من شغل ، وأن نصف عمال المرفأ عاطلون عن العمل .

هكذا ، بعد أيام ، أخذ السطلين وعدة بيع المرطبات وسافر إلى بيروت ، تاركاً العائلة في حاجة إلى اللقمة . وقد

استدانت الوالدة بعد سفره بعض المال ، ثم رهنت « الدست » مقابل ربع مجيدي ، وانتهت إلى حال من الاملاق والحاجة بحيث لم يبق أمامها سوى التسول .

كنت ألاحظ الضائقة الشديدة التي نحن فيها ، وقد حاولت الصبر على الجوع ، وعدم مطالبة الأم بالطعام ، ونمنا ليلة بغير عشاء ، فلما كان اليوم التالي ، ذهبت العب مع الأولاد ، ورأيت في يد أحدهم نصف رغيف من الخبز احسست لرؤيته أن معدتي الخاوية تتقلص ،وأن بدني يصرخ في طلب لقمة واحدة من الخبز تسكت جوعي الذي بدأ يفري امعائي ، لكنني قاومت ، وظللت مستندا إلى الجدار أحدق بالطفل الذي يأكل ، وأصارع في نفسي تيارين : احدهما يدعوني إلى طلب كسرة الخبز ، ولو على حساب كرامتي ، والآخر يزجرني عن هذه الفعلة التي لاتليق بي كما تقول والدتي .

كنت ، منذ الصباح ، قد ذهبت أنبش في المزبلة التي على الرابية ، ورغم مزاحمتي الخنازير لم أعثر على أي شيء . كانت القمامة قد أفرغت في منتصف الليل ، وأتت الخنازير على كل ما فيها ، ولم انتفع من بحثي الطويل ، فعدت أدراجي إلى الحي ، وصادفت ذلك الولد الذي يأكل نصف رغيف الخبز .

ظهري إلى الجدار ووجهي اليه . في عيني رغبة لاتقاوم إلى كسرة خبز ، أوإلى شم رائحته على الأقل . كان الولد يأكل وهو ينظر إلي بغير مبالاة . كان أصغر من أن يفهم حاجتي ، ومن السذاجة بحيث فاتته النظرة المتوسلة التي ترسلها عيناي باتجاهه . كان نظري يتابع بانتباه يقوى في كل لحظة ، حركة يديه وهما تقسمان الخبز ، وفمه وهو يمضغ اللقمة ، وشفتيه وهما تتحركان .

صارت الآن قطعة الخبز أعز ما في الوجود . صارت الوجود ذاته ، وتراخى جسدي على الجدار ، في تهالك تحول إلى دوار ، ومال لون الشمس إلى شحوب ، وتراقصت امام ناظري كرات رمادية ، وماع الفضاء حتى كأن الأرض تغوربي ، واغبر الضوء ، وتماوجت ذراته وتداخلت ، واحسست بوهن في ركبتي ، ولم استطع أن احول ناظري عن الطفل الذي يأكل الخبز .

على غير ارادة مني ، وبهزة قسرية من رأسي، أومأت اليه طالبا قطعة خبز ، وعندئذ صاح الطفل بأعلى صوته ، منادياً الأولاد أن يأتوا ويروا إلى هذا الشحاذ الصغير ، وتراكض الأولاد إلي ، وجعلوا يتحلقون حولي ضاحكين.

سألني أحدهم :

— هل صحيح أنك شحذت منه قطعة خبز ؟

ولم اجب . كان صوتي قد احتبس في حلقي ، وتكسرت على صدري رياح لاصوت لها ، أشبه بمدى حادة ، واتسعت حدقة الشمس ورنت إلي بهزء مقيت بالغ .نسيت جوعي وطغى علي شعور بالعار سربلني ، وحقدت على الطفل الذي استعطفته بكل تلك النظرات الفارغة النهمة التي تعبر عن جوعي وأملي .

كان هذا أول موقف مذل لي في المدينة ، وكان الطفل الذي حمل إلي رغيف الخبز في قرية « الأكبر » أكرم من هذا الطفل المديني الذي شهّر بي . لعله لم يعرف الجوع لذلك لم يقدر ما أنا فيه . وكمن ارتكب ذنباً بشعاً ، عجزت عن الدفاع عن نفسي . لم أشأ أن أقول للأطفال انني جائع ، وانه ليس في بيتنا طعام. كان هذا شيئاً يخصني وحدي . كان عارا في نظري ، وقد أخفيته ، وبقيت لصيق الجدار ، مسبل الجفون من هوان وانكسار ، منكمشا كمن ضبط في جرم ، وهو في حلقة من الناس بانتظار الشرطة التي ستقبض عليه .

ظللت كذلك حتى أرضى الأولاد حاجتهم إلى السخرية بي فتفرقوا ، وعندئذ هربت إلى البيت ، وبكيت بدموع

غزيرة دون أن أقول السبب لوالدتي .

بعد شهر عاد الوالد من رحلته . كان مخفقاً كعادته ، وقد باع أغراضه وثيابه حتى رجع ، وأعلم الوالدة أنه لم يصل بيروت ، لأن رجلا خدعه فزين له أن يعمل في طرابلس ، وقد نزل في البدء عند بعض معارفه ، ثم استأجر مع آخرين غرفة صغيرة كان يدفع أجرها أسبوعياً ، ولما كسدت مرطباته وضاقت به الحال باع العدة والجاكيت . ودفع أجرة السفر من طرابلس إلى اسكندرونه ، فوصل سالماً ولكن مفلساً .

لم تقل الوالدة شيئاً . كانت تعرف أن الكلام لايفيد ، وإذا كنا قد بقينا جياعاً عدة أيام ، ريثما تدبرت أمرها بعمل ونقود ، فإننا كنا في المدينة على كل حال ، وكان الخوف الذي نستشعره في الريف عند رحيله غير وارد هنا ، وهذا ماخفف من وطأة غيابه وإخفاقه كليهما .

أعلن الوالد ، في اليوم التالي ، أنه سيعمل شغيلا في شركة الكهرباء التي يملكها السيد دومولان . وكانت هذه الشركة هي التي تزود المدينة بالكهرباء ، وتعمل محركاتها على الحطب بدل الوقود ، وقد كانت شركة استثمارية رهيبة ، تقع على مدخل المدينة ، قريباً من حينا ، ويعمل

فيها بعض الذين للوالد معرفة بهم ، ولهذا ذهب يرجوهم أن يساعدوه في قبوله عامل بناء في الورشة الجديدة التي تبنيها الشركة .

نمنا على رجاء أن يقبل الوالد في العمل ، وفي الصباح ركضت إلى أمام مبنى الشركة ، حيث كان عشرات من العمال من حينا والأحياء الأخرى ينتظرون حضور السيد دومولان لانتقاء العدد الذي يحتاجه . وكانت الوالدة قد أوصت الوالد أن يظل في الصف الأمامي ، لتقع عليه عين السيد دومولان مباشرة ، لكن العمال ، منذ وصول هذا الأخير في سيارته « اللندونيه » تراكضوا حوله ، وأحاطوا به ، فراح يصرخ بهم ويشتمهم بالفرنسية ، وجاء بعض موظفي الشركة وأبعدوهم عنه ، ودخل صاحب الشركة باب مكتبه مغضباً ، وظل الجميع واجمين بانتظار خروجه .

كانت الأزمة قد بدأت في أوربا ، وقد انعكست ظلالها على الحياة في سورية ، وخاصة في الموانىء التي توقف فيها العمل تقريباً ، بسبب قلة الواردات والصادرات ، وراح مئات وألوف العمال يلوبون في الأسواق بحثاً عن ايما عمل يدر عليهم قروشاً لشراء الخبز .

وكان السيد دومولان يعرف هذه الحقيقة ، لذلك أعلن

بواسطة موظف في الشركة ، ترجم كلامه إلى العربية ، أن أجرة العامل في اليوم أربعة قروش ، والعمل من السادسة صباحاً إلى السادسة مساء ، ورغم الهمهمة التي انتشرت بين العمال لهذا الإعلان الجائر ، ورغم الاستنكار وشتم « الكريزة » التي تسببت في بطالة الناس ، فانهم أقبلوا على صاحب الشركة يتدافعون ، وكل منهم يأمل أن يفوز بالعمل .

أمر السيد دومولان أن يصطف الجميع في حلقة مستديرة واسعة ففعلوا ، ودخل هو إلى وسط الحلقة ومعه كاتب من موظفيه ، وجعل ينتقي العمال ويدون الكاتب أسماءهم. كان العمل شاقاً ، وعلى العامل أن يرفع الحجارة والرمل والبحص إلى الطابق الثاني ، ولهذا ينبغي أن يكون من الأقوياء ، ولذلك انتقى السيد دومولان الشباب من بين الموجودين ، وبعد أن دون الكاتب أسماء عشرة منهم ، أعلن الإكتفاء وطلب من الموجودين الإنصراف من باحة الشركة .

لم يقبل الوالد في العمل . كانت سنه قد تجاوزت مرحلة الشباب ، وعبثاً ذهبت صلوات أمي وتضرعاتي ، ورأيناه يخرج من الصفوف ويعود إلينا كسيفا ، أما الآخرون فقد

تريثوا قليلا على أمل أن تطلب الشركة عمالا آخرين ، وعندما يئسوا ذهبوا فاقتعدوا الحشائش في الحديقة العامة القريبة ، وراحوا يتحدثون عن « الكريزة » التي سيفقد من جرائها كل الناس أعمالهم ، ويشتمون فرنسا والحكومة والمستشار والدنيا ، وقد احمرت عيونهم من غضب وتوترت أعصابهم من قهر .

عاد معنا الوالد إلى البيت . ضاع الأمل الذي علقه على الشغل في الشركة ، ولم تنفع وساطة معارفه فيها ، وليس في وسعه أن يعود إلى بيع المرطبات بعد أن باع العدة في طرابلس ، وجلسنا في المساء صامتين ، على الحصير التي مدتها الوالدة أمام الباب ، ولم يقل الوالد شيئاً ، إنه يفكر بأمر ما ، وكان تفكيره في مثل هذه الحال ، موضع ريبة الأم وخوفها ، لأنها تعتقد أنه سيرحل من جديد .

في الغد انكشف ما كان يفكر فيه الوالد .انه لم يرحل، ولكنه باع بعض أغراض البيت . كان يبيع هذه الأغراض بسهولة عجيبة وبثمن بخس . يأخذها من البيت خفية ، ويمضي بها إلى السوق فيعرضها كمسروقات يرغب في تدفيرها لقاء أي مبلغ ، . وقد اكتشفت الوالدة فعلته عندما بحثت عن الحرامات فلم تجدها ، وسألته عنها

فأنكر ، زاعماً أن يداً غريبة امتدت إليها فسرقتها . لم تصدق طبعاً . كانت تعرف طبعه ، وتعرف أنه هو وحده الذي يمكن أن يقدم على فعلة كهذه . وعندما اشتبكت معه في سجار انتهرها وضربها امامنا . حتى كادت تصدق أنه لم يفعل ذلك . لولا أن جارا لنا ، ابلغ الوالدة أنه رأى زوجها يحمل أشياء في كيس خيشي ، ويذهب بها إلى السوق ، وعندما واجهته بهذه الحقيقة اعترف ، وقال انه لايستطيع البقاء دون عمل . وأنه سيعمل بائعاً متجولا في القرى .

ولم تكن الوالدة تطمع بأكثر من هذا الإعتراف . كانت تصر عليه كأنما لتبرىء ذمة الآخرين .أو لتتأكد أن ليس ثمة لصوص دخلوا بيتنا . وبعد ذلك تصمت لأنه لا أمل في إرجاع المبيعات . ولاأمل كذلك في صرف الوالد عن هذه العادة الذميمة التي ستلازمه طوال حياته . ولكم رأيتها تشكو ، ولكم رأيتها تبكي ، ولكم سمعتها تقول : « حرامي البيت لايمكن انتظاره ولا مراقبته ، فهو يسرق في أية لحظة تتاح له فيها السرقة » فيسألها الوالد وقد استبد به الغضب : « هل أنا سارق إذن ؟ » وتقول له : « كيف ترى ؟ من أخذ الأغراض

وباعها سواك ؟ » ويرد عليها بعصبية : « هذه أغراض بيتي ، وأنا حر التصرف بها » ، وتجيبه : « لو تعبت في جمع ثمنها وشرائها لم تبعها » ويقول : « من اشتراها إذن ، اتيت بثمنها من بيت أبيك ؟ » وترد عليه باكية : «إنما هي من تعبي وتعب بناتي ، نحن نخدم ونشقى ونشتري للبيت مايلزمه وأنت تبيع ... إنك لاتشفق علينا ، لاترحمنا ، ولاتقلع عن السكر ، ولا تثبت في عمل . . . أنت لست رجلا كالآخرين . وعندئذ يهجم عليها ويضربها صائحاً : « أنا لست رجلا ، أنا مره ، أنت الرجل وأنا المره ولذلك لاأفلح » .

وكنت أشهد هذا الشجار ، وأسمع الكلمات المتبادلة بين الوالدين ، وأركض إلى الباب فأغلقه كي لايسمع الجيران ، وكنت أفكر : « لماذا ، يا الله ، اعطيتني والدا كهذا الوالد ؟ هل ذلك لتعذب أمي ؟ ومتى تهديه وتجعله يتوب عن السكر وبيع أغراض البيت والرحيل ؟ » ولم أكن أخرج من تفكيراتي وتساؤلاتي بشيء . كان يخيل إلي أن الوالد إنسان سيء بخلاف والدتي الطيبة . وكنت أتمنى لو لم تتعرف به و لم تتزوجه ولم

نأت نحن إلى هذه الدنيا . وعلى شدة إعجابي بخالي فإني كنت ألومه في قرارة نفسي لأنه رضي بتزويج أخته من الوالد . ولم أكن أفاتح الوالدة بكل هذه الخواطر ، لأنها ستنتهرني قائلة انه ليس من حق الابن أن يفكر بأبيه على هذا النحو . إن الله يرانا ، وهو يعرف حالنا ، وقد كتب علينا أن نعيش كما نعيش ، فلماذا الإعتراض على حكمة الله ؟

ولم أكن أخالف الوالدة ، لكنني لم أكن أتوصل إلى سر الحكمة التي تجعل الوالد على هذا النحو . كان الجيران في مثل حالنا تقريباً ، إن الفقر كان طابع الحي ، وفي أيام الأزمة تلك صار طابع المدينة كلها تقريباً ، لكن الرجال من جيراننا لايسكرون ولايرحلون ، وإذا عملوا في مكان ما ثبتوا فيه قليلا ، بخلاف الوالد الذي ينتقل من عمل خاسر إلى عمل أكثر خسارة ، وهذا كله مادفعني إلى استشعار نوع من عتب على « الحكمة » التي تتحدث عنها الوالدة وعدم قناعتي بها .

وجاء الوالد ، في الأيام التالية ، ببضاعته التى سيبيعها في القرى . كانت تتألف من إبر وخيطان وحنة وأمشاط وأساور زجاجية وبهار وكمون وأشياء من هذا القبيل.

يضاف إليها اللبان الذي هو عبارة عن مسكة حلبية تمضغ علكا واحضر بعض الجرائد فجعلها قصاصات ، وطلب منا أن نصر تلك المسكة التي قطعها قطعاً صغيرة في تلك الأوراق ، وكذلك فعل بالبهار والكمون وحمض الليمون والشبة ، وصررنا كل ذلك في أوراق ، وضعها في أكياس وحمل بضاعته من الصباح وتيسر إلى القرى مصحوباً بدعاء الوالدة ، وبأمنياتنا أن تروج بضاعته ويرجع إلينا باكراً .

الآن ، فقط ، استطيع أن أقدر ماكان يكابده الوالد من تعب وشقاء في مهنة البائع المتجول تلك . ان القرى التي تقع على مسافات متباعدة من المدينة ، ايسرها عشرة إلى خمسة عشر كيلو متراً فما فوق، كانت طرقاتها تأكل من لحم قدميه . ولهذا يعود متعباً مكدوداً مغبراً في المساء . حاملا كيسه على ظهره ، وفي زنده سلته التي جمع فيها بعض البيض والحبوب لقاء تلك البضاعة الناحلة التي كان يبادلها بها . وكنا نهرع إلى لقائه ونتجمع حواليه . فينزل حمله ويجلس ليستريح طالباً قبل كل شيء طاسة من الماء ليبل ريقه الجاف .

القروش القليلة التي باع بها نقداً ، كان يعطي منها

للوالدة كي تشتري لناخبزاً وإداماً . وكنت أركض منذ حصولنا على النقود إلى الفرن فابتاع الخبز والجبن وبعض الخضار ، وأعود مسرعـا لتعد لنا العشاء ، وتبقي من ذلك قسماً لليوم التالي ، اما البيض والحبوب فكان يأخذها إلى بائع الجملة في المدينة الذي يعطيه مقابلها بضاعة يحملها ويدور بها كما يفعل كل يوم .

غير أن الأفواه الجائعة في البيت كانت تأكل الربح ورأس المال . وهكذا بعد شهر أونحوه ، وصل إلى حالة العجز ، وتراكمت عليه الديون التي لم يعد في مقدوره سدادها ، فرفض البائع أن يعطيه البضاعة ، وما تبقى لديه منها لم يكن يحرز تعب أن يتجول به على القرى ، فأعلن ذات مساء أنه سيتوقف عن عمله ذاك ، وأنه سيبحث في المدينة عن شغل ، أي شغل ، وأن الله الذي خلق دودة على صخر لن يتخلى عنها .

نحن كنا تلك الدودة على الصخر . كنا دوداً على صخر ليس على جوانبه ايما خضرة أو تراب . كان الحي كله دودا يلوب في مستنقع « صخري » فيه كل الأوحال وكل الأقذار . وليس فيه ايما شيء يؤكل ، ولم يعد نصف أهل الحي يعملون ، ووصل الأمر ببعضهم

إلى بيع أثاث بيوتهم وأمتعتهم ، وكانوا يفعلون ذلك وهم ينتظرون الفرج ، لكن الفرج كان بعيداً ، كانت الازمة الاقتصادية تشتد ، والبطالة تتكاثر . . لقد صدرت فرنسا ، كما قال بعض العمال ، « كريزتها » إلى سورية ، وكانت وطأة هذه الكريزة هنا مضاعفة . لأن المدينة التي تعيش على العمل في المرفأ قد وجدت نفسها في عطالة مثله ، وكان الفرنسيون وحدهم الذين لايبالون بشيء ، لأنهم ينتزعون اللقمة من الأفواه ، في ذلك النهب الرهيب الذي قضى على كل شيء .



-١١-

هبط علينا . ذلك الصيف ، رجل من بلدنا الأول السويدية .

كنت قد سمعت به من الوالد . تحدث عنه إلى الأم في كثير من الليالي ، وقال عنه انه « فلتة زمانه » وأنه عالم لامثيل له ، وان له « ديباجة » لايكتب مثلها كاتب ومن شدة علمه جن ، أو أصابه مس ، فهو لايتصرف كالعقلاء ، مع أنه من أعقل الناس .

ولقد ارتسم لهذا الرجل،من خلال حديث الوالد، طيف غريب في ذهني . كنت أفكر فيه . وأقارنه مع معلم المدرسة ، ومع الخوري ، ولم اتوصل أبداً إلى رسم صورة تقريبية له في خيالي . كل مااستقر في ذهني أنه من أصحاب المعجزات ، ومن الذين يستطيعون في الحساب مالا يستطيعه البشر ، لأن الوالد قال انه يعطي الجواب على أية مسألة في طرفة عين .

جاء إلينا على حال من الطرافة عززت غرابته في

ذهني وقف بعيداً عن البيت ونادى الوالد ، فقام وخرج إليه ، وسمعناه يرحب به ، فنادت الوالدة من الداخل تسأل عن القادم ، لكن الوالد لم يجب ، وكان هو يوصيه ألا يتلفظ باسمه لئلا يسمع بهأحد من الجيران . وعندما خرجت الأم لاستجلاء الخبر ، حاملة الفانوس بزجاجه الواقي من الريح ، تبعتها بدافع من فضول ، فوجدت الوالد يسحب حماراً عليه سحارتان ، وصاحبه يمشي وراءه منحنياً ، كأنه يختبىء لامرما ، ويضرب حماره بعصى في يده . فلما صارا إلى الباحة ، ربطا الحمار بشجرة ، وانزلا السحارتين ودخلا بهما .

كان القادم يوشوش الوالد ، بشيء ما ، والوالد يطمئنه . قائلا :

– لاتخف ياكوزي ، لن يعلم أنك عندنا ، ولن يستطيع شيئاً لو علم . هو نفسه ، ربما ، نسي ذلك الدين القديم ، وليس في وسعه ، على أية حال ، أن يضبط الحمار أو يأخذه وأنت في بيتي .

لقد تهيبت ، أول الأمر ، مواجهته . اختبأت في

طرف البيت حياء ، وتقدمت الوالدة فسلمت عليه ، مرحبة بطيبة وصدق ، منحنية قليلا ، وهو يرد بعبارات ملهوجة ، واضعاً يده على رأسه وصدره ، قلقاً كأنه يخشى أن يفتح الباب فجأة ويدخل عليه غرماؤه من الدائنين .

كان طويلا ، محدبا ، مديد الذراعين ، كبير الكفين ، أصلع ، ذا جبهة مغولية ، وعينين صغيرتين ، شهباوين ، وذقن نابتة ، وهيئة قذرة .

وكان لباسه خلقا ، ممزقا ، وهو يرتدي ، أيام الصيف ،معطفاً عتيقاً ، ليخفي تحته عريه ، وكانت قدماه غبراوين ، وفي رجليه حذاء عتيق ، مفتق ، تظهر اضابعه منه . ولو رأيته في الشارع ، قبل أن أتعرف عليه لحسبته متسولا ، أومن الدراويش الذين يصنعون الكرامات .
قدمتني إليه الوالدة بفخر وفرح ، قائله انني إبن مدرسة ، وأنني من الأذكياء ، فتناول غلبة تبغ الوالد ، وكتب على قفاها الكرتوني هذه الكلمات : « قل لأمك أن تقوم بواجبها حيال الضيف » ومن مجلسه أمامالوالد، في ركوعه على ركبتيه كجمل ، ناولني العلبة فقرأت متعثراً ماكتب عليها ، وعندئذ اندفع بجذعه إلى أمام ،

وخبط على ركبتي والدي ، صائحاً به «ياابن تيتوش ، ابنك كلم الورقة » ، وصفق براحتيه وراح يضحك ضحكا عاليا .

كان يطلق لقب «تيتوش» على كل من له صلة بهم من الأقارب ، ومع أنه يعلم أن الوالدة ستكرمه فإنه رمى من وراء ماكتبه على قفا الباكيت إلى حثها على أن تقدم له الطعام ، فقال له الوالد :

— تحسبنا ، ياكوزي ، سنبقيك جائعاً ؟ ألاتخجل ؟

وعاد الكوزي يحرك جذعه ، وهو يركع على ركبتيه ، حركات كركوزية مضحكة ، تنعكس ظلالا على الجدار وينحني فيقبل ركبتي الوالد قائلا:

— أنا أمزح ، ياابن تيتوش ، أمزح .

قال ذلك وقام إلى كيس خيشي يحمله على ظهره ولايفارقه ابدا ، وأخرج منه زجاجة عرق ، وعاد إلى نفس مجلسه بينما بسطت الوالدة أمامه العشاء ، وهي تقول :

— كل ياكوزي ولاتؤاخذنا ، من حواضر البيت .

فاستوقف الوالدة ، ورسم إشارة الصليب على صدره وهو يقسم :

– والله ثم والله (ورفع زجاجة العرق) لولا هذه ، ماأكلت ولاشربت ، كنت مت . . العرق وحده ينسيني شقائي ، يزيل عني تعبي ، ويجدد قواي فانهض كل صباح،وأطوف القرى ، كحالي منذ عشرة أعوام .

قالت الأم :

– ولكنك مخطىء ياكوزي ، هذه ليست حياة . . تعال إلى المدينة واستقر فيها . . . افتح دكانا وبيتا مثل الناس .

– المدينة ؟ (وضرب على رأسه) اية مدينة ؟ في اللاذقية انكسرت ، وفي اسكندرونة ركبتني الديون. أمي،لارحمها الله ، دعت علي ، قالت : ليكن الرغيف خيالا وأنت تطارده . . . هذه لعنتها تلاحقني ، أنا ملعون من الوالدين . . .

– أنت اعتدت الغربة . . . .

– قولي اعتدت السفر . ..(والتفت إلى الوالد) في مدارج الأدب نصيحة تقول : تغرب ، ففي الغربة سبع فوائد . . .

وعدد الفوائد السبع على أصابعه بينما الوالد يهز برأسه موافقا ، فقد كانت آراء الكوزي غير بعيدة عن

آرائه ، ولولا أن له عائلة وبيتاً ، لكان من الجوالين المائمين على وجوههم مثله .

ومضى الكوزي يشرب ويأكل ويتكلم . كان لايزال ، طوال الوقت ، راكعا على ركبتيه وقد خلع طربوشه العتيق ، المزفت ، عديم الشرابة ، وراح ينحني فيتكوم ، وينتصب فيحرك جذعه ، ويخفق الهواء بذراعيه الطويلتين ، ولايني يضرب ركبتي الوالد بكفيه ، او يهجم عليهما ويقبلهما ، وهو يروي قصصاً وأشعارا من « مدارج الأدب » اذهلتني وشدت انتباهي اليه شدا قويا . أية ذاكرة بل أي لسان ذرب واية تلويحات بيديه وهزات برأسه .

فجأة قال للوالد :

– اسمع ياابن تيتوش . . أنت ،الليلة ، تفضلت علي ، وسأرد لك الفضل مضاعفا . . . أنا ، عدم المؤاخذة ، سيكون لي بذمتك ، وهكذا أمن على الناس، ولاأدع أحداً يمن علي .

قالت الأم :

– نحن أهل ياكوزي ، ومن غير المعقول أن نمن عليك . . وبماذا ؟ بلقمة الطعام ؟ هذه لاتذكر . . . لاشيء من قيمتك .

– مهما يكن . . . سأرد لكم المعروف وزيادة (وملتفتا إلي) هات ورقة وقلما لأعطيك بعض المسائل الحسابية . . سأجعل معلمك صغيراً أمامك .. اسمع ياابن تيتوش . . المعلم كبير وابنك صغير . . لكن بعد هذه المسائل الحسابية سينقلب الموقف . . يصغر المعلم ويكبر ابنك (وضحك وانتصب رأسه كأفعى مستديرة ومتلعة العنق وقال) أنا أصغر الكبار . . . أحقرهم . . يرونني في ثيابي القذرة ، وحالتي البائسة ، فيستهينون بأمري ، لكنني ما ان أطرح عليهم مسائلي الحسابية حتى يصغروا، يصيروا مثل الإصبع .. ألعن أباءهم ، أضعهم في قمقم ، اذوبهم من الخجل ، بينما أكبر أنا ، أصير في حالتي هذه (ولمس هيئته) افضل منهم ، أكبر ، أعلى شأنا .

قال الوالد :

– منذ عرفتك وأنا اسمعك تقول هذا الكلام.. ضيعت نفسك من شطارتك ، وضعت رأسك برأس بيت « س » ، فخربوا بيتك . . صاروا أغنياء وأنت ، لامؤاخذة ، شحاد ، تركبك الديون ، وتركض من

قرية إلى قرية وراء الحمار ، لا بيت ولا حيط ، وليس لك عائلة ، ولاتعرف مكسبك من خسارتك . .

فانكمش الكوزي وقد سمع ببيت «س» وما جلبوا على رأسه من شقاء وقال :

– نصيب ، قلت اضرب ضربتي ، فإما أن أغتني أوأصير شحاداً .

– صرت شحادا . . .

– قلت لك نصيب ،لو أصابت معي الضربة كنت الآن ألعب بالذهب .

– أنت الآن تلعب بالتراب . . .قضيت على نفسك بنفسك ، لو فكرت قليلا لما أقدمت على تلك العماية الخاسرة .

كان الوالد قد حدثنا عن تلك العملية كثيرا ، وكانت سيرة الكوزي تتردد في بيتنا طويلا ، والصورة التي ارتسمت له في أذهاننا غريبة ، فهو عبقري – ولم نكن نعرف معنى الكلمة بالضبط – وهو مجنون. وكان الوالد يقول عنه كلمات لاندرك معناها بالضبط ،ويشرح لنا العملية التي قام بها في مطلع دخول الفرنسيين إلى سورية فيقول : كان المجيدي في

ذلك الوقت فارسا ، يفك مشنوقا ، وقال الناس ان الفضة ستبطل ويحل محلها ورق البنكنوت ، وبدأوا يبدلون فضتهم بالذهب أوبليرات سورية ، أما الكوزي فقد قال : « الآن جاء دوري ، سأشتري الفضة بسعر التراب ، وأبيعها في المستقبل بسعر الذهب » ونصحه الناس بعدم المغامرة ، لأن تداول الفضة سيبطل فأجابهم : « لاتصدقوا الاشاعات . الفضة فضة ولن تبطل أبدا ، وأنا سأخالف الجميع وأشتريها ، وسترون كيف سأجعل بيت « س » يفلسون . »

راح يصرف الذهب ويشتري الفضة ، ثم انخفض سعرها فاستدان ، وانخفض سعرها أكثر فاستدان أكثر ، وذهب إلى بيت « س » لاسترداد مبلغ أودعه لديهم بالليرات الذهبية — كما يزعم — فانكروه عليه . ولم يتحمل الصدمة فجن . . . صار مختلا ، موسوساً ، يظن أن الناس سيسرقونه ، وأن الدائنين يلاحقونه للقبض عليه وسجنه ، فهرب خائفا ، وهجر المدينة نهائيا : صار بائعا متجولا ، ينتقل من قرية لأخرى في الريف ، ويبعث من يشتري له البضاعة من المدينة ، ويعيش متشردا مذعورا ، يعذبه احساس بالمطاردة ، فيركض وراء

حماره من جهة لأخرى ، وفي كل ناحية له قصة أو مشكلة .

كان يبيع الكمونوالشاي و المسكة والخرز والأساور الزجاجية والخيوط والابر وما شابه ذلك . يبيعها نقداً وعينا وبالدين ، ويقايض عليها بالبيض والدجاج والجلود والحبوب ، ويسلف على الموسم، ويعطي قرية ما بضاعة طوال عام، فاذا جاء اوان الموسم، يكفي ان يهدده احد المدينين بعصا حتى لايعود الى تلك القرية ابداً... وقد ينام عند فلاح، وفي الصباح يزعم أنه سرقه، او يضع بضاعته في بيت ريثما يذهب الى المدينة خفية لبيع ما جمع من مواد عينية، فاذا عاد اتهم صاحب البيت بأنه سرق لهالبضاعة..ولااحديلري هل وقعت تلك السرقة فعلا أم أن وسواس الكوزي صور له ذلك. وكان وسواسه هذا يتسبب له في مشاكل لانهاية لها،فهو لايفتأ يشكو،ويتذمر، ويتهم الناس،ويركض على الدروب كثيراً ويربح قليلا، وقد يخسر ولايربح، وفي الحالتين لابد أن يتهم احداً بأنه ائتمنه وخانه، وهذا هو السبب في أن تجارته لاتنمو ولا يستطيع ان يجمع مايسدد به ديونه ليعود الى حاله الاولى.

وفيما كان يشرب، ويتكلم، ويروي اشعاراً من

«مجاني الأدب» ويستدير بجذعه على ركبتيه كأنه يجلس على نابض، صرخ فجأة:

— آه نسينا الصلاة.. اللهم اغفر لنا..وياسيدة سامحينا.

ترك مابين يديه من طعام وشراب، ونهض فصلى مغمضاً عينيه بخشوع، وهو يتمتم بالادعيات لصلاح نفسه وتوفيقه،حتى اذا فرغ من صلاته جلس والتفت الي قائلا:

— هات ورقة وقلماً ياولد، وخذ هذه العملية الحسابية.

كان من عادته ان يفرض مسائله الحسابية على الناس، مقابل الضيافة التي يقدمونها له، ويطلب منهم بعد ذلك أن يستدعوا اولاد الجيران ليعلمهم الحساب ايضاً، فاذا تلكأوا اورفضوا هجاهم، ومهما اكرموه لابد أن يختلق سبباً للطعن بهم اذا تأخروا مرة في واجب ضيافته.

قلت للكوزي اني لااريد الحساب، فنده أمي لكي يعلمها ، وقالت الأم:

— ماشاء الله، اني لاأقرأ ولا أكتب.

— انت أنفك كبير .

— لماذا؟

ـ لأنك ترفضين حسابي .

ـ ولكنني لاأقرأ ولاأكتب، وأنت تعرف ذلك.

ـ وابنك ؟

ـ لايريد ايضاً.

فغضب وقال:

ـ انت لاتريدين، وابنك لايريد، فمن في بيتكم يتعلم حسابي اذن؟

ـ لاأحد..

ـ في هذه الحال لاتريدون ان تبقى منتكم علي

ـ نحن لانمن عليك.

وقال الوالد ملاطفاً:

ـ الولد خائف، وهو يتحرج امامك، لذلك لايريد أن يتعلم الحساب الليلة.

فاربد وجهه وصاح:

ـ أنالاأقول الحساب.. اقول حسابي (وتوجه بالكلام الي) اسمع الا تريد ان تضرب عشرة ارقام بثمانية الاربعا وتضع الجواب فوراً؟ انا اعلمك ذلك.. ضع أي رقم أردت، مهما يكن طويلا، وأنا أقسمه على تسعة ونصف واضع الجواب تحته فورا.. هل رأيت احداً يفعل ذلك؟ أنا قليل الحظ ، قليل الحظ ، أنا أسرع من آلة

حاسبة لو وجدت !

ولطم خديه وراح يبكي ، فداخلني من ذلك غم، وأشفقت عليه، وامام الحاح الوالدين، قبلت ان آخذ بعض مسائله الحسابية، وجئت بدفتر وقلم، وجهدت لان أفهم شروحه. واكتب الأرقام التي املاها علي ، وتعلمت بعض مسائله الحسابية وانصرفت.. لكنه، بعد قليل ، طلب الدفتر مني ومزق الأوراق التي فيها تلك المسائل ، قائلا لوالدي:

– العمى! هل يقلع المرء عينه باصبعه؟ اعطيت ابنك من الحساب اكثر ما عندي ، وهذا ولد ،وغداً يعلمها لاولاد الحي ويقطع رزقي .

اسفت على العمليات الحسابية التي مزقها ، والتي كنت سأفاخر بها اولاد الحي فعلا ، وربما علمتهم اياها. ولم يقل الوالد شيئا. اما والدتي فقد حزنت. وقالت للكوزي:

– اهكذا تفعل مع الولد؟

فركع امامها، في حركة تمثيلية وقال:

– ابنك صغير ، لايؤتمن، وهذارأسمالي..اعذريني .. هذا رأسمالي.

ونهض فجلس على كرسي، وضم ركبتيه احداهما الى الأخرى، وبسط كفيه عليهما وسأل الوالد:

– بكم البطاطا عندكم؟

قال الوالد:

– بكذا..

فصفق الكوزي وقال:

– البطاطا في بيرود زبل وفي حلب تبر.. وبكم البيض؟

أخبره الوالد فصفق من جديد، وانحنى الى الأمام، ومد كفين كل منهما كالمدري وقال:

–في انطاكية سعره أحلى.. ولو أخذته الى اللاذقية لربحت أكثر.. غير أني لاأستطيع الذهاب الى اللاذقية.. الدائنون ينتظرونني.. سيقبضون علي ويلقونني في السجن.

قال الوالد:

– ولكن الدائنين ماتوا يا كوزي..

– وأولادهم؟ والدفاتر؟ وأولاد الحرام!؟

– أنا اتيك بورقة من يدهم يقولون فيها انه ليس لهم عليك داع ولامدع.

ـ وأنا لاأصدق.. ستكون هذهحيلة.. انا لا أعود الى اللاذقية ابداً.

ـ وماذا ستفعل؟ تبقى على هذه الحال؟

ـ أظل أعمل في التجارة.. وفي الحساب.. العام الماضي اختليت..

سألته الوالدة فرحة:

ـ تزوجت؟

ـ لاوالحمد لله .. أنا لا أقرب النساء..اقول لك اختليت.. يعني بقيت وحيداً مع نفسي.. استكريت دكاناً في«القنية»(١)ودخلتفي كيس من خيش حتى عنقي وكان هذا كل فراشي..بقيت على هذه الحالة كلالشتاء.. صمت عن الكلام مع الناس كما تصوم الحية في الشتاء.. اخترعت طريقة جديدة في الحساب.. سأسجل الاختراع باسمي حتى لايسرقه أحد.. من يدري؟ ربما عمموه على المدارس غداً.. أنا سأنطح الصخر.. سألعن أبو الجبر..

قاطعته الوالدة:

ـ وماذا فعل لك جبر هذا؟

قهقه الكوزي حتى بانت اضراسه وقال وهو يتلوى بجذعه:

---

(١) قرية في شمال سورية، قرب جسر الشغور.

– الجبر حساب وليس شخصاً.. انت، عدم المؤاخذة لاتفهمين بهذه المسائل..

قال الوالد:

– وأنا لم أفهم أيضاً.

– قلت لكم الجبر حساب.. حل المسائل الحسابية بطريقة الجبر.. أنا سأحل المسائل بطريقتي.. سأخترع طريقة جديدة.. طريقة تريح الناس من الجمع والضرب والطرح والتقسيم.. سيكون الجواب جاهزاً مهما يكن الرقم كبيراً.

تبادل الوالدان نظرة دهشة واعجاب..ادهشهما الكوزي باختراعه، لكنه، مع ذلك، قال للوالدة صريحاً غير حيي:

– لاتفرشي لي ..لست نظيفاً.. عندك كيس خيش؟

معنى هذا ، كما شرح لنا الوالد فيما بعد ، أن الكوزي مقمل ، ولا يريد ان يغش الذين ينام عندهم وينقل عدوى القمل اليهم .

قال الوالد:

– قبل النوم ستكتب لي رسالة الى أخي عبد الله في اللاذقية.

– ماذا تريد أن أن تقول له؟

– سلام وكلام وأشواق.

– وبعد؟

– أنت أكتب الديباجة اولا..

– هذه اتركها علي.. عندي ديباجات جاهزة..
لكنني، اكراماً لك، سأجد ديباجة جديدة..
ناموا انتم واتركوا لي الفانوس مشتعلا.

نمنا وتركنا الفانوس مشتعلا كما طلب، فحمله وذهب الى المطبخ، وتمدد هناك على الارض، ووضع الورقة امامه، ورأيته يبلل قلم الرصاص بريقه، ويكتب.. ثم يكتب..

وظل يكتب حتى اغفيت.



في اليوم التالي افاق باكراً. جلس وكرع ماتبقى في زجاجة العرق، وبمساعدة الوالد وضع سحارتيه على الحمار وانطلق وراءه حافياً، حاسراً، ممزق الثياب، وأمي تقول له:

– ارجع ونم عندنا الليلة ايضاً.

قال وهو يبتعد مهرولا:

– ان شاء الله.

ثم اضاف:

- شرطي معروف.. لاتخسروا علي ولاأخسر عليكم.. أحضر خبزاتي معي، ومقابل النوم اعطي الولد بعض مسائل الحساب.

- اخجل من نفسك !! اللقمة الواحدة تكفي اثنين والولد ختم الحساب.. نسيت ليلة البارحة؟؟

قال الكوزي ضاحكاً والغصن الذي يضرب به الحمار في يده.

- الليلة اعطيه على قده.. عمليات سهلة ان شاء الله.

في المساء رجع ايضاً.

اعاد نفس تمثيلية ليلة البارحة. تسلل الى البيت خفية. وعندما أنزل السحارتين عن الحمار وربطه قدامالباب، خلع حذاءه الممزق وركع على الحصير وراح يلوحبيديه. كانت الأسعار مفتتح حديثه،فهو يوردها كما في نشرة رسمية، ويقارن بين سعر البطاطا والبيض والحنطة والشعير في هذه المدينة أو تلك، حتى ليخيل الى سامعه انه من امهر التجار.

جاءته الوالدة بما تيسر من طعام، وأقسم أن عرقه معه، فسحب من احدى السحارتين زجاجة من عرق التين الذي فاحت رائحته الحادة في البيت، ووقف فصلى وعاد

فركع ورفع الزجاجة الى فمه وراح يكرع منها وهو يردد لازمته المعروفة:

– لولا هذا اللعين كنت مت..

وابتسم الوالد الذي كان يشاركه الرأي في هذه النقطة، بينما هزت الوالدة رأسها من وراء الاثنين في حركة تدل على الانزعاج والتأنيب، وقال الكوزي:

– كتبت أمس ديباجة المكتوب ، واليوم أكمله إن شاء الله .

قالت الوالدة :

– منذ أعوام ونحن عند الديباجة . . والله يعلم متى ينتهي المكتوب .

قال الكوزي الذي كان الوالد قد أخبره بحكاية كاتب المكاتيب :

– أنا كاتب قارىء عن جد . . الليلة أكمل المكتوب وغداً ترسلونه . . دعيني الآن أكمل هذه اللعينة .

قالها ورفع زجاجة العرق إلى شفتيه ، حتى إذا أنزلها انتصب جذعه ، واستدار رأسه إلى الوالد وقال :

– لدي مشروع فكرت فيه طوال اليوم .

قال الوالد :

– خير إن شاء الله . . أنت مشاريعك كثيرة ، أما التنفيذ فعلى الله .

قال الكوزي :

– هذا صحيح . . أفكر كثيراً وأنفذ قليلاً . . بل لا أنفذ مطلقاً ، لأنني لاأملك المال .

– وماهو مشروعك ؟

– تربية الدجاج . .

– كيف ؟

– لو وجدنا من يمولنا بالمال كنت استأجر بستانا في قرية قريبة ، وأشتري شبكاً فأقيم سياجاً من حول البستان ، وأغطيه بشبك أيضاً ، وأضع فيه مئات الدجاجات وبعض الديوك ، ونجمع كل يوم مئات من البيض ، وفي الصيف تكون لدينا مئات القرقات (١) وآلاف الصيصان ، ثم تكبر الصيصان وتصبح فراخاً ، وفي سنة أو سنتين يصبح لدينا طرش (٢) من الدجاج .

– والعلف ؟

– ورق التوت والخضار في الصيف ، والزيوان في الشتاء .

---

(١) القرقة : الدجاجة التي تحضن بيضها للتفريخ

(٢) بمعنى قطيع .

ـ ضحك الوالد وقال :

ـ أنت مجنون . .

فاكتأب الكوزي فجأة وقال :

ـ كنت أتوقع هذه الكلمة . . لاأحد يؤمن بمشاريعي.

ـ لأن مشاريعك غير واقعية . .

ـ مشاريعي واقعية ولكنها جديدة . . الناس ألفوا ماعتادوا ، ولهذا يضحكون من أفكاري الجريئة .

قال الوالد :

ـ لو كان في الغراب خير مافاته الصياد .

فقال الكوزي :

ـ أنا لست غراباً ، ومشاريعي ليست خيالية ، في المستقبل ، إذا عشنا ، نتذكر . . لن يظل الناس يحسبون كما في الماضي . طريقة جمع عشرات الأرقام فوق بعضها ، أو طرحها أو تقسيمها ، باطلة . سيخترعون طريقة ما . أنا أجرب طريقتي ، هذه أسرع ، ولكنهم في المدارس يرفضونها . ماذا تريدون ؟ آلة حاسبة ؟ أنا أسرع من الآلة الحاسبة ؟ الإنسان هو الآلة الحاسبة ، هو كل شيء ، مادام قادراً على اختراع كل شيء!

سأله الوالد :

— ولماذا لايقوم الآخرون ، الذين يملكون المال ، بهذه المشاريع إذا كانت مربحة ؟

— لأنهم جهلة . . كسالى

— أنت وحدك الفهيم ؟

— لست وحدي الفهيم ، ولكن من هو صاحب المال ؟ إنه الآغا ، وهذا يملك الأراضي ، ومن استثمارها يعيش ، وهو لايفكر حتى بتحسينها ، إنها تدر عليه المال ، ولكن كيف ؟ من تعب الفلاح وعرقه . الفلاح ، عند الآغا ، هو الدابة ، ولو لم توجد الدواب لفلح الملاكون أراضيهم بواسطة الفلاح . كانوا ، كما في الماضي ، يجبرونه على جز المحراث بدل الحمار أو الثور ، ولكن هذا لن يدوم . .

— كيف ، لن يدوم ؟

— أنا أقول لن يدوم . . هكذا

— يترك الفلاحون العمل ؟

— لا ، ولكنهم سيغيرون طريقة الفلاحة كما يغيرون طريقة تربية الدجاج ، سيأتي عصر الآلة كما أتى عصر السيارة . .

— ومتى يحدث هذا ؟ بعد أن نموت ؟

— لاأعرف . . ولكنه لن يتأخر .

ـ أنت تحلم . . .

فقال الكوزي . .

ـ وخاصة عندما أشرب . . عندئذ أفكر . . أخترع الحساب والمشاريع والأفكار ، ولكن أمثالك يضحكون مني ومن أفكاري ، وهذه مصيبتي مع الجميع .

كان الكوزي الآن في قمة تعاسته . إنه لايطيق أن يستغبيه الناس ، كما لايحتمل أن يضحكوا من أفكاره ، وكان الغضب يستبد به إلى درجة الخروج من البيت الذي هو فيه إذا تجرأ أحد وسفه حساباته . . عندئذ لايبقى لديه مايعتز ويفاخر به ، فيشعر بالفقر والذل ، ويعمد إلى الرحيل.

ومع أن الوالد كان يهزأ بمشاريع الكوزي،إلا أنه يؤمن بعبقريته ، ومن أجل ذلك كان ينظر إليه نظرته إلى إنسان خارق . . ولكنه مجنون ! ولم يكن الكوزي يضار بصفة الجنون إذا رميته بها ، لكنه يثور إذا قلت له أن طريقتك في الحساب خاطئة أو فاشلة ، وهذا ماكان الوالد يمسك عنه .

تحدثنا بعد ذلك في أمور شتى . ومن جديد عرض الكوزي فكرة العمل معه على الولد . وكانت فكرته موضع دهشة الوالدة ، ولعلها كانت رداً على إتهام الوالد له بالجنون ، وانتقاماً من هزئه في تربية الدجاج . . غير أن الوالد وجدها فكرة معقولة ، تحقق له ذلك الميل الدائم إلى

الرحيل .

سـأله :

ـ وماذاأشتغل معك ياكوزي ؟

ـ تساعدني في تجارتي .

ـ كيف ؟

ـ أعطيك كمية من البضاعة تبيعها على اسمي ، ثم تذهب إلى المدينة فتحمل ما يتجمع لدينا من بيض وحبوب إلى تاجر أعينه لك ، وتأخذ بدلا منها البضاعة التي أكتبها لك في ورقة .

ـ والأجرة ؟

ـ كم تطلب ؟

ـ أنت كم تعطي ؟

لم يتجادلا طويلا ، كانت الأجرة ثانوية في نظر الوالد ، ليس لأنه دون عمل ، ولا لأنه حاول أن يكون بائعاً متجولا فأفلس ، بل لأن باب الرحيل انفتح أمامه من جديد .

اتفق مع الكوزي على العمل في تجارته . كان يعرف أن هذه ليست بتجارة ، وأن هذا الممسوس بلوثة الحسابات والمشاريع ، المريض بالوسواس القهري ، لايكاد يربح

مايكفيه ، ولا يميز بين ربح وخسارة ، ومع ذلك غامر، ورفض أن يصغي إلى الوالدة التي نهته عن السير في درب التشرد من جديد .

اتفق معه بسهولة ، اتفاق رجل يريد أن يهرب ، وينتظر فقط من يهرب معه . ولم أعد أذكر المبلغ الذي اتفقاعليه ، لكنه لايتجاوز القروش في اليوم ، وفي الصباح ذهبا .

تركنا للوحدة من جديد . خلفنا للأم التي عليها أن تدبر معاشنا حتى يعود . لم يفكر كيف تدبر ومن أين . انها خادم ، والأختان خادمان وليس في البيت سوى البؤس ، وأنا في المدرسة التي أذهب إليها شبه جائع ، في قدمي صندل مثقوب ، وفي رقبتي كيس من قماش أضع فيه كتبي ، وعلى الطرقات ، في الذهاب والإياب ، أفكر في حينا الفقير ، وفي وضعنا نحن ، أفقر فقراء هذا الحي ، وأشعر بمزيد من الإنجذاب إلى عبده حسني الذي يقول لي كلمات غريبة ، لكنها ساحرة ، لأنها تحكي بصدق عن واقعنا .

كانت الأم تعرف أن عمل الوالد مع الكوزي لن يدوم طويلاً ، فهما من جبلتين مختلفتين ، أحدهما مجنون

والآخر مغامر ، الكوزي يعيش كيفما اتفق ، ويطلب الطعام كالمتسول ، بينما الوالد صاحب أنفة ، لاتهون عليه نفسه إلا في حالة السكر ، فإذا صحا رفض أن يقوم بما يقوم به الكوزي من حركات ذليلة ، لاتدخل في باب البيع والشراء. لقد انحدر هذا في مصابه بمكانته وماله إلى درك الهوان ، لكنه يعطي لهوانه تفسيراً ذكياً خادعاً ، انه يقبل بكل موقف ، مهما يكن مخزياً ، بينما يمارس إحساساً بأن موقفه هذا ، في التهريج أو التدليس ، استغفال للآخرين وضحك عليهم .

كان يطلق الدابة المحملة ويركض وراءها ، حافياً أو منتعلا خفاً بالياً ، أشعث ، أغبر ، ممسوسا أبداً بالحساب ، وكثيراً مايكلم نفسه وهو يركض ، أو يتوقف ويصفق قليلا ، وفجأة ينحني ويخط أرقاماً على التراب ، فإذا وصل قرية ما ، طاف يوزع بضاعته التافهة على القرويات ، قائلا أنه لايريد ثمنها ، فإذا فرغ من ذلك طاف ثانية يشحذ ماتيسر من كل بيت ، حتى إذا امتنعت قروية عن اعطائه شيئاً مناسباً ، قال لها انه لايطلب صدقة، بل ثمن البضاعة التي أخذتها ، وتجيبه المرأة أنها لاتملك شيئاً ، وعندئذ يطالبها برد ماأخذت ، فإذا كان ماأخذته سكاكر مثلاً

أكلها أولادها ، نشأت بينهما ملاسنة تتحول أحياناً إلى مشادة .

وكانت له طريقة عجيبة في شحاذة ماأعطى ، هي الرقص أمام الأبواب ، مردداً عبارته المشهورة :

ياحسينه هاتي الدينه

وقد طلب من الوالد ، الذي هو اجيره الآن ، أن يفعل مثله ، فزجره الوالد ، واوصاه بالاقلاع عن هذاالتهريج ، ونصحه أن يتعقل ويبيع كالآخرين ، غير أن الكوزي سخر من عقلية الوالد ، وشرح له فكرته التجارية على النحو التالي ، فيما كانا يستريحان تحت دلبة في ظاهر إحدى القرى :

– إذا بعت كالآخرين ربحت مثلهم . صرت واحداً منهم . وأنا أرفض أن أكون كذلك . الحمار يتاجر على هذا النحو . ثم لاتنس أني أريد ، مرة أخرى ، أن أجعل بيت « س » يفلسون . سأجمع بعض المال وأضرب ضربة أخرى . . لاأعرف ماهي ، لكنني أفكر فيها .

قال الوالد :

– وماذا تربح من توزيع بضاعتك وشحاذة أثمانها ؟

– هه . . هذا هو سري . . سر مهنتي ، أسرار التجار مقدسة مثل أسرار الكنيسة ، ولو كنت غريباً عني ماأخبرتك به ، ولكني أقوله لك عليك أن تقسم على كتمانه .

اقسم الوالد — كما قال لنا — فقال الكوزي :

— إذا بعت الكبريتة أو الكعكة أو بكرة الخيطان نقداً، فما هو الربح الذي يأتي من ذلك ؟ إنه ربح لا يذكر ،أما إذا أعطتك فلاحة ثلاث بيضات أو نصف كيلو قمح أو شعير مقابل ما أعطيتها ، يكون الربح كبيراً .

— أنت تسرق الفلاحين إذن .

— أنا أضحك عليهم .

— هذا لايجوز . .

— لماذا ؟ الآخرون ضحكوا علي ، أكلوا أموالي .

— حرام أن تتهم الناس .

— وحرام أن يأكلني الناس .

— ولماذا لاتأكل الذين أكلوك ؟

— لاأستطيع .. وفي هذه الحال أنا مضطر أن آكل غيرهم . الناس يأكل بعضهم بعضا . .

سكت الوالد أمام هذا المنطق . كان يعرف أن الأغنياء يأكلون الفقراء ، والمرابين يأكلون الفلاحين ، والدائنين المدينين ، والأقوياء الضعفاء ، لكنه لايبالي بمن يأكل من ، وهو لايستطيع أن يأكل أحدا ، ولايفكر في ذلك . . إنه في عالم آخر .

في نهاية شهر من العمل مع الكوزي قرر تركه . كان قد اتسخ ، وقمل ، وكره الركض من قرية إلى أخرى

وحن إلى المدينة ، فانفجر ماتراكم من غضب في صدره دفعة واحدة ، وصاح بالكوزي :

— هات أتعابي ودعني أعد إلى بيتي .

قال الكوزي :

— أتعابك وأتعابي مع الناس . . صرفنا كل البضاعة بالدين . . عليك أن تجمع الديون قبل أن تذهب .

— ولكن الفلاحين لايدفعون الآن . . ليس عندهم مال .

— أنت لاتعرف أن تتعامل معهم .

— وكيف أتعامل معهم ؟

— افعل مثلي .

— ارقص لهم ؟

— ولم لا ؟ انت احسن مني ؟

قال الوالد :

— اسمع ياكوزي . . أنت لاتريد أن تموت أليس كذلك ؟ فكر . . أنا لن أرقص لأحد ، ولن أرافقك خطوة بعد الآن . . أريد أتعابي في هذه الساعة . . لن أتحرك قبل أن آخذها ، وإذا رفضت ضربتك حتى تموت .

— اضربني . .

ضربه الوالد فبكى . كان مصيبة تمشي على قدمين. لاينفع معه الكلام ولاالضرب ، ومع شدة خوفه فهو لايملك

مالاً . . وعندئذ تفتقت للوالد حيلة فجربها . قام إلى الحمار ففكه ، وقال له انني آخذ الحمار فأبيعه واستوفي حقي ، واذهب أنت فاشتك علي .

ساق الوالد الحمار أمامه ومضى ، فراح الكوزي يركض وراءه مستجيراً ، ثم انطرح أرضاً وعفر نفسه في التراب والوالد يضحك ، وأخيراً أشفق عليه فترك له الحمار ، وعاد إلى البيت خائباً، كما يعود دائماً .



اشتدت البطالة في المدينة مع اشتداد الأزمة . كان العمل في المرفأ يشكل المورد الأساسي لفئات كثيرة من الناس ، وعندما توقف بدا وكأنالحركة قد شلت تماما ، وأن مجاعة مخيفة تزحف كغيمة سوداء في السماء .

كانت الصناعة معدومة ، والحرف اليدوية البسيطة هي كل ماتعرفه المدينة . . وكان السكان يعيشون من العمل في المرفأ وسكة الحديد وشركة عرق السوس . ومن المهن التي يزاولونها ، أو من البيع والشراء في الدكاكين التي تشكل سوق المدينة الرئيسي ، او من العمل في البناء ، وفي العتالة التي هي ، على نحو ما ، المهنة الرئيسية لسواد الناس .

ولقد توقف العمل في المرفأ وسكة الحديد وشركة « عرق السوس ».صادرات سورية من الحبوب والمحاصيل الزراعية بارت . وقال المصدرون وهم يطردون عمالهم : « فيأوربا وأمريكا يحرقون البن ويلقون القمح في البحر »

وسأل العمال بعضهم بعضا :

– لماذا يفعلون ذلك ؟

– من يعرف ؟

– ولماذا لايعطونها للفقراء ؟

– لأنه ليس لديهم فقراء !

فقال عامل كان في البرازيل :

– الفقراء في كل مكان . . هناك أيضا جياع كما عندنا .

– هذا غير معقول . . يلقون القمح في البحر والناس جياع !

– معقول ونصف . . أنا كنت في البرازيل ورأيت .

– ولكن أمريكا غير البرازيل .

فقال عامل :

– امريكا بلاد الذهب . . .

وسأل آخر :

– وفرنسا ؟

– فرنسا ليست بغنى اميركا .

– ولكن فرنسا غنية أيضا .

ـ بريطانيا أغنى . .

ـ وماذا يأتينا نحن من غنى فرنسا أو بريطانيا . . ؟

ـ اسأل المستشار !

ـ لو كنت أعرف الفرنسية لذهبت وسألته .

ـ خذ معك ترجمانا

ـ وأين أجد ابن الزانية هذا ؟

ـ في السراي !

ـ وماذا أقول له ؟

ـ قل له باسم أهالي حي الصاز جئت أسألك عن سبب « الكريزة » !

ـ ولماذا لاتذهب أنت ؟

ـ أنا لاأحب المستشارين !

ـ وهل تراني أنا أموت بعيونهم الزرق ؟

ـ ابلع لسانك واسكت اذن .

ـ أوضعه في مؤخرتاك !

ـ الأفضل أن أضعه . . .

وقال كلمة قبيحة ضحك لها العمال المستلقون على العشب في الحديقة وخجلت لها أنا ، فتواريت وراء أحد

الأولاد ، وتابعت ذلك النقاش الذي يدور بينهم .

كانت حديقة المنشية هي الحديقة العامة الوحيدة في المدينة ، وكانت فيها أشجار ضخمة من الكينا وبعض أشجار السرو والشربين ، وكانت مفتوحة للناس ، وخاصة أهالي حي الصاز الملاصق لها ، الا أن البلدية قررت ، فيما بعد ، أن تسيجها بالاسلاك الشائكة ، وهكذا فعلت ، ووضعت في الحديقة حارسا أرمنيا بشاربين وقلبق ، كان يخيفنا كثيراً فنهرب ما أن نراه يعود من السوق الى ذلك البيت الخشبي المربع الذي كان يسكنه في طرف الحديقة من جهة الحي .

كان هذا الحارس جهما ، عبوسا كرغيف الشعير ، لايشاكل أهل الحي ولا يزورهم ، يقوم بحراسة الحديقة وسقايتها وتقليم سياج الخضرة المحيط بها من وراء الأسلاك الشائكة .

غير أن حي الصاز كان يعتبر الحديقة شيئا ضروريا بالنسبة اليه ، ولاينظر اليها الا كامتداد له ، وفي ذات نفسه يعدها ملكية عامة له الحق الأول فيها ، وقد أزعجه تسييجها بالأسلاك ، وقرر ألا يرضخ لهذا السور الذي ضرب بينه وبينها .

في البدء تسلل الأطفال من بين الأسلاك ، ثم أحدثوا فجوة فيها ، ومن هذه الفجوة كانت تدخل النساء ليقتعدن فيء أشجار الكينا الظليلة ، وهناك يتجمعن لخياطة الثياب أو تنقية الحبوب من الأحجار والزؤان . ولفتل الشعيرية مؤونة للشتاء . ثم قص الرجال الأسلاك الشائكة بمقارض حديدية ، ولم تنفع احتجاجات الحارس الأرمني ولا مطاردته للأطفال ، أو صياحه في وجوه النساء ، أو اصلاحاته للأسلاك ، وذهبت كذلك ، شكاواه إلى البلدية أدراج الرياح ، لقد احتل سكان الحي الحديقة بما يشبه القوة .

وخلال الأزمة الاقتصادية والبطالة التي انتشرت بين الرجال ، صارت الحديقة مكان تجمعهم ، فكانوا يلتقون ثمة منذ الضحى ، وعلى الأرض المفروشة بأوراق الكينا اليابسة ، يستلقون ليتكلموا على الكريزة والبطالة و الحالة العامة التي تزداد سوءاً يوما بعد يوم .

كان ثمة ، إلى جانب هذه المجموعة من العاطلين عن العمل ، شاب يتردد على الحديقة ومعه بعض الشباب . هم أيضا كانوا من عمال البحر ، وقد لحقهم أذى الأزمة فما عادوا يجدون العمل ولا اللقمة ، ولكن تردد هذا الشاب الذي كان يدعى فايز الشعلة إلى الحديقة كان لأمر آخر .

انه ، هنا ، يجتمع ببعض الشبان ، وكان يصغي أكثر مما يتكلم ، وكثيرا ما رأيت عبده حسني ينضم إلى حلقتهم في فيء أشجار الكينا وكثيرا ما أبدى اعجابه به ونقل عن لسانه كلاما يتعلق بتأليف « سنديكا » (١) لعمال الميناء .

ولم أكن في تلك السن أدري شيئا مما يتكلمون حوله . غير ان اعجاب عبده حسني بفايز الشعلة انتقل الي ، فكنت أفكر فيه على نحو غريب ، وأجده شابا جريئاً لايهاب شيئاً ، حتى ولا الحكومة .

كانوا ، في الحي ، قد قالوا عنه أشياء كثيرة . زعموا أنه هو الذي يوزع النشرات ضد الفرنسيين الذين جن جنونهم فعمدوا الى ملاحقته ، وزعموا أيضا انه يعقد اجتماعات مع بعض الرجال في المغائر على ضوء الشموع . وقالوا أنه هو من يبث الدعاية في الحي ، ويعمل لطرد الفرنسيين ، ويريد توزيع أملاك الأغنياء على الفقراء .

وقد اقترن اسمه في ذهني بحادث طريف . ففي أحد الأيام أعطاني عبده حسني كراسا كي أقرأه . وأوصاني الا أطلع احداً عليه . وقرأت الكراس ولم

(١) نقابة .

أفهمه ، فحفظته في مكان ما في البيت ، بانتظار أن أقرأه
مرة أخرى عسى أن أفهم مافيه .

وجاء الأول من أيار تلك السنة ، فقام الشعلة وأصحابه
بتعليق رايات على أعمدة وأسلاك الهاتف في المدينة ، ووزعوا
منشورات بهذه المناسبة ، فقبض على بعض الرجال ، وفتش
بيت فايز الشعلة الذي كان يسكن مع أخته الخياطة ، ووجدوا
عندها قطعة قماش حمراء ، هي فستان لأختي اشترته أمي
وأخذته اليها كي تخيطه ، فصادروه ، وبلغ الخبر الوالد فقال
انهم قد « يكبسون » بيتنا ، لذلك سارعت وأخذت الكراس
فأخفيته في دغل البردي الذي يقوم على تخم الخندق أمام
بيتنا .

بقي الكراس هناك مدة ، وعندما طلبه مني عبده
حسني ذهبت الى دغل البردي وبحثت عنه ، فوجدته ملوثا
بأقذار وحراشف السمك ، لأن أمي نظفت السمك وألقت
بمائه القذر على الدغل .

وجدت نفسي فيما يشبه المصيبة . فأنا لاأحب أن أكذب
على عبده وادعي أنني فقدت الكراس ، ولا أريد أن أظهر
بمظهر الجبان فأعترف بأنني خفت وخبأته في الدغل ،

ولم يبق الا أن أغسل ورق الكراس بالماء والصابون ، وهذا مافعلته ، فكانت النتيجة أن تبللت الأوراق ، وتمزقت ، وبكيت سرا لهذه «الفاجعة» وذهبت إلى عبده فاعترفت له بالحقيقة ، فهون الأمر علي ، واهتم أكثر من تمزق الكراس بأن اكون قد قرأته ، فأجبته انني قرأته مرة ولم أفهمه ، وعندئذ وعدني أن يعطيني كراسا آخر ، وأن يشرحه لي .

هكذا سمعت لأول مرة بفايز الشعلة ونشاطه السياسي ، ومع الأزمة أخذ ظهوره مع العمال العاطلين يزداد في الحديقة التي كانت مرتعنا نحن الصغار . وقد كان فايز مرهوبا ومحترماً كما بدا لي ، لأنه عاد من سجن حلب بعد سنتين قضاهما فيه ، وشاعت أقوال كثيرة في الحي عن سجنه ومحاكمته أمام محكمة فرنسية . وقيل انهم قبضوا عليه في مغارة في جبل معين ، حيث كان يعقد الاجتماعات مع رفاقه ، وأنهم كبلوه بالحديد واستجوبوه بعد تعذيب شديد لكنه لم يعترف بشيء ، فساقوه إلى حلب وهناك كانوا يحمون « الصاج » الحديدي ويجلسونه عليه ، كما أنهم قلعوا أظافره ، ومع ذلك رفض أن يبوح بأسماء رفاقه . وقال انه هو المسؤول عن توزيع المنشورات وتعليق الرايات في أول أيار ، فحكموه بالسجن سنتين ، ثم أطلق سراحه فعاد

إلى اسكندرونة ، ورجع يعمل في البحر ويحرض العمال على تشكيل « السنديكا » .

كانت قصته تنتقل من فم إلى فم ، وكانوا يتحدثون عنه باعجاب ، كالذي يبدونه بالرجال الشجعان فقط ، بل بالرجال الخطرين أيضا . غدا اسطورة الحي ومثار اهتمام رجاله ونسائه على السواء. وكانت الأبواب تفتح لتخبئته وحمايته عندما يريد . وكان هناك بعض الذين يخافون أن يدخل بيتهم أيضا ، لكن هؤلاء كانوا قلة : وكان هو حذرا ، لايفرض نفسه على الناس ، ولا يثقل على أحد ، ولم يستطع أحد أيضا أن يعرف أين يذهب في الليل ، وان كان بعضهم قد أكد أنه يعقد الاجتماعات في البساتين المجاورة للمدينة .

كانت أمنيتي أن يزور بيتنا ، لكنه لم يفعل أبدا . ماكان ثمة سبب لهذه الزيارة ، فالوالد لم يكن صيدا لهذا الصياد من طراز خاص ، انه يركز على عمال البحر وسكة الحديد . وعمال مصنع عرق السوس ، وعلى الفلاحين . وكانت له في الحي فرقة ، وكانت لهذه الفرقة خلايا . الا أن التنظيم السري الدقيق كان يحول دون معرفة أحد

منهم ، ولهذا كانوا يقدرون أن فلانا من جماعته تقديرا فحسب .

وعندما سألت عبده حسني ، ذات يوم ، عما اذا كان من جماعة الشعلة ، ابتسم ونفى . سألني عما يدفعني لمعرفة ذلك ، وهل هناك في الحي من يسأل عن الموضوع ، فلما قلت له ان السؤال صدر عني بدافع المحبة والفضول ، أوصاني ألا أعود إلى اسئلة من هذا النوع ، وأن أكتفي بما اسمع ، وأن أقرأ الكتب والكراريس التي يعطيني اياها ، وأن أسأله عن الأشياء التي لاأفهمها أو تستغلق علي . وحين كنت أفعل ذلك ، كان عبده يرتبك ارتباكا شديدا ، ويحاول بجهد كبير ، ودونما توفيق ، أن يشرح لي ماطلبت معرفته ،فاذا لم اقتنع ، أو لم أفهم ، كان يبدو الحزن عليه ، ويقول لي انه ليس ابن مدرسة كي يعرف كل مافي هذه الكتب ، وان علي أنا ، ابن المدرسة ، أن أعرفها وأشرحها لأهل الحي ، وانه لذلك يعلق أملا كبيرا علي .

سألني يوما عن كلمة« اللامبالاة » وماذا تعني ، وكان يلفظ « اللا » باشباع ، ويشدد على الميم والباء ، فعجزت عن معرفتها ، وعندما كبرت كنت ابتسم في سري وأذكر

« معلمي » القديم عبده بالخير كلما مررت بهذه الكلمة ، وأدعو له بالتوفيق .

أما في تلك المرحلة من العمر ، فقد كانت صعوبة مثل هذه الكلمات تضايقني جدا ، لأنها كانت تحط من قدري ، كما كان يخيل الي ، امام عبده الذي يعتبرني من التلاميذ المتفوقين ، ويتساءل وأنا أمامه :

– عجيب ؟ كيف لاتعرف معنى هذه الكلمة وأنت ابن مدرسة ! ؟

ولم يكن عبده يشارك في اجتماعات العمال العاطلين في حديقة المنشية . كان يصنع الحلويات ويبيعها في عربة يدفعها أمامه ، وكانت حلويات افرنجية ويقال لها « كاتو » وكان يبيعها في المدينة ، فكنت أنظر اليها ، لذلك ، نظرة أعلى من نظرتي إلى حلويات والدي التي هي المشبك ، واتمنى لو أن والدي يستطيع أن يصنع مثلها ، وتكون له عربة يبيع عليها حلوياته في المدينة أيضا .

ولهذا لم تمس « الكريزا » عبده كما مست الآخرين من العمال ، ونادراً ما وجدته بينهم في الحديقة ، ولعل هذا كان عن قصد،وبتدبير من فايز الشعلة الذي يريد ان يبعده عن الشبهات .

اما هو ، فايز الشعلة ، فكان يستلقي على العشب ، أو يستدير على جنبه ويتكيء على ساعده جاعلا من راحته مسندا لرأسه ، ويصغي بصبر عجيب إلى أقوال من حوله ، دون أن يقاطع الا نادرا . كانوا يتكلمون على البطالة ، ويشتمون الحكومة ، والفرنسيين ، ورؤساء العمل في المرفأ، ويستمرون في ذلك طويلا ، حتى إذا افرغوا ما في جعبتهم من الشكوى والسباب ، قال لهم بتهكم :

– وبعد . . . ؟

– هذا ماعندنا . .

– هذا لايساوي شيئا . . كلام في الهواء ، يطير ويتلاشى كالدخان .

– وماذا نفعل اذن ؟

– فكروا . .

– علمنا كيف نفكر . . قل أنت . . حدثنا كيف يصنعون في بلاد العالم اذا كانوا في مثل حالنا .

– أنا لاأعرف أكثر منكم .

– بلى تعرف . . نحن على يقين أنك تعرف . . ولكنك لاتريد أن تتحدث .

قال عامل :

ـ فايز لا يتحدث في النهار .

فابتسم ولم ينزعج .

ـ من قال هذا ؟

ـ الواقع . نتكلم من الضحى حتى الظهر وأنت تسمع . . كأنك تخاف أن تشاركنا الحديث . .

ـ أنا أخاف كما تقولون . .

صاح عامل من المعجبين بفائز :

ـ باطل ! من يفعل الذي فعلته لايخاف . .

ـ وعندما فعلت ذلك لم يتحرك أحد منكم .

ـ وماذا كنت تريدنا أن نفعل ؟

ـ أن تفكروا لأجل من فعلت ما فعلت . ولماذا دخلت السجن .

ـ نحن نعرف أنك فعلت ذلك لأجلنا . . ولكننا . كما ترى أصحاب عيال .

ـ كل العمال . في كل بلاد العالم . أصحاب عيال . ولكنهم ، مع ذلك . ناضلوا . . اعتقلوا وعذبوا وبعضهم ماتوا تحت التعذيب أو في السجن ، وبعضهم

حكم عليه بالاعدام ، لكن الحركة لم تتوقف ، صارت لهم « سنديكات »

– وماذا تفعل لنا « السنديكا »؟

– تنظم شؤونكم وتدافع عن مصالحكم . .

– وإذا رفض أصحاب الأعمال . .

– تعلن الاضراب . .

قال عامل:

– نحن الآن مضربون بغير اضراب ..

– الآن فات اوان الاضراب.. صرتم بحاجة الى عمل أشد تأثيراً..

– ماهو؟

صمت فايز الشعلة هنيهة.. كانت الريح تتلاعب باوراق شجر الكينا فيسمع لها حفيف رقيق . وكان القيظ شديداً ، لكن طراوة الظلال كانت ترطب الجو. والسماء، من فوق،زرقاء حارة، مرتفعة كثيراً عن الأرض، والعشب اليابس يشكل فراشاً خشناً لمن يستلقون تعبين جائعين عليه.والوجوه، ذات الأحداق الفارغة الا من عيون تبرق بنهم. ضامرة، ذات عضلات

تدل على التوتر والقسوة.وعاد صاحب السؤال يردد:

— ماهو..؟ قل لنا..

— اكتشفوه بأنفسكم..

قالها وجلس ثم أضاف:

— «الكريزة» التي تشهدونها عالمية.. لاتشمل العالم ككل،ولكنها تشمل البلدان الرأسمالية. هناك العمال، مثلهم هنا، مستثمرون، يسرق أصحاب الأعمال والأراضي أتعابهم أيضاً.. ينتجون بعشرين ليرة في اليوم مثلا، ويأخذون ليرتين او ثلاث ليرات اجرة، وما تبقى ربح لاصحاب الأعمال،لكن هذا الربح ليس نقوداً.. انه بضائع وغلال، لأن الذي ينتج ماقيمته عشرون ليرة ويأخذ ليرتين لايستطيع أن يشتري حتى ربع ماأنتج، ومن هنا تظل المرابح الضخمة على شكل بضائع كاسدة..

صاح عامل:

— وما علاقة كل هذا بوضعنا نحن؟

وقال آخر:

— حدثنا عن حالنا.. ماذا نفعل أمام هذه الكريزة؟

قال فايز:

— أنا كنت مثلكم..

فقال عامل:

ـ ثم دخلت السجن وتعلمت..

ـ تريدنا ان ندخل السجن لكي نتعلم؟

ـ الا تكفينا البطالة؟

وقال عامل آخر:

ـ وماذا في السجن؟ هناك يطعموننا على الأقل.

ـ هناك يعاملوننا مثل الكلاب.

ـ وهنا كيف يعاملوننا؟ أفضل من الكلاب؟

ـ أقل.. الكلاب تأكل ونحن نجوع..

ـ هذا صحيح .. الرجل لايخاف من السجن ..

ورد عليه عامل. ثم آخر. ثم آخر، وتداخلت الأصوات وتشابكت. برعمت وأورقت. صار لها غصون. صار لها جذوع. صارت غابة من الأصوات. وتمشى الرجال في هذه الغابة مثل الضواري. بدأ غضب يتأرث في الأحداق. وخيل الي أنهم سيشتبكون في معركة. بل أنهم اشتبكوا فعلا ، ولكنني لم أكن أرى العدو الذي يقاتلونه. كنت أعرف الجوع. ولذلك لم استغرب الكلام عليه. اما السجن فقد كان مخيفاً بالنسبة الي. وكان فايز نفسه. الذي دخل

السجن ولم يخف، نوعا مبهماً من البشر،قادراً ،وجريئاً، وساحراً ، في نظري. وجعلت أفكر لو كان والدي بينهم، ماذا كان يقول ، وكيف يتصرف، ولماذا، في بيتنا لايثورون على الجوع هذه الثورة؟

اني الآن، بعد أن كبرت، اقدر ماكانوا فيه، وأفهم تلك الكلمات التي كانوا يتبادلونها ، والتي انطبعت في ذهني دون تفسير، حتى فسرتها الأيام، وأقدر أيضا وأحترم فايز الشعلة. لقد رأيت أمثاله، هؤلاء الذين كانوا أنصاف أميين، أنصاف جاهلين، لكنهم كانوا يتعلمون من الأيام، وكانت الحروف، على ظهورهم، مكتوبة بالسياط لابالاقلام، وكل همهم،في الكفاح الطويل الذي خاضوه ، ان يوقظوا الوعي في العمال، وأن ينظموهم في نقابات.

كانت الكلمات الأجنبية: «الكريزة»و«السنديكا»«والكريف» تدور على الألسن ،لان الحركة العمالية، وقتذاك، لم تكن قد استطاعت بعد أن تترجم هذه الكلمات التي تسمعها وتتلفظ بها إلى اللغة العربية . أغلب الظن أنها تعلمتها من عمال البلاد المستعمرة ، ومن العمال الأرمن ،ومن الميناء وسكة الحديد،

ولم تكن قد امتلكت أدبياتها بعد ، ولاقيض لها المثقفون الذين شاركوها آلامها وانحازوا إليها . وساروا معها في دروب الكفاح . وترجموا وكتبوا لها . لقد كان ذلك عهداً مبكراً جداً من حياة عمالنا . وكان عهداً شقيا . لايملك فيه العامل أي حق . وليس ثمة أي قانون يحدد حقوقه ، ويحميه من تعسف أرباب العمل وبطشهم .

كان العامل يشتغل عند سيده عشرات الأعوام .وفي اليوم الذي يخف العمل . ويفيض العامل عن الحاجة . ويصاب بالعجز أو الشيخوخة ، أو يأتي من يشتغل بأجر أقل من أجره . يركله رب العمل ويلقيه خارجا . وعندئذ كان عليه أن يجوع . أو يتحول إلى متسول . أو ينتظر من يعيله . كان الظلم . هكذا . شديدا . والفقر أشد ، ولم يكن لأي عامل أو فقير . أن يرفع الصوت أو يطالب بحق . كانت الدنيا ظلاما . ظلاما ، ظلاما .

ولقد شق فايز الشعلة وأمثاله سدول الظلام هذه . فتحوا فجوات صغيرة فيها . فبان بصيص من نور. كان الفجر لم يطلع بعد . إن ميلاد هذا الفجر . في بلادنا . جاء متأخراً جداً . وانياً جداً . وبثمن باهظ دفعه أولئك الأوائل من المناضلين النقابيين . ولم يكتب لكثيرين منهم

أن يروا نوره ، لكنهم كانوا على يقين من هذا النور ، فالمجد لهم ، وطوبى لذكراهم ، طوبى لذكرى شهداء وضحايا الحركة النقابية الأماجد هؤلاء .

إنني أقف مع الأطفال على أطراف حلقة الرجال الغاضبين من حينا ، الذين يزمجرون وهم جياع ، أو يلوون أعناقهم وهم جياع أيضاً ، ويشتمون وجه الفضاء ، ويقاتلون عدواً غير منظور ، ويساوون بين السجن وخارجه ، وفايز الشعلة يستمع إليهم صامتاً . لماذا لايثور هذا الإنسان مثلهم ؟ لماذا لايزمجر ويشتم ؟ بل لماذا لايتكلم إلا قليلا ؟

لطالما تساءلت حول ذلك ، وقلته مرة لعبده فقال :

— لو فعل ذلك لدخل السجن في اليوم التالي .

— هو لايخاف السجن . . أليس كذلك ؟ إنه ليس أقل منهم شجاعة ، هؤلاء الذين قالوا انهم لايخافون السجن كذلك .

— هو أشجع الجميع . . .

فكرت بعبده ، وبالذين يجتمعون في الليل ، ويوزعون المنشورات ، ويعلقون اللافتات في أول أيار ، ويطاردهم البوليس من مكان لآخر ، وعجبت من حياتهم ، بل

أدهشتني هذه الحياة . لقد كبروا في نظري . صاروا أبطالاً في وقت لم أكن أعرف من البطولة إلا اسمها الخارجي الذي نتعلمه في المدرسة . ووثقت بقدرتهم الخارقة . قدرتهم على قول أي شيء ، وفعل أي شيء ، والسير مع هؤلاء العمال الغاضبين إلى السراي . واقتحام المرفأ وسكة الحديد وشركة عرق السوس ، والتصدي للجنود الفرنسيين ، ومقاتلتهم بالأيدي والعصي والقضب الحديدية . وأحببتهم من أجل ذلك ، ووهبتهم قلبي الصغير . .

ومن عجب ، بل من خير وعدل كذلك ، أنني لم أسحب هذه الهبة من العمال بعد ذلك طوال حياتي ، فقد استحقوها بجدارة ، وانتزعوها بجدارة أيضاً .



توالت اجتماعات العمال العاطلين عن العمل في حديقة المنشية ، وازداد عددهم وتضخم . كان يأتي عمال من الأحياء الأخرى ، فقراء وجائعون . ومثل أبناء حينا يقتعدون الأرض ، فوق أوراق الكينا الجافة ، في الحديقة التي صارت مقراً لهم ، هم الذين ليس لهم مقر يجتمعون فيه .

غاب فايز الشعلة عن بعض الاجتماعات . ظهر آخرون غيره . كانوا يتحدثون إلى العمال باللهجة نفسها ، والكلمات ذاتها تقريباً ، ويصغون في غير ملل إلى النقاشات التي تدور . ويقولون أنه لافائدة من الشتائم ، العمل . وحدة العمال ، تضامنهم ، هذا هو الأصل ، وعندما يتحقق ذلك يصبح في وسعهم أن يحملوا الحكومة على النظر في مطالبهم .

كانوا يحكون قصصا . كانت قصصاً مثيرة ، باعثة على النقمة ، وفيها طرافة أحيانا ، لكنها ، جميعاً ، تروى عن عذاباتهم وطموحاتهم . وقد سمعت هذه القصة . التي

رواها أحدهم ، وكان يبدو عليه أنه ليس من اسكندرونة ، لأن لهجته تختلف ، فقال :

بعد خروجنا من سجن الفرنسيين ، أخذني فيما كنت أسير في الحي ، رجل وجيه من ذراعي وقال لي :

— الحمد لله على السلامة يامحمد أفندي .

كان يحسبني أفندياً لمجرد أنني كنت أقرأ وأكتب وألبس بنطلونا ، فقلت له :

— الله يسلمك ، تفضل ، ماذا تريد ؟

قال :

— لماذا سجنوكم ؟

قلت :

— لأنهم اكتشفوا لدينا مطبعة .

قال والدهشة ملء محياه :

— كنتم تزوّرون العملة ؟

قلت :

— كنا نطبع جريدة . .

فازدادت دهشته وهتف :

— جريدة ! ؟ اي بلا خلط . .

قلت :

ـ جريدة . . فلماذا لاتصدق ؟

قال :

ـ لأن الجرايد تُطبع في المطابع ، وسط البلد .

قلت :

ـ جريدتنا تختلف ، ولهذا نطبعها في السر .

فكر قليلاً وسأل :

ـ تطبعونها في السر ؟ وماذا فيها ماشاء الله ؟

ـ فيها توعية للعمال ، ودعوة لهم لإنشاء النقابات وتحقيق مطالب الشعب وطرد الفرنسيين .

ـ أنت إذن من الجماعة الذين نسمع عنهم ؟ .

ـ نعم . .

ـ وهل تظنون أن ماتعملونه سيتحقق يوماً ؟

ـ ولماذا نناضل إذن ؟

ـ لاأعرف . .

ثم توقف بعد خطوات وقال :

ـ العين ، يابني ، لاتقاوم المخرز . . ولن تتوصلوا إلى شيء . من يخرج الفرنسيين ؟ ومن يأخذ حقوق العمال ؟ أنتم واهمون ، تقضون شبابكم في السجن سدى . . حرام عليك . .

وترك ذراعي وهو يتلفت حواليه .. ولم يودعني خوفاً على نفسه .

وضحك العمال المتحلقون حول الرجل لهذه القصة ، أما أنا فقد تساءلت ، يومها :

– حقاً من يستطيع إخراج الفرنسيين ؟

لكنني بعد عشرين عاماً أو يزيد ، حين سمعت حكاية العين التي لاتقاوم مخرزاً مرة أخرى ، تذكرت ذلك العامل صاحب القصة ، ونصيحة وجيه الحي له ، وقلت في نفسي : هاقد خرج الفرنسيون ، وصارت الحركة النقابية ذات وزن ، ولم يكن سدى أو وهما ماكان يفعله العمال الأوائل ، الذين ناضلوا في الثلاثينات من هذا القرن .

ولم يكن سدى أو وهما ماكان يفعله فايز الشعلة وزملاؤه أيضاً ، وقد كنت أسر بأقوالهم التي استمع إليها وأنا أقف على مبعدة ، أو استند إلى جذع شجرة وأروح أصغي . وكانوا هم يروون قصصاً عن الحياة ، والعمال ، ويشرحون الماذا سجنوا ، ولماذا يريدون إخراج الفرنسيين وتحقيق الإستقلال وتأليف النقابات ، غير أن الناس في حيّنا كانوا يشكون في أقوالهم وقصصهم . . كانوا

يقولون : هيهات ! قد نرى نجوم الظهر ولانرى ماتقولون .

لقد تعلمت ، في وقت مبكر ، أن أصعب مافي النضال هو شك الذين تناضل لأجلهم ، وتألبهم عليك ، إذا ماانخدعوا أو حرّضوا من قبل عدوهم نفسه ، ومحاولتهم قتلك لأنك خرجت على معتقداتهم ، وتبشر بحياة غير التي ألفوا ، فهم يتهمونك بالسحر والشعوذة ، ويرجعون إليك كل نازلة جديدة تنزل بهم ، ويسعون للاقتصاص منك من أجلها ، ويتهمونك بأنك تثير الفتن .

وعندما وقع في يدي كتاب مكسيم غوركي ، بعد ذلك بأعوام طوال ، وقرأت ماعانى المناضل الثوري في العهد القيصري ، روماس الأوكراني ، من الفلاحين الذين ذهب لتوعيتهم ، وجدت الجواب على تلك الـ« لماذا » التي ارتسمت أمامي ذات يوم كبيرة منذرة .

كان غوركي ، بعد أن نجا من محاولة الإنتحار التي قام بها ، متبطلا على ضفاف الفولغا، وهناك التقى روماس وسافر معه إلى الريف ، ليعمل معه في التجارة ، هذه الواجهة الخارجية لنضال روماس السياسي .

وقد حرض الملاكون الفلاحين على روماس ، فجعلوا

يضعون له البارود في الحطب لحرق متجره وقتله . ففي صباح يوم من أيام العيد ، أشعلت الطاهية النار في الموقد ، ثم خرجت . وكنت في الحانوت - يقول غوركي - فسمعت فجأة زفرة هائلة في المطبخ ، اهتز لها الحانوت ، وسقطت الأواني عن الرفوف ، وتحرك الزجاج ، وزلزلت الأرض .فهرعت إلى المطبخ وإذا بغيوم سود تنفذ من الباب ، ومن خلفها يدوي شيء وينفجر .

أمسك روماس بي وقال :

- اسكت !

وجاءت الطاهية تصرخ في الدهليز ، فناداهاأن كفي ياغبية ، ثم مضى إلى المطبخ فغاب بين الدخان ، وسمعناه يحرك شيئاً ، ثم يشتم ويصرخ :

- كفى ، كفى ، هاتوا ماء .

« كان الدخان مايزال ينتشر في الأخشاب في أرض المطبخ ، وفيها واحدة ماتزال تشتعل ، وهناك آجرات متناثرة ، وفم الموقد نظيف كأنه كنس كنسا . وعثرت وأنا اتقرى بيدي في الدخان ، على سطل ماء فأطفأت النار ، وأعدت الأخشاب إلى الموقد . وأمسك روماس بالخادم

يجرها جراً ، ويقول لها :

— هوني عليك ولاتجزعي .

ثم أغلق عليها باب الغرفة وقال :

— أغلق باب الدكان يامكسيم . قف فقد يحدث انفجار آخر .

ثم انحنى فأخرج الأخشاب من الموقد ، وتجراها واحدة واحدة ، ومد إلي واحدة منها كنت ألقيتها فيما ألقيت ثم قال :

— انظر !

نظرت فوجدت فيها ثقباً غريباً يتصاعد منه الدخان ، وروماس يقول لي :

— أفهمت ؟ لقد حشا الأبالسة هذه الأخشاب بارودا ، ولكنهم أغبياء ، فما يكفي رطل من البارود لنسف المنزل ».

وإذا كان « الأبالسة » من الفلاحين الجهلاء لم يتوصلوا إلى نسف المنزل وحرقه هذه المرة ، فهم سيتوصلون إلى ذلك في المرة القادمة . سيقتلون الفلاح « ايزوت » الذي وعى الحقيقة وصار صديقاً لروماس ، ويقذفون صدر غوركي

بحجر ، ويضطرون روماس إلى الرحيل عن القرية. ويعلق هذا على كل ذلك قائلا:

– لقد اصطدمت كثيراً بهذا الخوف من الفضيلة والعدل، وبذلك التهرب والتخلص من الناس الشرفاء، والشك في تحقق ما يبشرون به.

أما غوركي فقد نقم على الفلاحين، وقال لروماس:

– لاأستطيع أن أعيش بين هؤلاء الناس.

فابدى روماس هذه الملاحظة:

– تلك أحكام لم تنضج!

– ولكن ما العمل اذا كنت قد انتهيت اليها؟

– تلك احكام جائرة لاأساس لها .

ثم اجتهد طويلا، وفي كلمات طيبة، ان يقنعني اني مخطىء وأني مخدوع ، وقال:

– لاتعجل في الحكم. ان الحكم سهل فلا تخدعنك سهولته. لاحظ كل ماهوحواليك بهدوء، وضع نصب عينيك أن كل شيء يمضي، كل شيء يسير في اتجاه أرقى وأحسن ، وأسمى . اتريد الأناة ؟نعم الأناة المستمرة السائرة في ثبات. امتحن كل شيء، والمس بيديك كل

شيء ، ولا تخف ولا تتعجل في الحكم، والى اللقاء ياصديق..»

هذه كانت نصيحة روماس لغوركي: الايتعجل في الحكم. أما أنا، في تلك السن، فلم يكن لي من ينصحني بهذه« الأناة المستمرة السائرة في ثبات» ولذلك تقمت على الذين كانوا ، في الحي، يقفون ضد فايز الشعلة، وقلت في نفسي آنهم حمقى.

لقد سمعت من يتهمه بأنه يثير العمال ضد أصحاب العمل، وأنه يعقد اجتماعات في الليل، داخل مغارات في الجبل، وفي النهار يختفي ويرسل أعوانه الى «المنشية» لتحريض العمال.. إنه يريد طرد الفرنسيين، ولكن من هو هذا المتبطل عن العمل، لكي يستطيع ذلك، واذا كانت «الكريزة» الآن شديدة، فماذا يستطيع الخواجات في المرفأ أن يصنعوا للعمال؟ لقد توقف تصدير الحبوب ، ولم يعد المرفأ ولا سكة الحديد يعملان، وهذه ضربة من الله. «الكريزة» ضربة من الله لامن الفرنسيين ولا من الخواجات او الحكام كما يقول هذا الكافر..

ونقلت كل هذا الكلام الى عبده حسني فسألني:

— اليس هذا سليم الدفش الذي يحمل هذه الحملة على فايز الشعلة؟

قلت:

ـ بلى، وهو يطوف من بيت الى بيت ويتحدث بذلك ، والناس يصدقون .

فقال:

ـ انه مدفوع من قبل معلمه.. من قبل الخواجة الذي يعمل عنده.. وهو كذاب.. وعميل مأجور . .

ولم أفهم كلمة «عميل» التي كنت اسمعها للمرة الأولى، وخجلت أن أسأل عبده عنها، وهو كان عصبياً ومغتماً في تلك الأثناء، وقد سألني:

ـ ماذا يقولون، عندكم، في البيت؟

ـ أمي تسأل الله ان يأخذ بيدكم.. لكنها تقول متى يصير الذي يتحدثون عنه؟

ـ ووالدك؟

ـ والدي غير مكترث.. لقد كان كذلك دائماً.. انه لايفكر بشيء .

ـ هذا خطأ..

وقلت:

ـ أعرف ولكنه كذلك..

فقال عبده:

- والدك جاهل..

خجلت لهذا النعت، وبدا لي انه لاحق فيه ،وانطويت على ذاتي افكر بوالدي، وقد أسفت لأنه لايفكر بشيء كما تقول أمي، ولا يذهب الى المدينة حين يكون بلا عمل، ولا يناقش او يتحدث في المواضيع التي يتحدث بها العمال، بل هو مستسلم الى السكر، ومتشكك في دعوة فايز الشعلة، ويرى أن «الكريزة» من الله، ولا ذنب للخواجات أو الفرنسيين فيها.

كان قد ترك العمل مع الكوزي ثانية، ومن جديد حصل على «رأس‌مال» صغير كي يعمل في المشبك،وصار يذهب الى الضواحي والقرى منذ الصباح لبيع بضاعته، وكان يتأخر ليلا فيثير مخاوف الام ومخاوفنا، ويعود في أحيان كثيرة ومعه بقية من مشبك لم يتوفق الى بيعها، وعندئذ يطلب مني ان اذهب الى السوق القريب، واشتري له شيئاً من طحين وسكر وزيت، هو نصف أوربع الكمية التي يستخدمها في صنع المشبك، ليضيف مايصنعه في الغد الى مابات عنده من الأمس، ويخرج بهذه البضاعة الناحلة في طلب الرزق.

وكانت الأم تعمل خادماً في أكثر الأحيان، ولقد توفيت أختي الصغيرة الأخرى بعد مرض قصير فلحقت بالأخت الضريرة التي سبقتها. فذات صباح افقت على بكاء الأم، ورأيتها تضع الأخت على فراش صغير أمامها، وحولها بعض النسوة، وهن ينهينها عن البكاء، ويقلن لها ان الله أحب الصغيرة فأخذها، والأم تجهد لأن تتماسك فلا تستطيع، وتمد يدها فتمسح على الوجه الصغير الأصفر، وتقول لها: ياابنتي مع السلامة، انت زعلت منابسرعة، فتركتنا وذهبت.

وقالت امرأة:

ـ حرام! هذا لايجوز.. الدمعة على هذه الطفلة البريئة تحرقها مثل النار.

وقالت أخرى:

ـ لاأحد يبكي على الأطفال.. انهم عصافير الجنة.

وقال الوالد الذي كان يقبع عند العتبة:

ـ استراحت هي الأخرى.

ثم نهض وخرج في طلب شيء من السوق. وظلت الوالدة تبكي، وكانت تقول أنها لاتبكي على الأخت بل، على حظها في هذه الحياة. واحترت فيما أفعل،

وتجمدت في فراشي لحظات، وقد أثر في بكاء الأم وندبها، وتحيرت دموع في عيني لكلماتها الرقيقة الصادقة التي كانت تناجي بها اختنا الصغيرة قبل الفراق الأخير.

إنني أعرف الموت الآن، ولن تقول لي الأم ان الأخت ذهبت الى أحضان أبينا ابراهيم. وعما قليل سيأتي بعض الرجال بينهم الخوري لكي يصلي عليها، ثم يحملونها في ثيابها البيض الى المقبرة، وهناك يضعونها في لحد صغير ويعودون، وفي الغد ستذهب الأم الى المقبرة حاملة لها بعض الزهور، كما يفعل كل الذين اودعوا أمواتهم هناك، وسأذهب معها اوبمفردي، وعندئذ سيكون لدي الوقت لمعاينة ذلك المكان الذي سترقد فيه الأخت الى الأبد.

نهضت من فراشي دون أن أقترب من أمي التي كانت تطلبني لآتي اليها. كنت أكره أن أبكي أمامها، وأكره أكثر أن أبكي أمام الناس. لقد كبرت، ومن عجب أنني ذلك الصباح استغرقت في النوم، وكان يجب أن أستيقظ باكراً حتى لايراني احد في الفراش وأختي الصغيرة مسجاة وسط البيت.

غسلت وجهي وارتديت ثيابي في المطبخ، حاولت امرأة خالي عبد الله أن تبعث بي كي العب مع أولادها في البيت، لكنني رفضت المغادرة، وخرجت الى الفناء حيث كان رجل عجوز يجلس القرفصاء، ثم لم يلبث أن جاء بضعة رجال، وتبعهم أطفال الجيران، وشرع كل منهم يحاول أن يغريني بعرض العابه علي، كما حاول الكبار أن يبعدوني دون جدوى.

عند الظهر وصل الخوري. ولم نكن قد صنعنا تابوتاً للاخت المتوفاة. وقالت الأم: «هذا لايجوز، كيف ندفنها بغير تابوت؟» فقال الخوري انها صغيرة على التابوت بعد. وأنهم في المقبرة. سيصنعون لها تابوتاً من الحجارة قبل أن يهيلوا عليها التراب. وشرع بتلاوة صلاته. ثم تقدم الأب فرفع الأخت الصغيرة على يديه الاثنتين. وخرج بها في أثر الكاهن. وسار الرجال وراءه. وأمسكت امرأة خالي بامي وأعادتها الى الداخل. وسار الموكب الصغير في بطء نحو المقبرة.

لاحقته بنظرة اسيفة حزينة وأنا أتقفى الوالد يحمل أختي الصغيرة على يديه. ويسير بخطوات هادئة

في مقدمة الموكب في أثر الكاهن. وبرغم بكاء الأم الذي كان له بكاء مماثل صامت في ذاتي ، فإنني كنت أفكر بحينا الذي يموت اكثر أطفاله وهم صغار، بسبب الأمراض وسوء التغذية، وقلت في نفسي أن الألم على الأخت الضريرة التي سبقت الى الموت كان أقل، لأنها«أراحت واستراحت»، وها أن الأخت الأخرى تلحق بها، فكأنه كتب على الأم ان تلد للمقابر كما قالت.

الموكب يسير.. يتقدم على الطريق الاسفلتي باتجاه مقبرة القديس جاورجيوس في ضاحية المدينة، وأنا أسير على مبعدة.. لاأنوي اللحاق به، ولا أنوي الرجوع إلى البيت، وأفضل لوبقيت يومي كله هكذامنفرداً بنفسي، أحرق تلك الأعشاب اليابسة في ذاكرتي عن ماضي طفولتي، واستعيد أقوال أمي، والجيران والناس عن الموت والحياة، وعن ضرورة الصبر وتحمل الشقاء. وعن الكفاح الذي يتحدث عنه عبده، والفقر الذي يقاومه فايز الشعلة وجماعته.

دفنوا أختي الصغيرة ورجعوا.. بقيت هي هناك، تحت الأرض. قالت أمي حرام أن تدفن بغيرتابوت،

وقال الخوري سنصنع لها تابوتاً من الحجارة . ان التابوت يقي الجسم من وطأة التراب، ولكن كيف يصنع الراقد تحته بعد أن ينقطع عنه الهواء؟ كيف يتنفس؟ وهل يتنفس الموتى؟ هل يحسون؟ وماذا يستشعرون وهم في حفرتهم العميقة؟

ارتجفت لهول أفكاري. كان الموت حالة أخرى، غير الحياة عندي، لكنه لم يكن انفصالا كاملاً عن الحياة في قناعتي. لم أكن أعرف أنه حيث يكون الموت لاتكون الحياة، وأن الموت نوم ثم لاشيء، ولم أستطع أن أتصور احتمال الجسم للوحدة والوحشة والظلمة في أعماق الحفرة التي يدفن فيها، وقد عذبتني أفكاري هذه فحاولت نفيها لكنها عادت تسيطر علي، ورغبت عندئذ أن أرى عبده وأن أفضي اليه بكل تصوراتي ومخاوفي.

بعد الظهر رجعت إلى البيت. كان فارغاً من الناس. الوالدة تجلس على الخوان وقد غطت رأسها بشال أسود، وفي يدها منديل تكفكف به بقايا دموعها، والوالد جالس قرب العتبة، صامت في احترام لطيف الموت الذي لايزال يحوم في فضاء البيت.

ندهتني أمي عندما وقفت قرب النافذة . كانت قد سألت عني وبعثت الأولاد في طلبي ، وكانت في خشية علي وحاجة إلي .ان لديها ، الآن ، فيضاً من حنان تريد أن تغمرني به في محاولة للتعزي ، وقد قبلتني عندما اقتربت منها واجلستني قربها قائلة :

– اين كنت ؟

– في الحديقة !

– بحث الأولاد عنك فلم يجدوك .

– كنت أجلس وراء شجرة .

– وماذا كنت تفعل ؟

– لاشيء .

– لاتجلس وحدك مرة أخرى .. العب مع الأولاد، هذا أفضل . . .

ولم اتكلم . . .

دخلت غيمة الصمت السائدة ، جو البيت ، وانكسر نظري على الأرضية الترابية والجدران العارية ، واشفقت ، بغير تحفظ ، على الوالد ، وسقطت دمعة من عيني وأنا أنظر إلى مكان أختي الشاغر .

— ١٤ —

غرق حي « الصاز » في مستنقع البؤس ،
فوق غرقه في مستنقع الوحل أقبل الشتاء
والبطالة تزداد انتشارا في المدينة . جاءت الأنباء
من المدن السورية الأخرى أن الأزمة الإقتصادية
قد لحقت بها على نحو متفاوت ، وأن اضرابات العمال
قد انتشرت في البلاد ، غير أن اسكندرونة ، باعتبارها
المرفأ الرئيسي ، عانت من الأزمة معاناة مضاعفة ، لأنها
تعيش على حركة البحر ، هذا الذي تجمد فلا صادر عنه
ولا وارد إليه .

كان الاضراب ، هنا ، غير وارد. لم يكن ثمة عمل
ليكون هناك اضراب ، وقد شهدت حديقة المنشية جموع
العمال العاطلين افواجا افواجا ، وكثرت الإجتماعات
والمناقشات ، وكثر ، أيضا ، توزيع النشرات ضد الحكومة
والانتداب الفرنسي ، وطارد رجال البوليس المحرضين
وموزعي النشرات ، واختفى فايز الشعلة نهائيا ، ولم

تفلح كل مداهمات رجال الأمن الفرنسي العام لبيوت الحي في القبض عليه .

قيل أنه هجر المدينة ،

قيل أنه يختبىء في مغارات الجبل .

وقيل أنه ترك الحي ، بعد أن كثرت المداهمات له .

ومع هطول الأمطار ، في أول الشتاء ، تحول « الصاز » إلى بحيرة من المياه العكرة ، تبدو فيها البيوت كشمندورات(١) عائمة ، متفرقة ، ولا يظهر من ادغال البردى سوى الرؤوس. كانت المياه تأتي من البحر ، وتنز من الأرض ، وتتجمع في تلك المنطقة السبخة الواطئة عن مستوى الأرض ، فتنتشر منها رائحة نتنة كالتي لمعامل الإسمنت .

وفي كانون الأول من ذلك العام ، دام هطول الأمطار اسبوعا كاملا فتصاعدت المياه وغمرت بعض البيوت ، وانتشرت الزواحف فيها ، وصار الطين مغرزة ابتلعت بعض الأطفال فلم يعثر أحد عليهم ، وكنا نحن ، البشر ، نوعا اضافيا من الحشرات والزواحف التي ترتع فيها ، وجيرانا أدنى مرتبة من البهائم التي كانت تعيش على

---

(١) الشمندورة هي الكرة العائمة في البحر لتحديد العمق للسفن .

التل ، حيث تطرح قمامة المدينة ، وننبش فيها بين الخنازير .

كانت سقوف أكواخنا من قش يشبه الحلفاء ، وجدرانها من قصب وطين ، وكنا نحفر ، حول الأكواخ ، خنادق لتصريف المياه عند توقف الأمطار ، وفي هذه الخنادق كانت تسبح الأفاعي والضفادع ، فإذا خرجت من المياه دخلت أدغال « البردى » وهناك يتعالى النقيق في الليالي ، وتنبعث صيحات مديدة ، حادة محزة ، كسكين صدئة ، على بلاط القلوب ، ترسلها الضفادع نداءات استغاثة وهي في أفواه الأفاعي التي تبتلعها على مهل .

لم تكن بين البيوت أشجار ، لم تنبت ، ولم تزرع ، وقد لاتعيش بسبب الأرض المالحة ، وكانت المياه ، عندما تنحسر بعد انقطاع الأمطار ، تظل تغمر الحي بوحلها الصلصالي ، وتبلغ العتبات في البيوت الواطئة ، وكان سكان الحي ينقلون أحجارا كبيرة يضعونها كمعابر ينتقلون عليها قفزا من حجر لآخر ، ويضطر الأباء والأمهات إلى حمل أولادهم على الأكتاف إذا أرادوا التزاور ، ولايسمحون لهم بالسير خوفا من السقوط والتغريز في الأرض السبخة .

ولقد خلفت البطالة ، هذا العام ، فقراً أسود ناخ بثقله على صدور الناس ، وانقلب ، بعد تقدم الشتاء، إلى مجاعة حقيقية ، وانتشرت الاوبئة من جراء سوء التغذية والمياه النتنة وجثث الكلاب والقطط الدابحة فيها ، وعندئذ ظهر ذلك الشيء العجيب الذي رأيناه لأول مرة : عشرات الضحايا الذين ماتوا في أيام معدودات من مرض لم يعرف أحد سره ، وشيعهم الحي وهو يحرق الكلس في الأماكن التي ماتوا فيها .

حديقة المنشية وحدها ، لوقوعها على مرتفع مجاور ، نجت من الغمر ، فلم يتشكل فيها مستنقع صلصالي ، وكانت أشجار الكينا تتسامق في هذه الحديقة طويلة ضخمة ، وكانت ، إضافة إلى الفيء الذي توفره في الصيف ، صيدلية مجانية لنا . فنحن نجمع أوراق شجر الكينا ، وأحيانا نكسر بعض غصونها ونجردها من الأوراق التي نغليها ونشرب ماءها لمكافحة الملاريا التي كانت تفتك بنا .

ثم آن هذه الحديقة ، عدا تجمعات العمال العاطلين فيها أيام الأزمة هذه ، كانت لها بعض الفوائد . ففي ظلها يلتقي فتى وفتاة ، ووراء الجذوع تنخطف قبل ، وعليها تنقش أسماء وذكريات ، وعلى الفروع الثخينة

يعلق الذين ضاقوا ذرعا بالحياة حبالا ، ويشنقون أنفسهم بكل بساطة . وتحت الشجرة العتيقة ، الضخمة جدا . كان ينام ابن السوف الذي لابيت له ، وقد زعم أن جنية تخرج له في أنصاف الليالي ، فتجلس في حضنه ، أوينام على ركبتها ، وشعرها الأسود الطويل يغطي وجهه ، وانها ستحمله يوما إلى مملكتها ، فيتخلص من الحي ، ويسعى لأخذنا جميعا نحن الباقين ، إلى حيث لافقر ولاصلصال .

على هذه الشجرة العتيقة ، الجبارة ، حفر رجل اسماً بحروف كبيرة ، عميقة ، عندما اشتد الجوع في الحي شتاء ذلك العام القاسي . كان غريبا عن الحي ، وقد ابتنى لنفسه كوخا في آخره من جهة البحر ، ولم يكن يزور أو يزار : وقيل أنه يعمل منظفاً في السكة الحديدية ، وحامت حوله الشبهات والتكهنات إلى أن اعتقله البوليس أثر كتابة اسم الرجل الثوري ، وفتش الكوخ الذي يسكنه . وصادر كتبا ونشرات ، وتحرى وسأل عما كان يفعله الرجل الغريب ، فانكر الجميع معرفتهم بما كان يصنع ، لكن رجال البوليس تتبعوه وقبضوا عليه ، فاعترف أنه هو الذي كتب ، على جذع شجرة الكينا ، اسم الرجل الثوري . وأنه يتحمل المسؤولية وليس للحي علاقة بذلك .

ولم يصدق الفرنسيون طبعاً . كان الحي بفقره وصلصاله . مباءة للأفكار الخطرة في نظرهم، ولهذا كبسوا بعض البيوت فيه ، وسألوا عن فايز الشعلة ، وقادوا الرجل الغريب إلى المنشية والخلق يتراكضون وراءه ، وهناك وقف ضابط فرنسي وأشار إلى الإسم المحفور عالياً على الجذع بكرباجه ، وانصرف والرجل الغريب معه مكبلا بالقيود بعد أن أصدر أوامر لم نفهم منها شيئا .

في ذلك اليوم اوقف الأرمني حارس المنشية ، وجاء شرطي بسلم وصعد عليه ومحا الإسم عن جذع الشجرة بتشويهه ، لكننا ، نحن الصغار ، كنا قد حفظناه ، وطافت الحي ، ذلك المساء ، حكايات عجيبة عن الاسم الذي محي ، والذي صاحبه في بلد لاندري أين ، انزل الملك عن العرش ، وفتح قصور الأغنياء للفقراء ، ووزع عليهم الأراضي والخيرات ، ورفع الظلم عن الناس .

وقام الرجال في الظلمة ووسط الطين ، يرون إلى « الكوخ المشموس » (١) ويطوفون حوله . لم يقترب منه

---

(١) المشموس: المشتبه به .

أحد ، ولم يجرأوا على دخوله ، لانعجوزاً أكد أن الليلة سيكسبونه مجددا ، وأنهم قد يكونون مترصدين بين الأدغال ، لمعرفة من يتردد عليه. وأقسمت امرأة أنها رأت بوليساً بثياب مدنية ، يدخل الكوخ ويغلق الباب عليه .
ونقل هذه « الأقاويل » اسبيرو الأعور » من بيت إلى بيت ، وهو يخوض في الوحول حافيا ، مكشوف الرأس ، مفتوح الصدر ، شاكلا سيكارة وراء أذنه ، ومن شواربه التي تتهدل على شفته ، وفمه الواسع ، تفوح رائحة عرق التين الكريهة .

كانوا ، في البيوت التي يدخلها ناقلا هذه الأخبار ، يرجونه أن يقعد قليلا ويتحدث ، فيرفض لان « الليلة حامية » كما يقول ، وسيعود إليهم ، حتما ، بالأخبار الجديدة . وقد قرفص عند قدمي والدي قرب الخوان ، وجرع كأسا دفعة واحدة ، وتناول قليلا من الملح فنثره على لسانه ، ومسح فمه بقفا كفه ، ولف سيكارة ، وقبل ركبة الوالد دونما سبب ، وتحدث عن صاحب الإسم المكتوب على الشجرة ، الذي « أنزل الملك عن العرش ووزع البيوت والخيرات على الفقراء » وقال لأمي : « ابشري ! » فنصحته الوالدة أن « يربط لسانه » والاقطعوه .

عندئذ هب واقفا ، طويلا ، متطوحا ، وركّز عليها عينه السليمة ، بتحديقة جانبية ، وأقسم قائلا « وحياة هذه الكريمة(١) – واشار إلى عينه – ماأنا ساكت ولو قطعوا رأسي ! » والتفت إلى والدي ، بهيئة من يخاطب رجلاً يفهمه وقال : « ليقطعوه . . ليقطعوا لساني ورأسي . يوفروا علي حق الحبل . . » وفتح الباب وألقى نفسه في الظلمة .

صار الرجل الغريب الذي كتب الاسم على شجرة الكينا العتيقة ، مناضلاً آخر . من عندنا هذه المرة . أصبح . دون أن يعرف أحد اسمه الحقيقي . عزيزا على القلوب مضيئا في تلك العتمة . ومنذ أن عرف الناس سره ، راحوا ينتظرون عودته . ليسيروا معه . ويقلبوا « عرش السلطان » . ويوزعوا البيوت والخيرات والأراضي على الفقراء . وطفقوا يمشون وأقدامهم تهدد الأوحال والبعوض الذي يأكل وجوه الأطفال والأفاعي التي تنساب في الخنادق . وتبتلع ضحاياها في الأدغال . وكانوا اسبيرو الأعور يتابع جولاته الليلية قائلا : « ابشروا » . ويقص عليهم ماتناهى إليه . وما قاله الذين « يعلمون » . ويزورون الحي . خفية . ويجتمعون ببعض الرجال .

---

(١) عين الأعور السليمة تسمى « الكريمة » عند عامة الشعب .

فجأة أدرك « المخوضون في الوحول » أن الخلاص من حي « الصاز » ممكن ، وأن هذه اللعنة ليست أبدية . وتحدثوا بذلك أمامنا ، نحن الصغار ، وهكذا تعمشقنا ، ولدا على كتف ولد ، وأعدنا حفر الاسم على شجرة الكينا العتيقة ، وقد أبلغ حارس المنشية ذلك إلى الشرطة ، فطلبوا منه أن يمحو الاسم ، ولكي ينتهي منه ، أخذ بلطته وهوى بها على الجذع ، فكشطه إلى عمق فتر ، لكننا ترصدنا في اليوم التالي غيابه في السوق ، واعدنا حفر الاسم في موضع آخر فعاد وكشط الاسم مرة أخرى .

صار الأمر تحديا.وجدحي«الصاز » أخيرا وسيلةلأثبات وجوده أمام السلطة ، فراح الكبار يحرضون الصغار على إعادة حفر الاسم ، وهكذا ، تعبيرا عن حقدنا على وضعنا البائس ، ونكاية بالحكومة ، حفرنا الاسم على جذوع كثيرة ، فجن جنون الحارس ، واشتكى من جديد ، وا فقنا ، ذات صباح،على عمال البلدية يسيجون الحديقة باسلاك شائكة جديدة .

خاف بعضهم من التمادي ، ونصحوا بالاقلاع عن «نطح الصخر » والبعض الآخر حزن على الحديقة،

وأسف على الحرمان من فيء اشجارها وفوائدها الأخرى .
ومضت ليال واسبيرو الأعور غائب ثم عاود تطوافه ، حافي القدمين ، مشعث الشعر ، هاتفاً حيثما دخل : « ابشروا المنشية لكم منذ الغد » .
وفي الغد وجدنا الأسلاك مقطوعة بمقراض ، وجذوع الأشجار تحمل الاسم ، محفوراً كيفما اتفق ، ولكنه واضح لاتخطئه الأبصار .

انتشرت بعد ذلك إشاعة مخيفة تقول : « الحكومة قررت قطع جميع الأشجار ! » . كانت الضربة فوق مايتحمله الحي . وقالت العجائز : « هذه نتيجة الولدنات »
وتصور أهل الحي الصيف دون منشية وأشجار ، والمرضى دون شراب كينا ، كما تصوروا البعوض والغبار والحر ، وغياب الاسم الذي أنبت لهم أملا ، فقرروا أن يقفوا في وجه « الحكومة » ولو أطلقت عليهم النار .

كان البقاء هنا ، في مملكة الأنس ، إلى أن يأتي اليوم الموعود ، وتوزع فيه البيوت والخيرات على الفقراء ، قد استقر كاليقين في الضمائر ، وفقدت حكاية « ابن السوف » عن الجنية التي ستحمله وأهل الحارة إلى مماكتها ، تأثيرها وبهرجها السابقين . ان دنيا من الخيال عن العدل قد رفت في جو المستنقع ، فجعلت ناسه يحلمون ويصممون

على الكفاح ، وقد تشاوروا فيما بينهم عن عمل لمجابهة سلطة المستشار ، وتحويل المعركة إلى عمل وطني ضد الفرنسيين ، وطاف في الليالي انصار فايز الشعالة على البيوت وحرضوا السكان ، قائلين ان « الكريزة » ستقضي على الجميع ، وأنه لابد من رفع الصوت ، وان المعركة ، ولوحول اسم ، هي معركة ولابد من خوضها ، وان المدينة ستتضامن كلها مع حي « الصاز » لان « الكريزة » شملت الجميع .

تجمهر الناس في الصباح للقيام بالعمل الذي قرروا القيام به . كانت الخطة تقضي بأن يخرج الرجال والنساء والأطفال بالعصي والفؤوس والحجارة وكل ما وصلت اليه أيديهم ، وأن يتوجهوا إلى المنشية ، ويتحلقوا حول الأشجار ويمنعوا قطعها . واقترح شاب أن تكون للحي «بنديره» (١) يركزها على سارية في المنشية . وقال آخر نرفعها أمامنا عندما نخرج لكي يعرفوا أن المسألة جد . وصفّق اسبيرو الأعور وقال : « ابشروا . . أنا أحملها »،ودقّ بقبضته على صدغه ، وأشار إلى رأسه قائلا : « « لم أعد بحاجة إلى هذا اللعين . . ليقطعوه اذا استطاعوا ، فداكم » وبحركته

---

(١) علم

هذه سقطت سيكارته التقليدية من وراء أذنه ،فراح يبحث عنها بين الأرجل والأوحال .

المهم أن اشاعة قطع الأشجار لم تتحقق . ربما كانت كاذبة أصلا . وربما خشيت السلطة تفجير الموقف في المدينة اذا نشبت المعركة مع أهل « الصاز » في وقت الأزمة هذا ، وقد تكون فكرت أن الذين كتبوا الاسم على أشجار المنشية قادرون أن يكتبوه على أشجار المدينة كلها ، فكيف يمكنها قطع جميع الأشجار ؟ وروي ، بعد ذلك ، أن فايز الشعلة قال ان الحكومة أدركت أن هذا الاسم قد أصبح منقوشا ، لاعلى الأشجار والجدران فحسب ، بل على قلوب الذين يريدون لأوطانهم الحرية ، ولشعوبهم السعادة، ومن المستحيل اطفاء الشمعة التي أنارت جانبا من ظلام الحياة ، كما من المستحيل محو الاسم أو الفكر أو الايمان الذي تغلغل في الصدور بأية طريقة وأية أداة .

مضى اسبوع على ذلك ولاجديد . اطمأن الحي إلى أن الأشجار باقية ، ووجد في ذلك نوعا من الانتصار على السلطة،فازدادت حماسة الذين مشوا في مقدمة الصفوف . عندما خرج الحي ليمنع قطع أشجار المنشية ، وتجرأ الذين

كانوا مترددين، وكثر تردد جماعةفايز الشعلةعلى الحي ، وقيل أن اجتماعات سرية تعقد في بعض البيوت ، وأن حدثا ما سيقع ، لايعرف أحد ماهو ، ولا متى يقع ، وعاش الحي في ترقب وانتظار ، وبات انتقاد الحكومة ، والجهر بالعداء لها ، والمطالبة بالعمل والخبز شيئا مألوفا وعاديا ، وبالمقابل كثر ظهور رجال الأمن في المنشية ، وعلى الدروب حول الحي .، دون أن يغامروا بدخوله كالسابق .

لقد تفجّر حقد ملتهب في الصدور . لم يعد الناس يبالون بالتهديد الذي يشيعه المختار وبعض أعوان خواجات المرفأ . صار السجن سهلا . صار الموت سهلا . كانت البطالة تستحكم ، وكل يوم يجد فريق جديد من الرجال أنفسهم بلا عمل ولاخبز ، ونفدت بقايا المؤن من البيوت ، واصفرت وجوه الأطفال من الجوع . واستولى على الحي يأس غضوب ، يمازجه استعداد للاقدام على ايما عمل من أعمال العنف ، ولو كان هجوما على السراي لتحطيمها ، أو هجوما على الأسواق لانتزاع ما فيها من مواد غذائية .

كان الوالد ، في هذا الوقت ، يبيع المشبك . وكانت الأم تعمل خادما ، والاختان تخدمان أيضا . ولم يكن في

بيتنا سوى مؤونة قليلة . وكان الوالد قد قبض أجر الأختين سلفا ، ولم يعد أجر الأم يكفي ثمنا للخبز ، اضافة إلى أن الوالد كان يرغمها على أن تستلف له كلما كسدت الحلوى التي يبيعها ، ولم يعد معه مايشتري به السكر والطحين والزيت لصنع حلوى جديدة .

إن هذه العملية الشيطانية الأليمة ، للحصول على رأس المال البائس كي يصنع منه حلوى بائسة ، ونفاذ هذا الرأس المال في مدة وجيزة ، نتيجة للكساد واستهلاك قيمة الحلوى وربحها من قبل الأفواه الفاغرة في العائلة ، ينضاف إليه سكر الوالد ، الذي يبدد حلواه ورأس ماله ، كل ذلك كان محزنا لي أشد الحزن . كنت أتوقعه كالمصيبة ، كاللعنة، كالوحل الذي يغمر الحي بعد المطر ، وكصيئات الضفادع وهي في أفواه الأفاعي ، وقد انتهيت ، بيني وبين نفسي ، إلى نوع من اليقين في أن الوالد قد خلق على صورة الخاسر ومثاله ، وأنه لن يكون إلا خاسرا ولو دميت قدماه وهو يسعى على الدروب ، ومن هنا تولد في ذاتي نوع من الإشفاق عليه ، ونوع من المسامحة المنطوية على رثاء بالغ الخيبة .

ولقد أملت ، والحي يضطرب بالنقمة على الفرنسيين

والسلطة ، ويمور بغضب على حالة البطالة والجوع التي تردى إليها ، أن أرى الوالد ينفعل بذلك ، ويخرج مع الخارجين إلى المنشية ليمنع قطع أشجارها ، او يجتمع في الليل سرا مع المجتمعين ،ويثور على وضعه كالآخرين، لكن أملي خاب ، وظل الوالد على لامبالاته، همه السكر والنساء في القرى التي يقصدها ليبيع الحلوى .

وكان له في الحي أشباه . كانوا فقراء مثله ، ومنسحقين او لامبالين مثله ، يردون مانعانيه إلى مشيئة الله ، ويجدون في تحدي السلطة لعباً بالنار ، أو طيشا لاجدوى منه ، ويقولون ، ماأن يفاتحوا في الأمر ، عبارتهم التقليدية : العين لاتقاوم المخرز ، فكنت أفكر في ذلك طويلا . واقتنع حينا وأرفض الاقتناع أحيانا ، ويفجعني أن والدي الذي لا يكترث بالموت ، ولا يخاف التغرب وقطع الجبال في الليالي ، ولاترهبه الظلمة ، ولا الأشباح ، لايفعل مايفعله الآخرون من مشاركة في الاحتجاج على البؤس الذي نحن فيه ، ليكون لي أن أفتخر به في هذا المجال على الأقل ،أنا الذي لم يتيسر لي أن أفتخر به في المجالات الأخرى .

ماذا كان ينقصه ؟ من أين تنبع لامبالاته هو الذي

عرف كل أنواع الشقاء ؟ وكيف يقبل ، برضى بالغ ، أن تخدم أختاي وأمي ، ليأكل هو ونحن معه ؟ كنت أنظر إليه خفية ، وأقيس ، في خيالي ، قامته بقامات الرجال ، وساعديه بسواعدهم ، ورأسه برأسهم ، وأجد كل شيء مطابقا ، فازداد حيرة وعجبا ، وأزداد غماً ومقتا ، وأخشى ، أو أرغب ، عن سؤاله حول هذه الأمور ، وأندفع في حب المناضلين ، وأتمنى لو أكون كبيراً لافعل مثلهم ، في نوع من التعويض عن تقصير والدي الذي كان يحزّ في نفسي .

لقد كنت أجهل ، انذاك ، أن النضال يقترن بالوعي ، وأن على الفقير أن يعي فقره ، وأن على العار أن يصير عاراً علنيا ، لكي يحدث صدمته المتوقعة ، كما كنت أجهل أن الرجولة ، لاتتوقف على قامات الرجال ، وأن شجاعة القلب هي الأصل ، وأن النخوة والمروءة ورفض الذل والضيم ، هي التي تصنع شمائل الذين يرفضون الظلم ويقاومونه .

وبدافع فطري ، واعجاب له براءة الطفولة وطهرها ، وافتتان له جاذبية حلوة وطاغية . أعطيت قلبي كله ، وجودي كله ، ومشاعري كلها ، إلى فايز الشعلة . . .

صار بطلي وفارس أحلامي والمنقذ المرتجى لأمي وأخواتي، وللحي برجاله ونسائه ، "وللصاز" بصلصاله وزواحفه . بل إنني أحببت اسبيرو الأعور . صار جميلاً وسيماً في نظري ، وصار عبده حسني أستاذا من أساتذتي ، وذهبت أبعد من ذلك فأحببت الشاب الذي كان يمثل عنترة في الكرنفال، وأعجبت بالذي حمل البيرق، ليلة الإحتفال بالغطاس والخروج إلى النهر ، وفتنت بالذي اقترح أن يكون للحي « بنديرة » ورفعها في الزحف على المنشية، امتلأت نفسي وتشبعت بحب كل هؤلاء الرجال، وبقيت ، من بعد ، وفياً لحب الرجولة ، ومكبراً لها طوال حياتي. ولكم كرهت نفسي ، طوال حياتي أيضا ، لأني قصّرت عن أن أكون، في بعض المواقف ، مثل هؤلاء الرجال الذين عوضت تقصيري بتمجيدي لهم في كتاباتي ، وأني لأغتنم هذه المناسبة فأقول : مباركة رجولة الرجال ثلاثا . والمجد للذين يقولون كلمة الحق ولا يبالون ، في أي بقعة كانوا ، أو سيكونون .

كل مافعلته ، لاجل حينا ذاك ، وانا في الثانية عشرة من عمري ، انني كتبت الاسم الذي محته الشرطة على الأشجار .

كتبته كثيرا . وعلى أشجار كثيرة ، في منشيتنا تلك ، ومدينة اسكندرونة التي هاجرت منها مرغما بعد أن دخلتها تركيا ، وطالت هجرتي عنها ، طالت طويلا . . ولما تزل .

كان الرجال يرفعونني على أكتافهم ، فأكتب الاسم ، بخط كبير ، على جذوع الأشجار ، ويقومون هم ، بسكاكينهم ، بحفرها . . . .

وكانت تفعمني لذلك حماسة وسعادة ، فأصرف وقتي في تحسين خطي، وبري أقلامي ، والاستعداد كل وقت ، للقيام بهذا العمل الصغير ، الذي كان كبيراً في نظري ، بل كبيراً جداً .

وعندما ، بعد ثلاثين عاماً،عدت إلى اسكندرونة . خلال مروري بها في طريقي إلى بلاد بعيدة ، كان أول مافعلته أن أسرعت إلى حديقة المنشية ، لأرى ما اذا كانت أثار طفولتي ماتزال منقوشة على أشجارها ، فلم أجد الحديقة ولا الأشجار . كانت قد تحوّلت إلى باحة عند مدخل المدينة . وامحى أثر ذلك الماضي البعيد ، وبقيت من الحي آثار هي أطلال . وكانت الأطلال تحمل بقايا ذكريات . . . وكانت ذكرياتي حزينة ،

لأنها استعادت ، في ومضات استرجاع سريعة ، كل حكايا أيامي الحوالي ،وكل أويقات الطفولة المهاجرة .

أيتها الطفولة ، إنني أباركك ، وأحبك ، برغم ماعرفته فيك من شقاء .



-١٥-

رأيت فايز الشعلة بعد ذلك بأيام ، كان جسورا مقداما كما انطبعت صورته في ذهني . وكان قد ظهر بعد اختفاء ليقود مظاهرة تهتف ضد الفرنسيين والبطالة والجوع . وكنت إلى ذلك الحين لم أر مظاهرة أو أشترك فيها . ولم أكن قد عرفت أو سمعت أن مظاهرة ستخرج . الأغلب أن أمرها قد تقرر في تلك الاجتماعات الليلية التي كانت تعقد في حينا والأحياء الأخرى ، وكان على رأس هذه المظاهرة عمال المرفأ .

أطلت علينا ، ونحن نلعب قرب المنشية ، من الشارع الذي يمر أمام الحي ، على المرتفع بينه وبين المدينة ، ويذهب طولا إلى البحر ، قرب الملعب البلدي وشركة عرق السوس ، ولم نتبين من أين انطلقت ، لأننا رأيناها تتقدم عن بعد . والمرجح أنها تكونت في آخر الحي ، من جهة البحر . وهناك تجمعت واندفعت باتجاه مدخل

المدينة ، لتخترقه بعد ذلك في الطريق الذي يشق المدينة ، وهو شارعها الرئيسي ، إلى السراي .

كانت ترفع أعلاما ولافتات لم أعد أذكر مافيها ، وارجح أنها كانت تتضمن شعارات كالتي يهتف بها المتظاهرون ، وكانت تتضخم في كل خطوة على الطريق ، ويتراكض الناس من حي « الصاز » لينضموا إليها . وقد شاهدت الكثيرين من جيراننا ، وكثيرا من الرجال الذين كانوا يجتمعون في المنشية، والذين تحدوا السلطة وقصوا الأسلاك الشائكة حول الحديقة، والذين أضنتهم « الكريزة » فباتوا شبه جياع هم وعائلاتهم . كما شاهدت « اسبيرو الأعور »، يركض حول المتظاهرين ويدعو الناس إلى الانضمام إليها،ويدور حولها كأنه قائد كشفي يدور حول الكشافة ، ليضبط انتظام سيرهم .

ولقد ركضنا ، نحن أولاد الحي ، وانضممنا إلى المظاهرة ، وركض بعضنا أمامها ، ورحنا نتلفت إلى وراء لنرى ضخامتها التي تزداد كلما طال سيرها وتقدمت نحو قلب المدينة ، وكان بعض رجال الشرطة يسرعون باتجاه المتظاهرين ، لكنهم كانوا

يظلون على مسافة منها ويتراجعون أمامها ولا أدري لماذا. وقد فرحنا وحسبنا أنهم يخافون منها ، ورغب بعضنا برشقهم بالحجارة ، الا أن الرجال منعونا ، وسمعت فايز الشعلة يصرخ : المظاهرة سلمية ولن نضربهم إذا لم يضربونا، كفوا عن رشق الأحجار ، وسيروا بانتظام .

وكان مفرحا لنا ، أيضا ، أن المظاهرة ما كادت تقترب من السوق ، حتى راح أصحاب الدكاكين يغلقونها ، وهكذا ، بعد ظهر ذلك اليوم ، رأيت أول إضراب في المدينة ، ترافق مع المظاهرة أو حدث بسببها ، واقفرت الأسواق ولم يبق في الشارع إلا جموع الرجال والأولاد الذين يتقدمون تحت الرايات واللافتات باتجاه السراي .

وهناك ، في باحة السراي ، توقفت المظاهرة ، وتكاثر رجال الشرطة وضربوا نطاقاً حولها ، لكنهم لم يجربوا أن يفرقوها بالقوة . اكتفوا بالانتشار حول الساحة ، وتجمهروا أمام باب السراي وحول مداخلها . وصعد فايز الشعلة على كتف أحد الرجال وراح يلقي خطاباً والمتظاهرون يصفقون ، وقد برز في شرفة السراي

المستشار الفرنسي وبعض معاونيه . وقيل أن بينهم ترجمانا كان ينقل كلام الخطيب من العربية إلى الفرنسية .

تصاعدت حماسة الناس ، ودوى التصفيق بأعنف مايكون ، وكانت بعض الهتافات تقاطع الخطيب ؛ وكنا نردد كلمات يسقط ويعيش دون أن نفهم مايقال ؛ ونردد لازمة « بدنا شغل وبدنا خبز » مع الرجال ؛ وكان الخطيب يذكر الاستعمار ، وعندئذ تتعالى هتافات « يسقط » فإذا ذكر سورية أو الإستقلال تتعالى هتافات « يعيش » وتسري بين الجموع موجات مكهربة من الاندفاع فيتراصون محاولين التقدم إلى أمام ، باتجاه الخطيب . أو يتحركون في أماكنهم وقد بلغ بهم الحماس أقصاه ؛ وهم يلوّحون بأيديهم تلويحات غضب باتجاه شرفة السراي .

انتهى فايز الشعلة من كلامه فنزل ؛ ورأينا رجلاً آخر يصعد ويخطب أيضاً ؛ ثم تلاه ثالث ؛ وكنا نتمنى ألاّ تنتهي الخطابات ؛ لما فيها من حميّة وإثارة ، ولما كانت تبعثه فينا من مشاعر موّارة ؛ وكان الخطيب الثالث جهوري الصوت ، قوي النبرة ، وذكر الرجال من حولي أنه « فلان » وقال آخر آن الخطباء يتكلمون

باسم الجميع ، باسم الوطن ، باسم سورية ، وقال آخرون آنهم يشرحون الأوضاع ويحتجون على البطالة والغلاء ، ويهاجمون الانتداب الذي هو سبب « الكريزة ».وكنت اصغي بانتباه وفرح إلى كل مايقال ، وأجد أنه يصوّر حالنا في حي « الصاز » ، وأحاول الاقتراب من الخطباء قدر استطاعتي . كنت أريد أن أستوعب مايقولون ، وأن أرى إلى وجوههم ، وأتلمس ، عبر النظرات ، تلك التقاطيع الرجولية الشجاعة لاناس يقولون في وجه الحكومة مايريدون ولايبالون ، ويقودون مظاهرة بهذه الضخامة ويستحوذون على الجموع بكلماتهم اللاهبة .

في تلك الامسية بالذات اعتقل فايز الشعلة وآخرون. اعتقلهم البوليس السري عندما تفرقت المظاهرة ، كانوا يراقبونهم وقد اندسوا بين الناس ، وتابعوهم بعد ذلك واعتقلوهم ، وانتشر الخبر في المدينة كلها أن المعتقلين موجودون في سجن النظارة بالسراي ، وأنهم سيساقون إلى حلب إذا لم يهب الناس إلى انقاذهم وارغام السلطة على اطلاق سراحهم .

رجعنا من الأحياء جماعات جماعات ، كان الرجال والأولاد يتراكضون في الطرقات والشوارع ، ويتجهون كلهم إلى باحة السراي ، وكان الخبر ينتشر أوسع فأوسع ،

وكلما بلغ المسامع ترك الناس بيوتهم او عادوا من النقاط والأماكن التي وصلوا إليها في طريق العودة ، وتقاطروا إلى السراي ، في اندفاعة عفوية هذه المرة ، وهم لايدرون ماذا يفعلون ، وان كان بعضهم ، قد شرع في جمع الحجارة والتسلح بالعصي للهجوم والمقاومة .

امتلأت الباحة بالمتجمهرين . وطلعت من بين الجموع قيادة جديدة لمظاهرة جديدة، هدفها اطلاق سراح المعتقلين، لأن المظاهرة كانت سلمية ، وهدفها شرح الأوضاع ونقل مطالب الناس إلى السلطات ، وهذا ماتم بالفعل ، ولم يقع أي حادث إخلال بالأمن لتستغله السلطة وتعتقل الذين اعتقلتهم ،وعلى هذا فإن ماقامت به هو عمل عدواني، ارهابي ، القصد منه إخافة الناس ، وكسر شوكة الجماهير المطالبة بحقها في العمل والخبز .

كل هذا الكلام سمعته من رجل لاأعرفه ، ولكنه كان يقف في حلقة من الرجال ، وسط الساحة ، وكان الرجال يتشاورون فيما يجب أن يعملوه ، وقد أدركت من ذلك أنهم يتزعمون الحركة الآن ، وأن على رأيهم يتوقف ماينبغي أن يقوم به الاخرون ، وكانت الساحة لاتني تغصّ بالناس ، حتى امتلأت كلها ، وبدأ

الزحام ، في محاولة للتقدم باتجاه الباب الرئيسي للسراي .

كان ثمة كثيرون من أبناء حينا.لقد رجعوا جميعا . كانوا الأفقر بين سكان الأحياء ، والأكثر حماسة واستعداداً للمعركة . ولم يكن لأغنياء المدينة من أثر هناك ، وليس بين المتجمهرين سوى العمال والفقراء ، كان هناك شباب أيضا ، وكان كثير من الأولاد . وكنت بينهم أيضا ،ولم يكن أهلي يعرفون أين أنا، فقد رجعت قبل الوصول إلى البيت ، وكانت فرحة كالنشوة تستبد بنا . وابتهاج يمور في الأعماق من نفوسنا ، لأن المظاهرة تجددت ، ولأن هذا الشيء الجديد علينا ، المعدي بحماسته لنا . سيطول الآن ، والمعركة ستقع مع هؤلاء الذين يحكمون المدينة ، ويحرموننا الخبز والحياة ، ويستبدون ويبطشون .

تعالت الهتافات تطالب باطلاق سراح المعتقلين . واعتلى بعض الرجال أكتاف الآخرين.وراحوا يتكلمون، وتقدمنا أكثر من باب السراي ، وفي وكدنا أن نسمع المستشار كلماتنا وهتافاتنا . لكن المستشار أمر رجال الشرطة والحرس بمهاجمة الناس وردهم عن باب السراي، وعندئذ وقعت أولى التحرشات والمناوشات . ورأينا ثلاثة من الشرطة يمسكون برجل ويضربونه بالعصي والقبضات .

ثم يدفعونه أمامهم لادخاله نظارة السراي ، فهجم المتظاهرون على الشرطة واستخلصوا الرجل منهم ، وبدأ الاشتباك الكبير الذي امتد على طول الساحة ، وسمعنا ، فجأة ، طلقات رصاص ، وماجت الساحة بالجموع التي اضطربت مابين كر وفر ، وشرع الناس يتراكضون في كل الاتجاهات ، وازدادت الهتافات وسمع صوت تكسر زجاج من الحجارة التي أخذت تنهال على واجهة السراى الأمامية وعلى جوانبها من الطرقات والمنعطفات التي يتمترس فيها المتظاهرون .

هكذا، بفعل الاستفزاز، تحولت المظاهرة عن نهجها السلمي. ان المعركة الدامية التي وقعت كانت شيئاً مفاجئاً للناس. كانوا عزلا من السلاح، وليس لهم الا ايديهم وجسومهم، وقداندفعوا في موجة غضب فبلغوا درج السراي، وأخذوا يدفعون الباب لاقتحامه، وعندئذ حدث ذلك الشيء الرهيب الذي رأيته لأول مرة وهو: الدم!

وصلت قوة من السنغال، ونزل الجنود من السيارات التي اندفعت تشق الجموع وتدهس من يقف في طريقها، وفور وصول القوة العسكرية طفق الرصاص، في زخات قوية متتابعة. يئز فوق الرؤوس وبين الأقدام، ورأيت

رجلاً يسقط والدماء تسيل منه، فلما ركضت خوفاً محاولا الابتعاد واجهت المتراكضين من الجهةالأخرى، فاصطدم المتظاهرون بعضهم ببعض، ومن كل جانب راحوايتساقطون والدماء تسيل وتصبغ أرض الباحة التي أخذت تقفر ولا يبقى فيها الا جسوم القتلى والجرحى، والصيحات والأنات تتصاعد، والليل قد هبط، وانعقد الدخان حول المصابيح الواهنة، وانتشرت رائحةالبارود، وبدأ عويل الأطفال يختلط بأصوات الرصاص.

كانت هذه أول معركة من نوعها اشهدها. معركة حقيقية، وحشية، غادرة، يتساقط فيها القتلىوالجرحى، من الرجال والشباب والأطفال، لأن الرصاص كان يطلق بغير تمييز على الناس العزل، الذين حاولوا رفع الصوت في سبيل مطالب وطنية واجتماعية. وفيما كنت اركض لابتعد عن الساحة، رأيت اسبيرو الأعور وفي خصره لافتة ملفوفة. كانت سيكارته وراء أذنه لاتزال؛ وكان يركض لاخلاء الجرحى، فيحملهم على ظهره أو بين يديه ويعود ليسلمهم الى آخرين ينقلونهم الى الأطباء أو المستشفى. وكان ملوثاً بالدم، يتطوح في مشيته ولا يبالي ببقايا الرصاص المنطلق والجنود الذين يطاردون الناس.

ظللت اركض حتى ابتعدت عن الساحة ، وعندما صرت في الأزقة الجانبية توقفت لالتقط أنفاسي، ومن هناك تابعت سيري في شبه هرولة الى البيت. كنت مسرعاً، راغباً في الوصول، لتطمئن أمي علي، ولأقص على أهل الحي ماجرى امام السراي. وكانت أمي تقف في أول الحي، على مفترق الطرق، وهي تبكي وتسأل الناس عني، فلما رأتني فتحت ذراعيها وتلقتني وهي ماتزال تبكي، وفي نوبة بكائها وذعرها نسيت ان توبخني على فعلتي ، كانت تنظر الي وتكاد لاتصدق انني عدت، وأمسكتني من يدي وقادتني في دروب الحي الى البيت، وعندما اجتزنا البيوت سمعت عويل النساء وصرخات التفجع والحزن، ورأيت الناس يتجمهرون، ويتناقلون أخبار المعركة في كثير من الأسى والغضب. وكلما وصل قادم جديد تحلقوا حوله يستفسرون عن عدد القتلى والجرحى، وعما اذا كانت المعركة قد انتهت، وعن تفصيلاتها التي يعرفونها ويستزيدون منها.

وجرتني أمي الى البيت جراً. كانت الاشاعات قد انتشرت بأن الجنود الفرنسيين سيهاجمون الأحياء للقبض على الرجال الذين تظاهروا، وتردد في الحي بأن هؤلاء الجنود على وشك الوصول، ولهذا عمد بعض الرجال

المشتبه بهم الى الاختفاء، وأقفل بعضهم بيوتهم وذهبوا تحت ستار الليل، الى الحقول المجاورة، واقترحت أمي أن نفعل مثلهم ، لكن الوالد زجرها قائلا:

– لماذا الاختفاء طالما أنني لم أشترك بالمظاهرة، ولا ناقة لنا أو جمل في كل ماحدث؟

– وكيف نعمل اذا هاجموا الحي؟

– نغلق بابنا ونظل في بيتنا.

– سيكبسون البيت علينا.

– ليفعلوا .

– واذا قبضوا عليك؟

– ولماذا يقبضون علي؟ انهم يعرفون المشاغبين في الحي .

كنت أقف في صدر البيت مستنداً بظهري الى السرير، وكنت خائفاً لاأتكلم. أتابع الحديث بين الوالدين وأرغب في أن يوافق والدي على الخروج الى الحقول. الا أنه لم يتزحزح عن رأيه، ولا اكترث بما حدث. وزاد فنعت الذين تظاهروا بالمشاغبين . أو بكلمة تؤدي هذا المعنى، فنظرت اليه نظرة استغراب سرعان ماانقلبت الى نوع من عداء. بدا في نظري غريباً عن الحي. غريباً

عن الناس. وغريباً عني أنا ابنه.كان على لامبالاته ذاتها، لايؤمن بأي عمل يقوم به الآخرون احتجاجاً على الوضع المتردي. وكنت أرغب في أن أروي له كل ماوقع، وأحدثه عن المظاهرة، والخطابات واعتقال فايز الشعلة والرجال، وهجوم الناس على السراي لانقاذهم، واطلاق الرصاص وسقوط القتلى والجرحى، لكن الكلمات يبست على شفتي، ووددت أن أخرج الى الباحة وأبكي.

قالت الوالدة مغاضبة الوالد:

ـ أنت لاتهش ولاتبش.

ـ أنا من حجر.. دون احساس!

ـ كيف تقعد في البيت اذن ولا تخرج فتسأل عما جرى ؟

ـ ولماذا أسأل؟

ـ السنا من أهل الحي، وما يصيبه يصيبنا؟

ـ أهل هذا الحي مجانين!

ـ وأنت وحدك العاقل!!

رمقها بنظرة غضب طويلة وصاح بها من مجلسه:

ـ كفى.. لاتجعليني ألعن..

فأرسلت يدها في الهواء علامة اليأس، وتحولت الى

المطبخ لتأتيني بما آكله، وساد الصمت البيت كله، ولم نتبادل أنا والوالد أية كلمة. لقد صدمني هذا الموقف منه بأكثر مما صدمني قعوده في البيت وعدم مشاركته في المظاهرة. إن السماء حين تمطر، والخنادق حول البيوت عندما تطوف بما فيها من مياه آسنة، والأرض اذ تنز فيتشكل ذلك المستنقع الذي نغوص فيه طوال الشتاء، إن ذلك يصيب الحي كله، وكذلك عندما يأتي الصيف ويثور الغبار، ويكثر البرغش، وتنتشر الملاريا، وتعمّ الأقذار والروائح النتنة، فان السكان جميعاً يعانون من هذا البلاء على قدم المساواة، وهم الآن، يعانون من البطالة والفقر والجوع نفس مانعاني، بل نحن أشد معاناةمنهم، لأن نصف عائلتنا تخدم في بيوت الناس ، والوالدة تذهب الى بيت أسيادها في الصباح فلا تعود الا في ساعة متقدمة من الليل، وقد كان علينا، وعلى الوالد خاصة، ان يستشعر ذلك كله، وأن يهزّه مايهزّ الحي، في هذه الايلة، من مشاعر الحزن والغضب والاحتجاج على المذبحة الّتي انزلها الفرنسيون بالمدينة، فما باله على هذه الصورة الحجرية من عدم الاحساس بشيء؟ وماذا أقول غداً للاطفال من أترابي، اذا هم تفاخروا بما صنعه آباؤهم في المظاهرة والمعركة وخلال الليل؟

المصيبة ان والدي،فوق لامبالاته حيال كل ذلك، كان لامبالياً حيال مشاعرنا نحن ايضاً. انه لايفكر بتعبنا وشقائنا وحرماننا، ولهذا يظهر عدم الاكتراث امام ماجرى، بينما أمي وأنا نحس أن قلبينا ينبضان مع قلوب أهل الحي، بل المدينة بأسرها، لأننا مثلهم جميعاً، نعاني وطأة الاحساس بمرارة الحياة من حولنا.

ولقد فكرت بوالدي طويلا، وتساءلت: هل هو كسول؟ خامل؟ أناني؟ عاجز؟ ولم أتوصل الى جواب قاطع. كنت أحسبه شجاعاً، لايخاف الغربة والليل واللصوص، وأنه مستعد لمقاومة الشر، ولمشاركة رجال الحي آلامهم، فاذا هو يخيب آمالي جميعاً، مما جعلني حزيناً، غير قادر على النوم أو البقاء في البيت او الكلام معه.

ولقد انقذتني والدتي من هذا الوضع المحرج .فقد علا الصراخ والعويل في بيت مجاور فهرعت لترى ماذا حدث، ولحقت بها دون أن تأمرني بالرجوع، ورأينا الناس يتراكضون مثلنا، وقد سالت بهم العتمة، وليس بينهم من يعرف ماذا حدث، وإن كانوا قد خمنوا أن ثمة قتيلا جديداً وصل خبره من المدينة.

كان القتيل هذه المرة طفلا. وكان من لداتي في الحي، وقد لعبنا معاً طوال النهار، وبعد الظهر لحقنا المظاهرة، ثم غاب احدنا عن الآخر في باحةالسراي، وعندما سقط قتيلاً كان قربه اطفال آخرون من حينا، وقد هالهم مارأوا فصرخوا، وركض الرجال فحملوا الطفل الى منعطف قريب ومن هناك حمله اسبيرو الأعور الى البيت.

كان مسجى على الحصيرة، فوق شرشف أبيض، ملوث بالدماء التي لاتزال تنزف منه. أنا لم أر وجهه. لم يسمحوا لي بالدخول. وعندما سمعت أمه تناديه باسمه وترثيه بكيت، وظللت واقفاً خارج الباب، الى أن خرجت أمي وأمرتني بالعودة الى البيت. لكنني راوغتها وعدت فانضممت الى بعض الأطفال الذين كانوا يروون كيف أصيب برصاصة في صدره وسقط أمامهم يتمرغ على الأرض ويخمش بلاط الساحة باظافره.

عندئذ، فقط، استشعرت الخوف. كان يمكن أن تصيبني رصاصة أنا أيضاً، وأن أموت مثله، فلماذا ياالهي قتلوه، وهو لم يفعل شيئاً؟ ولماذا أطلقوا الرصاص هكذا، دون تمييز؟ انه لم يكن عند باب السراي، ولم يقذفها بايما حجر، وهو فقير، ومثل اكثر أبناءالحي،

حاف شبه عار، وكنا نذهب معاً، اكثر أيام الصيف، للبحث في القمامة بين الخنازير، وهو وحيد أبويه، ويذهب الى نفس المدرسة التي اذهب اليها، فهل لن يكون، بعد، بيننا ابداً؟ ولن نراه ولن يراه والداه؟

اقترح الاولاد أن نطوف في الحي، لان هناك قتلى وجرحى آخرين. ذهبوا فذهبت معهم. كان الصراخ والعويل يرتفع من عدة بيوت، وكانت أشباح الناس في مجيئها وذهابها بين البيوت، تبدو متلفعة بالظلام، وكان الحديث يدور حول المجزرة التي وقعت، فيروي بعضهم لبعض تفصيلاتها، وكانوا يؤكدون ان في المدينة عشرات القتلى ومئات الجرحى، وكانوا يشتمون السلطة، ويحمّلون المستشار الفرنسي مسؤولية كل ماوقع.

لقد نبتت، هذه الليلة، عشرات الأسئلة في رأسي. تضخمت الحكومة حتى صارت غولاً كبيراً بشعاً ومخيفاً في نظري. إن لديها الجنود ولديها الأسلحة، اما نحن، الفقراء، فليس لدينا شيء، فكيف نقاومها؟ كيف نقاوم فرنسا ونخرجها من البلاد كما يقول عبده؟ وماذا يفعلون بفائز الشعلة والآخرين في السجن الآن؟ وماذا سيجري غداً؟ انه لمخيف كل هذا، مخيف، والعين، كما يقول

والدي، لاتقاوم المخرز، فهل تقاوم العين المخرز؟

وتذكرت ماسمعته من العمال في المنشية، وعندئذ استعدت رباطة جأشي، وقلت في نفسي كأنما أحاول تعزيتها وتشجيعها: نعم العين تقاوم المخرز كما قالوا.



— ١٦ —

شيعت المدينة في اليوم التالي قتلاها. لم يهاجم الجنود حينا في الليل، ولكن الدوريات المسلحة كانت تطوف المدينة منذ الصباح الباكر. وفي المقبرة خطب بعضهم فوق الأضرحة، فنددوا بالانتداب الفرنسي ، وتكلموا مطولا عن «الكريزة» والمظاهرة والمعتقلين ، وقالوا ان الذين قتلوا شهداء. وتلوا برقيات وردت من العاصمة والمدن الأخرى، تستنكر ماوقع، وتفيد أن احتجاجاً ارسل الى باريس، وأشياء أخرى. ولم تقع حوادث، لأن الجنود رابطوا خارج المقابر والأحياء، ولم يعتقلوا أحداً في ذلك اليوم ، وفي المساءحمل اسبيرو الأعور خبراً مفاده ان فايز الشعلة ومن معه نقلوا الى سجن حلب وأنهم سيحاكمون ويعدمون.

هبط الليل أسود أكثر من المعتاد. كان حزنعميق، ثقيل كالرصاص، يجثم على الصدور . لم يعد الصراخ ولا البكاء ولا الولاويل تسمع. الثكالى واليتامى كانوا

ينشجون داخل البيوت فقط . وتضامن الحي مع المرزوئين فجمع الرجال بعض المال وبعض الطعام للعائلات المنكوبة، ووصل موفد من دمشق، وقيل آن تبرعات تجمع لذوي القتلى والجرحى. وتقاطر المعزون على بيوت الضحايا تحت خباء الظلمة . وذهبت الوالدة كذلك، ومنعت من الخروج . فلذت في ركن من البيت ، حيث أغفيت وقد رزحت تحت أفكار غريبة حول كل ماجرى . وحول الموت ، والحياة و«الكريزة» وفرنسا . وجنودها المسلحين، والرجال الذين قيل انهم يحاربونها في مدن بعيدة ، وأنهم يختبئون في الجبال . ويواصلون الثورة . وتصورت الذين يقومون بذلك . ولا يهابون الموت ، في صور شتى . كأنهم ليسوا من البشر ، ولهم قوة خارقة ، كما في الحكايات.

مضت الأيام ولا جديد عن المعتقلين . لم أعد أرى عبده الذي طلع مع أهله الى الجبل ، ففتح دكاناً لبيع الحلويات في أحد المصايف. لقد ابتعد بذلك عن المدينة والحي ، ولم يسفر التحقيق في المجزرة عن أيما نتيجة. ولا أجدى الاحتجاج الى باريس شيئاً ، ظلت الأزمة والبطالة منتشرتين . وأقفرت حديقة المنشية التي كان يجتمع فيها العمال أيام التحضير للمظاهرة . وتتابعت الحياة كئيبة بائسة . كأنما انحسار ذلك المد قد كشف عن أحجار

نخرتها المياه، وطحالب نتنة بين الصخور ، وبقايا أشياء قديمة بالية ، وكأنما على المدينة ان تنتظر عودة المد ليغطي تلك المناظر البشعة من مخلفات المعركة .

هاجر بعض سكان الحي ، وحاول البعض الآخر أن يشتغل في أعمال أخرى ، وظل القسم الكبير عاطلاً ، وانتشرت ، مع الصيف والغبار ، الأمراض التي هي جزء من حياتنا ، مثل البرداء والرمد ، وجفّت بعض أنحاء المستنقع وفاحت منها روائح كريهة ، وتفشّى الجوع ، فكنت تسمع الأطفال يبكون لأن أثداء أمهاتهم قد جفت . والذين كانوا قادرين على الحركة باتت تعجزهم النقلة ؛ وغدا السير شاقاً على الذين كانوا يركضون ، وأخذ الصبية يترنحون كالشيوخ والجميع يقتلعون أرجلهم من الأرض بصعوبة ، وبدت سيقان الناس وجلودهم صفراء ، شائهة ، وسقمت الأرواح وضمرت الأجسام وزاغت العيون ولم تعد الأقدام تحمل أصحابها .

لم يعد ذلك الغريب ساكن الكوخ ، إلى كوخه . اختفى من الحي بعد أن عاد إليه ، قبيل المظاهرة ، لعدة أيام . كان قد خرج من السجن ، واكتسب مودة وعطفاً بين الناس ، وصار اسبيرو الأعور يتردد عليه ، ويهمس في الآذان أنه من المناضلين الذين وفدوا إلى المدينة لايدري

من أين ، وأنه رجل خطير ، ويعرف آشياء كثيرة ، ويشارك في الأعمال التي ستؤدي إلى نفع الناس .

ظل الكوخ وحده قائماً ، فارغاً ، لايجرؤ السكان على الدخول إليه ، لأنهم يخشون أن يتهموا بأنهم من أنصار الغريب الذي كان يسكنه . ولكي يكسر اسبيرو الأعور هذا الوهم ، دخل إلى الكوخ وخرج ، وجاء في أحد الأيام بامرأة عجوز ، ممسوسة عقلياً ، وأسكنها فيه مع نعجتها التي كانت ترعاها بين أدغال البردى .

وتلفت الناس حولهم عن حركة احتجاج تعبر عن مأساتهم . وتطلعوا إلى أمكنة فايز الشعلة وأصحابه فوجدوها خالية . كان كل شيء في انحدار ، والصعود المنتظر كان يحتاج إلى وقت وقيادة.إن الذين يترنحون من جوع ومرض وحيرة ، كانت تنقصهم الكلمة المشجعة التي تدفعهم إلى العمل ، وهذه الكلمة كان يملكها الذين اعتقلوا أو تشردوا أو اختفوا . ولهذا كانت الساحة خالية ، وتحتاج إلى فايز شعلة جديد يملأها بالإرادة والعزم .

اسبيرو الأعور وحده ظل يطوف على البيوت ليلا ، شاكلا سيكارته وراء أذنه ، يتطوح ، ويؤشر بيديه ، مؤكداً « أنهم سيرجعون » وأن عمال الميناء سيمشون

وراءهم كالسابق ، وأن فرنسا لن تظل هانئة بهذا الهدوء الكاذب ، وأن الثورة ، في مكان ما من سورية ، تشتعل و « قريباً تسمعون الأنباء ». لكن كلماته كانت تنزلق دون أن تترك أثراً كالسابق .

كان يبدو كأنه يحمل هم الحي كله ، بل المدينة كلها ، لكنه كان وحيداً أميا ، لايعرف أن يكلم الناس عن واقعهم ويستنهض هممهم كما كان يفعل الآخرون . مع ذلك ، لم يكن ييأس ، وكان يشكل بارقة الأمل في قلب ذلك القنوط الذي ران على الجو ، وخمدت من جرائه النار التي استعرت يوماً .

ولكثرة غدواته وروحاته بين بيوت الحي ، لاحظ ، في المستنقع القريب ، ظهور أسماك ماكان أحد يعرف أنها تعيش فيه . كانت من نوع « الحنكليس » الذي يعيش في الأنهار ، وهي أسماك طويلة كالحيات ، برؤوس طويلة مفلطحة ، وجسوم افعوانية ، حتى أن المرء ، لولا برقشات الجلد الخارجية ، ماكان في وسعه ان يميز السمكة من الحية .

وقد توصل اسبيرو الأعور إلى اصطيادها بالسلة ، فكان يتعرى إلا من سروال داخلي عتيق ، ويغوص في المستنقع ، وكلما أبصر سمكة أدار فوهة السلة نحوها فتدخل

فيها ، فإذا انحرفت عنها لاحقها حتى تغطس فتغيب ، وعندئذ يتحول إلى غيرها . وكان أحياناً يجرف الماء بالسلة على غير هدى ، ويكرر ذلك إلى أن تخرج إحدى السمكات فيها ، يساعده على ذلك أن الماء راكد ، وأن الأسماك التي في المستنقع تطل برؤوسها من حين لآخر ، فيلاحقها بسلته كصياد لم يألفه بحر ولانهر .

وفرح الحي بهذا الإكتشاف ! كان اكتشافاً ذهبياً ، زاد من رنينه في الأسماع أنه جاء في أيام المجاعة تلك ، فتحول الناس ، بين يوم وآخر ، إلى صيادي حنكليس ، وتجمهروا حول المستنقع القريب ، كأنهم في يوم نزهة على شاطىء بحيرة ، وشرع عدد متزايد من الرجال والأولاد في النزول إلى المستنقع لاصطياد أسماكه ، رغم كل ماينطوي عليه هذا العمل من خطر الانزلاق والتغريز ، ومافي أرض المستنقع من زجاج مكسور وحديد وأحجار : كانت تجرح أقدام النازلين إليه ، وقد تشرخها شروخاً عميقة .

أنا لم أجرؤ على النزول إلى المستنقع في بادىء الأمر . منعتني والدتي ، أما والدي فكان الأمر عنده سيان . وقد سخر من رجال الحي الذين يصطادون السمك بالسلال .

وتابع بيع المشبك في القرى ، فكان يغادر البيت في الصباح، وتغادره الوالدة بعده ، وهكذا كانت تتاح لي الفرصة لقضاء النهار كاملا على أطراف المستنقع ، أركض وراء الصيادين ، حين يخرجون إلى اليابسة لإفراغ مااصطادوه ، فأحاول مساعدتهم .

ومنذ بدأت ذلك وضعت نفسي في خدمة اسبيرو الأعور. كان شيء مايشدني إلى هذا الرجل ولعله شجاعته،أو تفاؤله، أو مواقفه السابقة من فايز الشعلة وخلال المظاهرة ، قد انبتت في نفسي إعجاباً خفياً به ، فتطوعت هكذا لمساعدته، وصرت معاونه في قتل الأسماك بعصا غليظة كنت أحملها ، ماأن يفرغها من السلة على الأرض ، ثم أرفعها وأضعها في سلة أخرى كبيرة كان يحضرها معه .

وقد كان ، في الأيام الأولى لاكتشاف « الكنز السمكي» يصطاد أكثر من حاجته ، فيهب بعض السمكات للعائلات المنكوبة في الحي ، كأنه وجد ذلك واجباً ونهض نه ، فإذا كان صيده وفيراً ، وتبقى منه شيء ، كان يذهب إلى السوق ويبيعه ، ومنذ صرت معاونا له ، أخذ يعطيني كل مساء سمكة أو اثنتين من النوع الكبير ، فأحمل حصّتي إلى

البيت وأنا فرح اشد الفرح ، وأخبر والدتي بذلك فتدعو له بالتوفيق وطول العمر .

ولأن هذا الرجل كان يمتلك الروح الجماعية ، دون أن يدري ، فإنه لم يحتفظ بسر الاكتشاف لنفسه ، صار يطوف على البيوت ويستنفر العاطلين إلى أن يحذواحذوه . لقد تطهر عالمه الداخلي من الغيرة والحسد ، ووجد في مشاركة الآخرين سعادته ، وكان يشجع المترددين على النزول ، ويدرب المبتدئين باعتباره جرب قبلهم وتمرّس في عملية الصيد .

وعندما بدأت الأسماك تقل ، في المستنقع القريب ، تركه للآخرين وذهب إلى مستنقع آخر ، يروده ويكتشف مجاهله ، ويختبر مقدار عمقه بشجاعة الذين يرودون الأعماق ويكتشفون أبعادها . وعندما يطمئن إلى صلابة الأرض ، ومقدار العمق ، ووجود السمك ، كان يحضّ غيره على اللحاق به ، كأنما وجد في هذا العمل نوعاً من الكفاح في سبيل الحي على جبهة أخرى .

ولما استأذنته ، ذات يوم ، في النزول للصيد كما يفعل الأولاد ، تفرس في لحظة وقال :

– أما أنت فلا ، أنت وحيد ، وابن مدرسة .

قلت :

– والأولاد الآخرون أبناء مدرسة .

– أعرف . . ولكنني لاأريدك أن تنزل والسلام .

– أنا لاأخاف ..

– أنا أخاف . .

– أنت ؟

– لاأخاف على نفسي . . ولكنك أنت تكتب وتقرأ.. أخاف عليك . ابق على البر . ساعدني وسأزيد حصتك من السمك . . فهمت ؟

– أنا لاأطمع في زيادة حصتي . . أريد أن أجرب . . أن أعمل .

– أنت لك عمل آخر . . في المساء .

– ماهو ؟

نظر حواليه ، واقترب مني بشاربه الكبير والسيكارة المشكلولة وراء أذنه ، وهمس بنبرة رجاء :

– ستقرأ لي بعض الأشياء . . سمعت ؟ أنا أقول لك هذا فاعمل كما أطلب منك . .

ثم عاد وهمس مؤكداً :

ـ لاتقل هذا لأحد . . ليبق سراً بيننا . . لدي ماتقرأه لي ، وسأعطيك سمكاً مقدار ماتريد . . كن عاقلا .

في المساء ذهبت إليه . تظاهرت بأنني خارج لأطوف في الحي قليلا ، وانسربت ، في كثير من الحذر ، إلى الكوخ الذي يعيش فيه وحيداً . كان ينتظرني هناك ، وقد أشعل مصباحه الغازي ، وعلّقه على الجدار وجلس تحته ، جلسة توفز ، فوق الأرضية الخشبية التي لاتكسوها سوى حصيرة بالية . وكان الباب مواربا ، كأنما تركه كذلك لأجلي ، وكان البيت عارياً ، ليس على جدرانه صورة ولا مرآة، وفي الزاوية تكوم فراشه ، بينما ، في الزاوية المقابلة ، قام « بابور كاز » وبعض الأواني العتيقة ، وربض في الصدر ، عند قدم الجدار ، صندوق خشبي ، يضع فيه ثيابه وأشياءه ، وليس للكوخ مطبخ ولاماحق .

كنت أعرف أكثر أكواخ الحي ، فهي متشابهة من الخارج ، هياكلها من الأعمدة الخشبية ، وجدرانها من الأقصاب المتشابكة ، المحشوة بالحجارة الصغيرة والطين الجاف ، وسقوفها من القش، وأبوابها ونوافذها من الخشب ، وفي كل بيت ، من الداخل ، أرضية خشبية

بارتفاع نصف متر لاتقاء الرطوبة والحشرات ، وهناك باب داخلي صغير ، يؤدي إلى المطبخ ، وفوق الأرضية الخشبية يقوم الأثاث ، وهو في مجمله فرش وأغطية وصناديق للثياب والمؤونة ، وبعض الكراسي ، وهذا كل شيء . لاخزانات ، ولامشاجب ، لامقاعد منجدة . مسامير دقت في الجدران لتعليق الثياب ، ومرآة صغيرة ، ودكة خشبية . وفي الفسحة التي تلي الباب ، من الداخل ، مربع أو مستطيل من الأرض ، ترك دون أرضية خشبية ، يخلع فيه الزائرون أحذيتهم الملوثة بالأوحال شتاء ، والمغطاة بالغبار صيفاً .

ولم تكن ثمة ، في هذه البيوت ، مراحيض . الناس يزيلون ضروراتهم بين أدغال البردي . الرجال والنساء على السواء . وليس من حمامات ، ولامغاسل ، ولاطرقات من حصى أو حجارة . وكان البيت يبعد عن الآخر خمسين أو مئة متر ، وقد تقوم البيوت بين أدغال البردي ، وتحوطها الخنادق ، وأمامها أخمام الدجاج . وعلى عتباتها تنام الكلاب ، عجفاء ، هزيلة ، تنبح وهي مضطجعة غالباً .

كان كوخ اسبيرو الأعور يقع في الطرف الجنوبي . وقد بدا لي في عريه وفقره أبأس من كل مارأيت ، وترددت

في الدخول ، فنهض للقائي ، وطلب مني ألا أخلع حذائي. تكرمة ، وأجلسني قربه ، على الحصير ، وأنزل الفانوس ، فوضعه على وسادة من قش ، هي وسادته الوحيدة ،وجلس أمامي ، على ركبتيه ، ومد يده إلى صدره فأخرج كراسا، وقام إلى الباب فأغلقه ، ثم عاد إلى جلسته ومن عينه الوحيدة يشع فرح عجيب .

كان الكراس ، فيما فهمت منه ، يتحدث عن الحركة العمالية في بلاد العالم : عن الاضرابات ، والمظاهرات، وكفاح العمال ، وأخبار المناضلين والمعتقلين ، ويورد بعض الخطابات والأخبار ، وشذرات قصصية جرت مع بعضهم ، وأقوال السجناء منهم أمام المحاكم .

كنت أقرأ وهو يتابعني . وقد يطلب مني أن أعيد ماقرأت ليستوعبه ، ثم يتمتم :

ــ طيب ، طيب ! !

أو يهز برأسه ويقول بصوت خفيض ونبرة تعجب:

ــ هكذا إذن ! !

فلما فرغنا من القراءة وأعدت الكراس إليه، قبله ووضعه على رأسه باحترام كبير ، ثم دسه في عبه وقال لي :

ـ نحن أيضاً فعلنا مثل هذا . .

ـ في المظاهرة . .

ـ قبلها أيضاً . . تعلمنا منهم . .

ـ ممن ؟

ـ من العمال الذين يناضلون مثلنا .

ـ ولكنكم لم تروهم . .

ـ هذا لايهم ...

ـ ومن حمل إليكم أخبارهم ؟

ـ الكتب . .

ـ ومن جاءكم بهذه الكتب ؟

ـ لاأعرف . .

ـ وهذا الكراس ؟

ـ قلت لك لاأعرف . .

ثم أضاف رفيقاً نصوحاً :

ـ لاتسأل كثيراً . . سيأتي يوم فتعرف . . أما الآن. . لماذا يجب أولاد المدارس أن يعرفوا كل شيء ؟

ـ لأنهم أولاد مدارس . .

ـ نعم ، نعم . . أنا لم أذهب إلى المدرسة أبداً . كل

رجال الحارة لم يذهبوا إلى المدرسة ، أما أنتم ، الآن ، فتذهبون . تتعلمون . هذا جيد . تقرأون الكتب . .

– نحن لانقرأ إلا كتب المدرسة . .

– هذا لايهم . . كتب المدرسة جيدة أيضاً ، كل الكتب جيدة . . لو كنت أقرأ لجلست هنا ، تحت الفانوس، وقرأت كل ليلة إلى الصباح . . كنت عرفت مايجري في الدنيا ، وربما ذهبت إلى بعيد ، حيث أجد حياة أخرى . . العلم . . كيف يقولون ؟

– العلم نور . .

– هذا هو .. العلم نور.أنت الآن في النور وأنا في الظلمة . . كل حينا في الظلمة . . في الوحل . هكذا عشنا ، وهكذا سنموت ، لماذا ؟ لأننا فقراء ؟ ولكن الفقراء يريدون أن يتعلموا أيضاً ، يريدون أن يعملوا ويأكلوا ، وعندما لايجدون العمل ولا الأكل فعندئذ يثورون . . فهمت إذن لماذا يناضل الناس ولايهابون الموت ؟ الفقر هو الموت ، الجهل هو الموت ، الذل هو الموت ، وهذا هو الموت المخيف . . أما الآخر ، الموت لأجل العلم والخبز والحرية ، فانه طيب كالخوخة الصفراء ، ومن أجل ذلك ، كما هو مكتوب في هذا الكراس ، يضحك العمال في

المحاكم ، ويصرخون في وجه الحاكم ولايخافون . تعلم هذا ، وتذكره ، وعلمه لغيرك عندما تكبر .

ساد الصمت بيننا بعد هذه الخطبة ، وبدااسبيروالأعور متهيجا ، وكان يضرب على صدره ، من حين لآخر ، فوق الكراس ، ويقول لي :

– ماأجمل مافيه ! إن المرء ، حين يعرف أن هناك عمالاً مثله ، يفكرون كما يفكر ، ويتألمون كما يتألم . ويعملون كما يعمل ، يشعر بسعادة ، براحة ، بدفء لماذا ؟ لأنه ليس وحيداً ، ولأن هناك كثيرين، بعدد الرمل، يقاومون الظلم مثله . . وهذا طيب ، كالخوخ الأصفر، ومثل كلام الانجيل . .

وحين وقفت لأنصرف أوصاني :

– لاتقل أنك كنت عندي . .

– لن أقول . .

– ولاتذكر القراءة في الكراس لأحد . .

وعدته أيضاً ، وعندئذ رجاني قائلا :

– ستأتي غداً لمتابعة القراءة ، أ؟

– سآتي . .

ــ وسنصطاد السمك في المستنقع ؟

ــ سنصطاد . .

ــ وسأزيد حصتك . .

ــ لاأريد زيادة حصتي . .

ــ لماذا ؟

ــ لأنني أريد أن أصطاد بنفسي . .

ــ وإذا أصابك مكروه ؟

ــ لن يصيبني شيء . . سأبقى قربك على الدوام .

ــ ولن تتركني وتبتعد عني ؟

ــ أبداً . .

ــ أبشر إذن . .

واستبشرت . .

ثم خرجت وأنا لاأعرف كيف أقفز من الفرح .



في الليل ، عندما اضجعت في فراشي ، فكرت طويلا بما وقع لي هذا اليوم . كوخ أسبيرو الأعور ، ومافيه من عري وفقر ،وكراسهومافيه من كلام عن الظلم والعدالة ، وحماسته لما سمع ، وصلته السرية التي لاتزال قائمة بالذين يناضلون ، ويوزعون النشرات والكراريس ، ورفضه الكلام عليهم ، وقوله أنني سأعرف هذا عندما أكبر ، ثم وعده لي أن اصطاد السمك غدا .

تصورت المستنقع ، وماءه العكر الضارب إلى السواد ، والأسماك التي تشبه الأفاعي ، وكيف سأخوض فيه ، حاملاً سلتي ، جارفاً بها الماء ، إلى أن اصطاد سمكة . أخرج فألقي بها على اليابسة . ان العملية بحد ذاتها ليست بهيجة ، ولكنني كنت متشوقاً اليها ، لأثبت لنفسي أنني قادر على العمل كالآخرين . وقد تعذبت لأنني سأكتم الخبر عن أمي . لن أقول لها انني سأنزل المستنقع وأخوض فيه ، فقول كهذا قمين بأن يلقى المنع منها ، وربما دفعتها

خشيتها علي إلى عدم الذهاب إلى الشغل ، وربما ذهبت إلى اسبيرو الأعوز ورجته الا يسمح لي بالنزول ، وفي كل الأحوال ستغتم ، وقد تبكي ، وأنا لاأطيق أن أسبب لها الغم ، أو أجعلها تبكي . يكفي ما أبكاها والدي ، وعلي ، بالمقابل ، أن أجعلها ضاحكة ، ولكن هذا لن يحول بيني وبين الصيد ، لأن تجربة هذه العملية قد ماكت علي نفسي ، وصرت خائفا أن تنتهي الأسماك في المستنقع قبل أن أجرب حظي في صيدها .

في الصباح تظاهرت بالنوم حتى ذهب الوالدان إلى عملهما ، وعندئذ ، ركضت إلى الخارج فغسلت وجهي ، وارتديت ثيابي بسرعة ، وانتقيت سلة من المطبخ ، ووضعت حذاء متهرئا في رجلي ، واندفعت إلى المستنقع .

كان هناك جمع من الناس ، لا يني يكبر كلما تقدم النهار ، وكان في المستنقع بضعة أشخاص . ولم يكن الأولاد قد وصلوا بعد ، ولهذا كنت استحث اسبيرو الأعور مشيرا له بيدي ، أن يأتي إلى حافة المستنقع ، لأنزل معه . وعندما فعل ذلك ، طلب مني أن أبقى في حذائي اتقاء للزجاج والتنك والأشياء الجارحة التي في المستنقع ، فرضخت

لطلبه ، وان كان الحذاء ، على اهترائه ، قد عز علي ، لأنه حذائي الوحيد .

تلوت اسم الله في سري وأنا أهبط الماء . كنت ألبس سروالا داخليا فقط ، ومعي سلتي ، وكان اسبيرو الأعور يشجعني قائلا : تقدم ، تلمس الأرض بقدمك قبل أن تدعس عليها ، قف وتفرس في الماء حتى ترى رأس السمكة فضع سلتك في مواجهتها ، واذا انزلقت ، أو شعرت بالتغريز فاندهني . . . انني سأظل قريبا منك ، ولكن لن أربطك بخاصرتي..هيا..تعلم ان تفعل الأشياء بمفردك ، هذا أفضل لك ، اعتمد قليلا على نفسك ، واكسب رزقك بعرق جبينك .

ألقى موعظته هذه وتناول سيكارته من وراء أذنه فأشعلها ، ثم وقف يرقبني ، وأنا أخطو خطواتي الأولى في دنيا الماء ، والعمل ، والاعتماد على النفس .

كان المستنقع لزجا تحت قدمي . وكانت رائحة نتنة تفوح منه ، ومن أعماقه تنبعث دوامات مائية على شكل فقاقيع لولبية تصعد نحو السطح ، وقد علمني اسبيرو الأعور

ان أرقب صعود السمك إلى قرب السطح مع هذه الفقاقيع ، لأنه يشير إلى تنفسها « هي التي تكاد تختنق في ماء المستنقع القذر الذي كتب عليها ، مثلنا ، أن تعيش فيه . »

وكان رجل ، قربنا ، يسمع هذا الكلام ، فقال :

— انها مثلنا تعيش في المستنقع ، ولكننا نصطادها ، هذه الحيوانات الصغيرة ،

قال اسبيرو الأعور :

— وهم يصطادوننا ، نحن الحيوانات الكبيرة .

— من يصطادنا ؟

— الذين في السراي

— فشروا . .

— ولكنهم اصطادونا ياعم . . نسيت ؟

— نعم ، نعم . أطلقوا الرصاص علينا .

— وهم يصطادوننا في الخفاء أيضا ؟

— كيف ؟

— يسرقون لقمتنا . . أليس هذا صيدا ؟

فضحك الرجل وقال :

– هذه « بروبوغندا » (١) ياسبيرو ، انتبه !

فقال اسبيرو :

– وماذا يهم ؟ ليقطعوا رأسي . .

ثم التفت الي وأمرني :

– اذهب يسارا . . الماء ، هناك أقل عمقا .

أطعته فذهبت . وقفت أتفرس في الماء لأرى تلك الفقاقيع ، وأبحث عن السمك وراءها. كان الصباح رائقا ، وثمة سحب في السماء ذات بياض قطني ، والشمس محجوبة بغلالة رقيقة منها ، والهواء راكد ، والأفق يمتد بعيدا ، كأنه انحناءة مظلة رمادية ذات حجم خارق ، ومن رأس التل الذي ترعى عليه الخنازير يأتي نباح كلاب ، ويقطع الصمت المخيم فجأة صوت ، وترتفع الضجة على أطراف المستنقع مع الضحى ، واقتراب الشمس من السطوع ، شأنها أيام الصيف الحارة . وعندما رفعت رأسي أبصرت عصافير تمر مسرعة ، ثم تحط على ادغال البردي القريبة ، وتزقزق فرحة ، مدهوشة لمشهد الناس غير المألوف منها .

كان الماء يغمرني حتى الصدر ، وقد لصقت أقذار

(١) دعاية

المستنقع على جسدي ، واسود الجلد متخذا شكل بشرة تمرغ صاحبها في صلصال ، وشعرت بدوار خفيف من جراء الرائحة الحادة التي تتصاعد كبخار مجرور نتن ، وانقبضت نفسي وندمت على مافعلت .

في هذه اللحظة بقبق الماء . فأمسكت سلتي وتهيأت . كنت متوفزا من الداخل ، انتظر بصبر نافذ أن أبدأ الصيد . لقد استولى علي نوع من حرج بسبب العطالة التي أنا فيها . خيل الي أن كل من على طرف المستنقع ، وكل من هم في داخله ، ينظرون الي ويستعدون لاطلاق قهقهات السخرية من محاولتي الأولى الفاشلة . وكنت أؤخر هذه المحاولة اتقاء لتلك السخرية ، وأدعو الله في سري أن يلهم اسبيرو الأعور المجيء الي لارشادي إلى مايجب أن أفعل .

وحين أبصرت سمكة تطل برأسها فوق الماء وتتجه نحوي ، شبه لي أنها أفعى . كانت الأفاعي موجودة أيضا في المستنقع ، واذ تقع احداها في سلة صياد ، كان يشتم على نحو فاحش ، فيضحك الناس ، ويسير هو بها إلى اليابسة طالبا ممن يحمل عصا أن يسرع ويقتلها . ولكم سرني مرأى « أندون » ، وهو رجل ذو أنف طويل ، عندما كانت

تقع أفعى في سلته ، فيصرخ مستغيثا ، لأن منظر الأفعى كان يدفعه الى التخبط في الماء ، وهو يرتجف خوفا، حتى انه ترك سلته عدةمرات وهرب من الأفاعي التي كانت تخرج له ، وتقع في سلته بمشاكسة غريبة .

تركت السمكة تمر وقد شلني ذعر منها . لم استطع تمييزها جيدا . ربما كانت أفعى أو سمكة ، ولكن اسبيرو الأعور قال لي ان الأفاعي لاتعض في الماء ، أو ان أفاعي الماء من النوع الذي لايعض ، وقد تظاهرت بتصديقه ، وغالبت خوفي وانتصرت عليه ، الا أن الأفعى ما كادت تتراءى لي حتى ذعرت ، وتجمدت فلم تند عني صرخة ، وكل مافعلته أنني انحرفت عنها بصعوبة ، وافلت أول صيد ساقه الي ذلك الصباح .

لاحظ اسبيرو الأعور ارتباكي . كان قد فرغ لتوه من الكلام مع صياد آخر . أنا لم أسمع ماكان يقوله له ، غير أن اشاراته، وحماسته الظاهرة ، وحركةفمهالواسع ، أوحت الي أنه كان يتحدث عما قرأته له ليلة أمس .

فهذا النوع من الرجال ، الذين نذروا أنفسهم لقضية ما ، يشتعلون ابدا من الداخل ، وهذا ما لاحظته وتأكدت

منه عندما كبرت ، وهم لاينطفئون بسرعة ، وقد تظل النار تتوهج في صدورهم إلى نهاية العمر ، انهم لايدعون فرصة تمر ، ولا جلسة تفوت ، أو وقفة عابرة مع انسان ، الا ويتكلمون على تلك القضية التي ملأت نفوسهم .

جاءني اسبيرو الأعور أثر ما رآه من ارتباكي . كان يتطوح بجسمه الطويل ، ويرفع سلته فوق الماء ، ويبتسم ابتسامة اعتذار عن ذلك الحديث الذي جعله ينساني . سألني عما فعلت فأخفيت عنه قصة الأفعى . قلت له انني لم أر أية سمكة ، برغم تحديقي المستمر في الماء.نظر الي بشفقة ظاهرة ، خلت انها لسع سياط على جسمي المهزول ، ووقف الى جانبي يرقب سطح المستنقع ، ويتمتم من حين لآخر بكلام غير مفهوم ، أو يطلق الشتائم لسبب أجهله .

على حين غرة أمسكني من ذراعي وقال : « انتبه ، انظر هناك ، الا ترى السمكة التي تقترب ؟ » كنت لا أرى شيئاً . لعله فارق الطول هو الذي أتاح له أن يلاحظ تلك السمكة اللعينة على البعد ، وكان لابد لي من اثبات وجودي امامه ، فتقدمت بسرعة الى حيث أشار ، وللحال انزلقت رجلي على أرض المستنقع الرخوة وكدت أهوى في الماء لولا أن تداركني فسحبني من ساعدي وأعادني الى قربه .

أحسب أنني اصطبغت بحمرة الخجل. لم أرفع نظري اليه لشدة حيائي. وددت أن يدعني ويذهب، غير أنه ربت على كتفي وقال : لاتتعجل ، ولاتكن قليل الصبر ، لسوف نصطاد بهدوء، وسنصطاد كثيراً ، فالمستنقع كبير والأسماك كثيرة، ونحن مانزال في الضحى.

هذه الكلمات اعادت الطمأنينة الى نفسي. وجدت اسبيرو الأعور يتصرف بهدوء الرجل الواثق وحكمته. كانت طيبته تخلع عليه رونقاً خاصاً فيه بساطة وعذوبة، ونفسه الغنية، السمحة، تعطي وجهه مسحة وسامة، برغم عينه الضريرة التي فقدها اثناء العمل في الميناء . لقد كان مؤسفاً أن يكون هذا الانسان فقيراً إلى هذا الحد ، ومقطوعاً من الأقرباء ، وحيداً بغير أسرة . إنه له شكل متشرد من الخارج، بسيكارته التي وراء أذنه، وقميصه المفتوح العنق صيفاً وشتاء، وشرواله الأسود الباهت، المرقوع كيفما اتفق ، وحذائه المحلول الشريط ، غير أنه، من الداخل ، ينطوي على قدر كبير من التماسك . انه كطفل ، يعرف مايريد ويطلبه رأساً، وكرجل يتخذ الموقف اللائق بغير خوف ، ويجاهر بأفكاره ويدافع عنها ، وكانسان ينطوي على قدر فائض من المحبة يمنحه للآخرين دون أن يسأل جزاء أو شكورا.

وهاهو، دون أن أدري لماذا، يمنحني عطفه ومودته. لعل عبده قد حدثه عني ، ولعله ، في الرجاء الذي تمور به نفسه الألقة، قد عدني من المفيدين للقضية على نحو ما ، ولهذا تميزت معاملته لي بالحرص علي، وتزداد اليوم ، بعد أن قرأت له الكراس أمس ، تميزاً وايثاراً.

علمني كيف أبدأ الصيد. قال لي : «لاتخف» وتمهل حتى وجد العبارة المناسبة فأضاف : « يقولون أن رأس الحكمة مخافة الله . أنا أقول : رأس الحكمة شجاعة القلب أيضاً. كن شجاعاً تكن مؤمناً. الإيمان هو الشجاعة ودونها لاشيء. انني أتحدث عن الإيمان بالحياة، هذه الكريمة التي تمنحنا كل شيء ، ولكن ماتمنحنا اياه يسرقه بعضهم بطرق خبيثة. اننا ، في الميناء نعمل من الصباح إلى الليل . كنا كذلك يوم كان في الميناء ، عمل. والنتيجة؟ فالصو! أجر تافه، والبقية يسرقها التجار. ولكي نستعيد حقوقنا علينا أن نطالب بها، وعندما طالبنا أطلقوا علينا النار . غير مسموح بذلك، وهذا طبيعي، الكراس الذي قرأناه أمس قال ذلك، ولكنه قال ، أن المطالبين بحقوقهم لا يتراجعون . . يظلون وراءها حتى تتحقق ، وهكذا ينتصرون . ولكي

نظل وراء حقوقنا علينا أن نملك القدرة على ذلك: اعني الشجاعة. أفهم. السيارة وقودها البنزين، والنار وقودها الحطب، والانسان وقوده الشجاعة. أفقد الشجاعة تفقد كل شيء. تصير ضعيفاً، رخواً، لاتنفع فيك لشيء».

كنا في المستنقع. في الماء. وهناك حلا لاسبيرو الأعور أن يستأنف خطبته التي بدأها امس ليلا في كوخه. لم يكن مثل الذي مشى على الماء وأتى تلاميذه بعد أن نفخ على العاصفة لتهدأ. لم يكسر خبزاً ولاوزع سمكاً مشوياً، ولكنه في الماء خطب. وكنت أنا كل تلاميذه في ذلك الصباح الكلي الانسجام. لقد كان، فيما خيل اليه، يكرس بالشجاعة. هذه الآن قضيته، فالانحسار، والخوف، وفقدان الثقة، وضياع الآمال التي خلفتها مجزرة المظاهرة، كان لابد من تجاوزها، وكان هذا التجاوز يرتبط باستنهاض الهمم، وشحن وعي الناس وترميم اعصابهم، وربما كان اسبيرو الأعور على صلة بآخرين. وهذه الاندفاعة الجديدة التي يظهرها وراءها عمل منظم، وقد أخذ على نفسه أن يكرس بالشجاعة لأنها رأس الحكمة كما قال. وفي هذا المقياس، وجدت نفسي في آخر السلم: وهو: بطيبته، وكلماته الوديعة والبليغة، ومعاملته الأبوية،

استطاع أن يعيدني إلى وضع الانسان الذي نشدته طوال عمري .

«الأفعى – قال لي – مخيفة، ولأنها كذلك علينا ان نتعلم ألا نخاف منها. لماذا؟ لأن الأفاعي في كل مكان ، ولابدلنا من مواجهتها، لاتقل هذه تعض وهذه لاتعض . لاتقل هذه سامة وهذه غير سامة. الأفاعي هي الأفاعي ، ويحسن بنا أن نتصدى لها بدل أن نهرب أمامها.. والآن إلى العمل.»

مشينا معاً في المستنقع. كانت عيوننا ترصد الماء . ورأيت، فجأة، سمكة عن يميني ، فغمست سلتي في الماء ووجهتها اليها، ولم تخب المحاولة، لأن السمكة دخلت السلة دون أن تفطن الى أنها شبك لها، وعندما رفعت سلتي ، والسمكة تبلعط داخلها، احسست أنني استخرجت كنزاً، وصحت من فرحة، وآنا أحاول جاهداً أن أخطو عبر المستنقع لابلغ اليابسة والقي بصيدي على الأرض المباركة.

وهتف بي اسبيرو الأعور:

– احسنت!

والتفت آخرون على طرف المستنقع واقتربوا ليروا حجم السمكة، وسطعت الشمس في هذه اللحظة، وابتسم الفضاء، وغردت عصافير على الأدغال القريبة ، وعرفت، بعد قهر ذلك الصباح ، كيف يزهر الصبر ويثمر، وكيف أمارس احساساً بالزهو أنا الذي مارست احساساً بالانكسار.

كانت السمكة كبيرة، وهذا مازاد من فرحي ، وحين انتهيت منها ووضعتها في السلة الجافة، غطيتها بثيابي وهرعت من جديد الى المستنقع . هذا الذي تعيش فيه الأفاعي، وتعيش الأسماك أيضاً، ويمتلىء بالأقذار ، لكنه قادر على انبات حشائش وزهور جميلة على حوافيه.

اصطدنا، ذلك اليوم، الى العصر.

كان صيدي متواضعاً: بضع سمكات ! ولكنه كان صيدي. وقد تعلمت خلاله أن أكون صبوراً، وأن أعطي حواسي كلها للعمل الذي أزاوله ، ولاأتعجل ولاأحكم على الأشياء بسرعة، ولا أخاف الأفاعي التي تعيش هي أيضاً بين الأسماك، وأن أجيد التمييز حتى لاأقع في الخطأ.

وعندما، في طريق العودة الى البيت، قلت ذلك

لاسبيرو الأعور، ابتسم بين شاربه وقال لي:

- هاقد صرت صياداً.

ثم أضاف:

- الصيد لذيذ ولكنه شاق..

قلت:

- ليس شاقاً أبداً!

فقال:

- الصيد أنواع!

وقبل أن نفترق سألني بلهجة امتزج فيها اللطف بالرجاء:

- ألن تأتي في المساء لنتابع القراءة!

- في ذلك الكراس؟

- فيه أوفي غيره..

- سأفعل..

وفعلت..



— ١٨ —

توقف صيد السمك في المستنقع. لم تعد روائح قليه تنتشر في الأمسيات فيعبق بها جو الحي.استنفد هذا المصدر الغذائي المجاني تدريجياً لكثرة ماأقبل الناس على استهلاكه . ولقد طعم الفقراء منه مادفع عنهم غائلة الجوع. ومع أن . السمك لايؤكل كل يوم، أو لايؤكل في الصباح كما في المساء ، الا أن الحاجة اضطرت أهل الحي الى تناوله في الوجبات الثلاث مع شيء من خبز الذرة والشعير .

كان الرجال يقطعون رأس سمكةالحنكليس،ويضعون في أكفهم الصفوة أو نشارة الخشب، ويقشرون جلدها قشراً كاملا، فيبدو لحمها الداخلي أبيض، معرقاً بالأحمر ، مستطيلا، ذا أحجام متفاوتة، أقلها نصف ذراع ، أما الحنكليسة الصغيرة فترمى للقطط أو الكلاب ، أو تعاد إلى المستنقع عند صيدها اذا كانت حية، مادام قشرها صعباً، ولحمها ضعيفاً، لاغنى فيه، وله رائحة زنخة إلى حد لعين.

ولقد تغير موقف الناس من أحجام السمك مع تناقص كمياته في المستنقع ، واشتداد الجوع في الحي. كانوا ، قبلا ، يملكون الخيار في قبول السمكة الصغيرة أو إعادتها إلى الماء، أما بعد ذلك فان هذه السمكة، مهماصغرت، كان الصياد يتشبث بها كأنما فاز بصيد ثمين. ولقد رأيتهم يخوضون في المستنقع ، وينقبون حول أدغال البردي، من الصباح الى المساء، فلا يتوصلون الا الى صيد سمكات صغيرات ، لم تلبث أن نفدت بدورها، فكان عليهم أن يجرفوا قاع المستنقع بسلالهم، وأن يرسلوا أيديهم تعبث بالوحل الذي يتجمع في هذه السلال ، بحثاً عن أيما سمكة، ولو كانت بطول الأصبع، لصنع الحساء منها، واطعام اطفالهم الجياع.

ومع علمهم أن السمك في المستنقع انتهى ، وأنه لاخير في البحث والتنقيب، فان عدداً كبيراً من سكان الحي كانوا يحماون السلال ويذهبون على رجاء أن يفوزوا ولو بسمكة واحدة. كانوا يتدافعون، ويتنافسون، ويقتتلون وهم يغوصون في الماء الأسود الصلصالي الى الأعناق . حتى اذا أعياهم البحث، انقلبوا الى بيوتهم وقد استبدت بهم خيبة مريرة.

ان عليهم أن يفعلوا شيئاً، أن‌يجدوا عملا وخبزاً، ولكن ماذا بوسعهم أن يفعلوا اذا كان العمل مفقوداً ، والخبز يحتاج الى نقود ؟ غير أن الأطفال لايفهمون هذا المنطق. انهم جياع ، وماذا يفعل الآباء وهم يرون ابناءهم جياعاً؟ بأية كلمات يمكن أن يخاطبوهم ليقنعوهم بالكف عن البكاء في طلب الطعام؟ واية كبد هذه التي تحتمل أن ترى صغيراً جائعاً ولا تتقرح؟ وكيف السبيل الى كسب شيء من النقود لشراء أرغفة من خبز تسكت الألم الذي يفري الأمعاء؟

إن ذل الآباء،في‌وضع كهذا، يغدو ذلا فاجعاً، عاجزاً عن أن يدفع عن نفسه هوان الوضع الذي هو فيه. العدو، في هذه الحال ، لايمكن القتال ضده ، انه‌ظاهر مستتر، معروف مجهول، وهو زئبقي لايمكن القبض عليه،وليس على من يواجه وضعاً كهذا الا أن يتمزق غيظاً، وينفجر مرارة، ثم يندفع في عنف مدمر ضد كل المؤسسات التي تستلب منه ومن أطفاله حق الحياة.

وقد اندفع الحي في تلك المظاهرة التي تحولت الى مجزرة، وارتد كنثارموجة تحطمت‌على صخرة الشاطيء .

وفي هذه الحال ينضاف الى الجوع شعور بجوع من نوع آخر ، هو فقدان القدرة على الحركة لدفع الكارثة. تنقلب المأساة عندئذ الى فاجعة، ويغدو الذين تطحنهم رحى المصيبة ضحايا مجردين من سلاح المقاومة ضدها .

كذلك كان رجال الحي مجردين من سلاح المقاومة ضد الأزمة التي تعصف بالمدينة والبلاد. انهم لايستطيغون شيئاً. البطالة جدار ينتصب في كل الوجوه . لاعمل. واذلايكون عمل لايكون طعام، وفي هذه الحال تتهدد الحياة ، ويصبح الموت شبحاً رهيباً منتصباً كجلاد في الساحات والبيوت على السواء.

إنني لاأعرف، أو لاأذكر، كل تفصيلات تلك المأساة التي واجهها الناس. لاأدري كيف تصرفوا ، وماذا فعلوا، ولا بأية وسائل قاوموا الفناء الذي كان يتهددهم جميعاً. لقد تشبثوا بالحياة بكل مافي قواهم الباقية من طاقة على التشبث، وجابوا المدينة بحثاً عن اي عمل، مهما يكن قذراً او تافهاً، واستدانوا مادام ثمة من يقبل ان يعطيهم ايما شيء بالدين، وباعوا اغراضهم وفرشهم وثيابهم، وزاحموا الخنازير على الرابية بالبحش بين

القمامة عما يمكن أكله أو بيعه أو الانتفاع به، وتقبضت أكفهم المرتجفة من سغب على ما كانت تطاله، وخرجوا عن سواء السبيل فقبل بعضهم أن يسرق ، أو يحتال، أو ينهب، ورغم هذا ظل الحي يعاني المجاعة التي دفعته الى أكل ديدان الأرض.

وكان اسبيرو الأعور يعاني كل هذه الضائقة على نحو مضاعف، يروح ويجيء، يتكلم ويصمت، يشجع ويقع في فقدان الشجاعة، ويبحث، كل صباح، عن مصدر جديد للغذاء، للقمة، لايما شيء يمسك الرمق على الناس .

وكما اكتشف سمك المستنقع، اكتشف بزاق البراري. فذات صباح هطل المطر الصيفي، وزحف على أثره البزاق بين أدغال البردي، فقاد الناس الى جمعه وسلقه وأكله لاسكات الجوع.

كان هذا كشفاً جديداً، لكنه لم يلق الترحيب من الناس بادىء الأمر، وقالت لي الوالدة أن البزاق السارح لايؤكل، لأن له طعماً مقززاً، وأن من الأفضل أن ننتظر إلى أن يصوم، وتظهر تلك الغشاوة البيضاء على فم البزاقة،

وتكون قد استقرت في جذوع الأشجار، وعندئذ يمكن جمعها وأكلها.

وكان الناس يعرفون ذلك أيضاً، وقد رغبوا عن دعوة اسبيرو الأعور الى جمع البزاق ، لكنه أقدم على ذلك، وضرب مثلا للآخرين حرض معدهم الجائعة، فشرعوا بالانتشار بين ادغال البردي لجمع البزاق السارح حولها ، وما لبثوا ان تبعوا اسبيرو الاعور الى الحقول والبراري ، لجمع البزاق الذي سرعان مانفد في ادغال الحي بسبب انقطاع المطر، وكثرة الذين يجمعونه .

عائلتنا، في هذه المجاعة المخيفة، بدت أفضل حالا من العائلات الأخرى. لأول مرة، منذ وعيت الوجود ، تبدو عائلتنا في وضع لايتهددها فيه الجوع او الخوف، انها في المدينة، لم تعد ضائعة في الريف، ولم يعد الليل والريح ونباح الكلاب معزوفة مرعبة تقشعر لها قلوب الأم وأطفالها . الأختان تخدمان، والأم عاودت الخدمة، والأب يبيع المشبك، والخبز، على ندرته في الحي، موفور عندنا، وكثيراً ما كانت الوالدة تجمع بقاياه وكسراته من بيت أسيادها وتحمله الينا، وفي الأمسيات تخرج لتهب ماتقدر انه يزيد عنا للجيران، وهي سعيدة

بذلك غاية السعادة، مستشعرة راحة نفسية اذ قيض لها أن تمد يداً للناس كما مد الناس ايديهم الينا.

كانت تصلي كل صباح، وتسأل ربها أن يزيل الغمة عن الصدور، ويرأف بالعباد، ويرزقهم عملا وخبزاً، ويحمي الأطفال فلا يدعهم يموتون مرضاً أو جوعاً، ويعطي الآباء والأمهات الصحة والعافية.

وتركع على الحصيرة، وتلصق جبهتها بالأرض، وتناجي الله بكلمات ابتهال رقيقة، متضرعة، مبللة بالحنان والدمع، حتى اذا انتهت من ذلك نهضت فقبلت الأيقونات، وانصرفت الى ترتيب البيت قبل أن تحمل سلتها وتذهب الى أسيادها.

وكثيراً ما كانت تكلمني اذا كنت مستيقظاً. كانت توصيني، كعادتها، انأكون مهذباً، وألاألعب في التراب، ولا أوسخ ثيابي،ولا أسيء الى الآخرين، أو أتشاجر مع رفاقي.وكانت تقول لي: «اذا كنت تأكل شيئاً ورأيت طفلا جائعاً فأطعمه مما تأكل. حرام أن نشبع نحن ويجوع الآخرون. الله لايرضى بذلك. انه يرانا ويحاسبنا، وعلينا أن نعمل لمرضاته، وأن نتذكر دائماً اننا فقراء مثل اهل الحي، وأن علينا واجب مساعدتهم اذا استطعنا.»

ومرة قالت لي: «الا تذكر ذلك الطفل الذي كان يأكل رغيفه وأنت جائع؟ لاتكن مثله. أنت تعرف ماهو الجوع. لقد جعنا كثيراً يابني، وكان الجيران، في كل مكان، يعطفون علينا، ويرسلون الينا الطحين او الخبز، وعلينا، الآن، أن نفعل مثلهم، وأن نعطف على الجيران ونساعدهم، ونقسم كسرة الخبز بيننا وبينهم.»

من أجل ذلك، وحتى دون أن تكون أمي بحاجة الى تذكيري، كنت أحمل الخبز الى الأطفال. وكنت أسر إذ أراها تحمل بعض الأشياء من بيتنا الى جيراننا. وكانت، أحياناً، تمد يدها الى صدرها وتتناول منديلا عقدت طرفه على بعض القروش، فتعطي منها الى هذه الجارة أو تلك، وكانت تفعل ذلك خفية عن الوالد، ولا تحدثه بهذه الأشياء، وكان التفاهم محصوراً بيني وبينها، فهي تطلعني على كل شيء، وتفتح قلبها لي، وتحثني على عمل الخير، وتثق بأنني أطيعها وأنفذر غيابها.

وقد لاحظت، تلك الأيام، أن أمي تعاني هماً داخلياً مفاجئاً. لم تقل لي عنه، ولم تتحدث بأمره على مسمع مني، وقد حاولت جاهداً أن أعرف مابها، لكنها كانت تقول:

«لاشيء صحتي ليست على مايرام» وعندما شاهدتها، يوماً، تحمل بلاطة الكبة، ثم تضعها على بطنها، ادركت ان ثمة ما يضايقها، وتبعتها ذات مساء، الى احدى الجارات، فسمعتها تقول أنها حامل!

وكما منعتني من الصيد في المستنقع، منعتني من الذهاب مع الناس لجمع البزاق. غير أنني عصيتها وذهبت. لحقت أهل الحي الى الحقول، وهناك رأيتهم ينطلقون في كل الاتجاهات، ظهورهم مقوسة، وعيونهم محدقة في الأرض، وأيديهم تبحث بين الأعشاب والأدغال، وحين يعثرون على بزاقة يرفعونها ويلقون بها في سلالهم، فيكون للبزاق المتجمع في الأكياس والسلال قرقعة كما للجوز.

كان منظر البزاقة وهي تدب على العشب، أو تتسلق أغصان الأدغال، أو تلطي في جذور النباتات المائية، كريها بما تخلفه وراءها من لعاب أبيض لزج، كزلال البيض، وبما يبدو عليه جسمها من شكل دودي بني مبرقش، وهي ترسل شاربيها الطويلين. تتامس بهما الطريق، في زحفها عقب الندى الصباحي.

لقد كرهت البزاق ، ولم أشارك في جمعه أبدا. اكتفيت بأن أتابع أهل الحي وهم يبحثون عنه ، ويجمعونه في الأواني التي حملوها معهم . كنت أشعر بالغثيان ، وتنتابني أحاسيس مرضية ، وعندئذ أبتعد إلى وراء ، وامضي مع شواطئ الندران ، وأجلس عند جذع شجرة ، مصغيا إلى زقزقة العصافير ، ملاحظاً الخضرة من حولي ، رانياً إلى بعيد ، مفكراً بكل هذا البؤس الذي يرزح تحته حينا ، متسائلاً عن مصير الناس في الأيام القادمة ، يوم لايبقى مايأكلونه من زواحف البحر أو البر .

وكان يتهيأ لي ، حين استعرض هذا الشقاء الذي يعانونه ، وتتراءى لي جسوم الأطفال في هزالها وصفارها ، ووجوه الرجال والنساء في ضمورها وشحوبها ، واسمع أنات المرضى ، وصرخات الجياع ، واقلب نظري في الحي المتناثرة أكواخه القميئة بين أدغال البردى ، وسط مستنقع تنق الضفادع فيه ، وتسرع الأفاعي في جوانبه ، ان الفقر هنا هو الفقر ، هو البلاء الأسود ، هو الوجه الآخر للموت ، وان الحياة على هذا النحو بغيضة لاتحتمل ، وان الذين تظاهروا وهاجموا السراي كانوا على حق ، وان هذا ماكان يجب أن يفعلوا ، وأن الذين يسرقون

لاتنقصهم الفضيلة ، ولامعرفة الوصايا العشر ، وانهم مدفوعون إلى ذلك دفعا، وهم لايمسون أشياء الغير عن قحة بل عن حاجة ، وهم لا يعتدون لانهم يحبون العدوان ، بل لانهم جياع ، وان من حقهم أن يأكلوا، وأنهم في سبيل ذلك قادرون على ارتكاب أشنع الاعمال ، وإذا كانوا لايفعلون فلأن نفوسهم الكريمة تحول بينهم وبين اقترافها .

كانوا يمضون ساعات طويلة في جمع البزاق ، ولكم خيّل إلي ، وانا اراهم يفعلون ذلك ،أنهم يجمعون السنابل من أراضي الحصاد كما كنا نفعل في قرية « الأكبر». هناك ايضا كان اللاقطون ينتشرون في البراري ، ولكن لقط السنابل غير لقط البزاق . ان السنبلة تظل على بهائها ، تشبه زهرة خاصة ، ذهبية ومستطيلة ، وعندما تجتمع سنبلة إلى أخرى ، تتشكل باقة تشبه حزمة زهور برية ، صفراء وجافة ، ذات مسلات ابرية كأنها أوراق دقيقة ، رمحية ، سمراء ، تحيط بدغل من الجسوم الرهيفة الملأى بحبات القمح . غير أن البزاق ذا الشوارب ، والجسم الهلامي ، اللزج ، المرقط ، كان منفراً ، ولم يكن أكله شائعاً أو مستساغاً ، ومن المؤكد أن أهل الحي كانوا

يجمعونه على كره ، وكم رأيت دلائل ذلك على وجوههم وهم ينظرون إلى البزاقة السارحة ، ويتصورون أنهم سيمضغونها باسنانهم بعد قليل .

في الظهور والأماسي كانوا يعودون بسلالهم التي جمعوا فيها البزاق ، وكانوا يشعلون النيران أمام الابواب ، ويرفعون عليها تنكات ملأى بالماء والبزاق ، ويضيفون إليها قبضات من الملح ويدعونها تغلي حتى تنضج ، فاذا تم ذلك ، افرغوا الماء من التنكات ودلقوا البزاق في الأطباق ، وجاءوا بدبابيس يخرجون بها جسوم البزاقات من قشراتها الصدفية ، ويلقون بها في أفواههم ويمضغون .

آه كم عانيت ذلك ، وكم رأيت الآباء والامهات يخرجون جسوم تلك الحشرات بدبابيسهم ويضعونها في أفواه أطفالهم ! وكان الأطفال يأكلون بشراهة الجائع حتى تمتلىء معدهم ، وعندئذ يكفون عن البكاء في طلب الطعام ، ويروحون يلعبون ، فيفرح الأهل ، ويتناسون قليلاً ماهم فيه من بلاء .

كانوا يأكلون البزاق ساخناً ، لانه إذا اترد تعذر

اخراجه من قشوره ، وكانوا يأكلونه بغير خبز لعدم توفره ، لذلك أصابهم نوع من مرض غريب ، من نتائجه الاقياء والإسهال ، فانهدّت قوى الناس وخاصة الأطفال والشيوخ ، وفقدوا الشهية،وانطرحوا في البيوت ، ودبّ الرعب في الحي أن يكون ذلك المرض هو الكوليرا ، وبلغ الخبر البلدية ففرضت حجراً صحياً على الحي .

اكتملت الحلقة الآن . انغلقت على نفسها . صار الذين في الداخل معزولين عمن سواهم . هبت ريح من جحيم فأيبست ماتبقى من غراس خضر ، الجوع والمرض والموت . اغلقت نوافذ الأمل وساد استسلام أعمى لمشيئة القدر ،.بدت الوجوه معروقة ، كامدة ، تطل منها محاجر فارغة ،وانطفأت النظرات في الاحداق، والهزال حال بين الناس وبين أن يقفوا على أرجلهم ، فترنحوا من خوف أن تكون شائعة الكوليرا صحيحة .

هل كان اسبيرو الاعور مذنبا ؟ لم يقل أحد له أنت مذنب ، لكنه ، هو ، كان يستشعر بالذنب . ترك التطواف في الحي ، ولم يعد يطلب مني أن أقرأ له في الكراريس ، وانزوى في كوخه يداري جراحه النفسية كالآخرين .

وذات صباح انتقل خبر رهيب من بيت إلى بيت :
« اندون » شنق نفسه على شجرة في حديقة المنشية .
لقد ملّ الحياة . طغى القنوط على نفسه فأغرقها في مستنقع العدم . اختار النقلة بين مستنقعين ، كلاهما صلصالي .
هرب إلى الموت من بشاعة الحياة ، وفي الليل ، بعد أن نامت زوجته وأطفاله ، علّق حبلاً في غصن شجرة قديمة وتهاوى ليتأرجح بغير صوت .

عندما وصلنا إلى الحديقة كان لايزال معلقاً هناك ، بدا طويلا ، مائل الرأس ، أصفر الوجه ، ممطوط الرقبة ، حافي القدمين ، وليس على جسده سوى شروال ممزق وقميص مفتوح الصدر . كان مخيفاً ، بعينيه الجاحظتين ، ولسانه الازرق الذي يندلق خارج فمه ، ويعضّ عليه بفكيه ، وكانت زوجته تلطم خديها ، وتعفر وجهها بالقش والتراب تحته ، وا ولاده الصغار ينظرون إليه برعب ، ويبكون مثل أمهم ، وأهل الحي يتحلقون من حوله وقد استبدت بهم الحيرة ، وحارس الحديقة يمنع الرجال من انزاله حتى يصل الطبيب الشرعي والشرطة .

لم تسمح لي أمي بالبقاء في الحديقة حتى انزال «اندون» من الشجرة ، كانت تبكي ، وتغطي وجهها بيديها ،

ويهتز جسدها الصغير من فرط تأثر وانفعال . وقام بعض الرجال بابعاد الأطفال عن المكان ، وتعاونت النساء على أخذ أطفال المشنوق إلى بيوتهم ، وبعد الظهر شيعوا جثمانه إلى المقبرة ورأيتاسبيرو الاعور يسير في الجنازة وهو منكس الرأس .

في ذلك اليوم ، عصرا، رأيت أسبيرو الاعور كرة أخرى . كان يترصدني خارج البيت ، وقد ندهني فاسرعت إليه ، كنت مشوقا إلى الحديث معه ، وقد طابت منه أن يأتي إلينا ،وقلت له أن أمي تسأل عنه، وانها توده وتقدر مافعله لأجلنا . لكنه لم يأت .

بان الارتياح على وجهه ، وأطرق وهو يفكر ، ثم سألني :

– ماذا يقولون عني في الحي ؟

– لاشيء . . يفتقدونك فقط ، لماذا لم تعد تظهر ؟

– هكذا . . .

– الا تريد أن أقرأ لك ؟

– بلى . . لأجل هذا أنتظرك .

وتواعدنا على اللقاء ذلك المساء، لكن أمي منعتني من الخروج ليلاً، ولم تخرج هي أيضاً. وعبثاً حاولت التسلل للذهاب إلى ذلك الذي سيفرح كطفل ما أن أقرأ له في أحد الكراريس التي يخفيها لا أدري أين، ويضعها ليلاً في عبه كي يستمع إلى ما فيها من كلمات تفعمه حماسة.

بعد أيام وقع حادث آخر. هزّ الحي أيضاً، لكنه لم يكن غريباً على جوه المأساوي. وحالة التوتر واليأس التي تخيم عليه.

كنا نلعب في الحديقة، وكان الوقت ضحى، ورأينا شاباً نعرفه، يدعى سليمان، ويلقبونه بسليمان الجامد. كان هادئاً خجولا، منطوياً على نفسه، وعاطلاً عن العمل، كأكثر أهل الحي. وقد جاء إلى الحديقة ومعه بندقية صيد. فجلس على جذع شجرة كينا، وأخرج زجاجة عرق وراح يشرب منها:

بعد قليل نادانا إليه، كانت معه ورقة فيها قضامة، ففتحها ووزع القضامة علينا، وطلب منا أن نذهب فنلعب بعيداً، في طرف الحديقة الآخر، لأن رأسه يؤلمه، ويريد أن يستريح من الضجة التي نثيرها.

امتثلنا للطلب وتراكضنا نقفز إلى أقصى الحديقة ، وهناك استغرقنا اللعب ، فلم نعد نرى سليمان ، ولاماذا فعل . ومن المؤكد أنه خلا لنفسه في تلك السكينة التي تحيط به ، وفكّر في حياته وحياة الحي ، والمدينة ، وغامت الدنيا في عينيه ، فصمم على الخروج منها .

هو أيضا مثل « أندون » جلب معه أداة موته . ذاك اصطحب حبلا وهذا بندقية صيد ، والذين شاهدوه في الحديقة ظنوا أنه يصطاد العصافير ، ولم يخطر على بالهم انه سيصطاد نفسه. ان الانتحار برغم كل مايعانيه الحي ، لم يكن مقبولاً من الناس ، وعندما انتحر » أندون » لم تكن تعليقاتهم معه ، واذا كان له عذر في نظرهم فلأنه صاحب عائلة ، وقد عزّ عليه إلى درجة الجنون أن يرى أطفاله جياعا ، أما سليمان فقد كان شاباً ، ولم يكن متزوجاً ، لذلك احتار الناس في تفسير اقدامه على الانتحار ، ولم يقتنعوا ان الضائقة وحدها سبب كاف .

غير أن سليمان كان قد انتحر . حشا بندقيته بالبارود والخردق ، وافرغها في فمه ، فلما سمعنا الصوت ، ورأيناه يتمرغ على الأرض تراكضنا إليه ، وصرخنا

في خوف وذعر فأقبل رجال من الحي ، وحاولوا نقله إلى طبيب ، لكنه فارق الحياة في موضعه ، وهرع حارس الحديقة ليقوم بمهمته المعتادة : استدعاء الطبيب الشرعي ورجال الشرطة .

بعد الظهر خرج الحي ليشيع ضحيته الثانية . كان وجوم عام على الوجوه ، وحزن عام ونقمة عامة ، وكان المشيعون يتساءلون: ماذا يخبيء لنا المستقبل أيضا؟ وكانت أسئلتهم تظل بغير أجوبة . تتراقص ، علامات استفهام كرؤوس الجن ، في فضاء يدور من حولهم ويدور بهم ، وهم يجاهدون لان يتماسكوا ، ولأن يوقفوا أقدامهم عن الانزلاق في مستنقع الصلصال، ومستنقع العدم .

في ذلك المساء استطعت التسلل إلى كوخ اسبيرو الاعور . جئته بغير ميعاد . كان يجلس تحت الفانوس ويستند بظهره إلى الجدار ، وكان غارقاً في أفكاره حتى خيل إلي أنه لايريد القراءة ولا الكلام .

جلست قربه على الحصيرة ، ولاذ كلانا بالصمت ، وسمعنا نقيق الضفادع وعواء الكلاب ، وعكست ذبالة

الفانوس المتأرجحة ظلالاً شبحية على الجدران ، وساد جو مأتمي داخل الكوخ ، وطال الصمت ثقيلاً مبهظاً حتى قطعه بقوله:

– اليوم تبدأ محاكمة فايز الشعلة والمعتقلين في حلب!

– و ماذا سيحدث لهم فيها ؟

– لاأعرف . . .

– وماهي أخبارهم ؟

– طيبة . .

ثم استقام ظهره وقال :

– سيدافع عنهم محامون كبار .. هكذا علمت، وستجري محاكمتهم أمام قضاة فرنسيين في المحكمة المختلطة . . .

– ولهذا أنت حزين ؟

– لا . أنا لاأخاف عليهم .سيتكلمون عنا ولأجلنا، وسيدافعون بأصوات عالية وجريئة . كما في الكراس

الذي قرأناه ، وسيعودون في المستقبل إلينا . . . ان هذا سيصير وسأذكرك .

ولم يذكرني ، وان كان الذي قاله قد صار . . .

لم يذكرني لأنه لم يلبث أن دخل السجن ، ثم لم أعد أراه ، ربما هجر الحي ، او المدينة كلها .



أواخر الصيف ، ذلك العام ، طرأ شيء من نشاط على حركة المرفأ . صادرات القمح السورية استأنفت شحناتها البحرية إلى فرنسا ، وعاد قسم من رجال الحي إلى العمل في المرفأ وسكة الحديد ، فتنفس الناس بعد اختناق . ان بقعة من ضوء لاحت وسط الظلمة التي اناخت طوال اعوام . ظلّ الفقر هو الفقر ، لكن شبح المجاعة توارى تدريجياً ، وانحسر كابوس الموت ، وطار غرابه الاسود عن ادغال البردى التي خطّ عليها ، فكان نعيقه المشؤوم اشبه بنعيق بوم في خربة .

كذلك ، في الخريف ، ولدت أمي بنتاً . كانت غير سعيدة بولادة البنات . كانت ولادتهم تشكل بالنسبة إليها ضربة قدر موجعة ، وترى اليها ، كرؤيتها لكل شر ، نوعاً من عقاب على ذنب اقترفته وهي لاتدري . كانت تتألم لانها تلد بناتاً ، فاذا كبرن قليلاً ، وأنست بهن ونسيت تلك المرارة التي عانتها عند ولادتهن ،

جاء الموت فتخطفهن ، فكأنه يعاقبها على اعتراضها على ارادة الله كما قالت . هذه المرة استسلمت وأظهرت القناعة ، وانقطعت عن الخدمة في بيوت الأسياد ، وعشنا ، كما هي الحال دائماً ، على الكفاف ، ننتظر كل شهر أوعدة شهور ،أن يقبض الوالد أجر الاختين الخادمين، وان يعود علينا ربحه من بيع المشبك في القرى بثمن الخبز والآدام .

وفي بدء العام الدراسي ، انتقلت من المدرسة الارثوذكسية إلى المدرسة الرشدية ، كان الأخوان فلفاط قد سبقاني اليها ، وكنت قد ترفعت إلى الصف الرابع ، وليس ثمة صف رابع في المدرسة القديمة ، فلم يعد أمامي من خيار ، وهكذا صحت عبارة « وداعاً أيتها الام الحنون » التي كتبتها على لوح الصف عند نهاية السنة الدراسية السابقة .

ولقد أحسست فعلاً أنني أودع أماً حنوناً ، كانت ألفتي مع الأشياء القديمة اثيرة علي ، وكثيراً ماكتبت على لوح الصف خلال فترات الاستراحة ، بعض العبارات

اوابيات الشعر التي كنت أقرأها أو أحفظها .وأذكر أنني كتبت مرة بيتاً من الشعر ، مؤداه ان على الناس ألاينظروا إلى ثياب الفتى بل إلى علمه وأدبه ، ولما دخلنا الصف سألتنا المعلمة عمن كتب هذا البيت ، فاعترفت بأنني كاتبه . وحين استجوبتني عما أقصد به احرجت وخفت ، وتظاهرت بأنني لاأفقه معناه ، وأنني قرأته في مجلة وحفظته ، وكتبته على اللوح لأنني أحببته .

نظَرت المعلمة إلي مليا ، صعدت نظرها في ثيابي من قدمي إلى رأسي ، فوجدت أن بيت الشعر ينطبق على ثيابي ، لكن مسألة « العلم والأدب » التي وردت فيه تنطوي على غرور لايتناسب مع معلوماتي المدرسية الضئيلة ، غير أن المعلمة كانت كريمة ، وقد ردت هذا « التبجح » المبكر إلى طموحي ، وربما إلى احساسي بالقهر الاجتماعي ، بسبب فقري ، فعفت عني وأمرتني الا أعود إلى كتابات من هذا النوع ، بعد الآن ، وبذلك حرمت من التعبير عن نفسي . وكنت اتقصد ذلك ،لكي تقرأه الفتيات الثريات في صفنا ، ويعلمن انهن لسن أفضل مني بسبب الثياب الجميلة الفاخرة التي يرتدينها .

غير أنني خالفت المعلمة من جديد ، وكتبت بيتاً

من الشعر قرأته لاأدري في أية مجلة أوصحيفة ، كانت تتحدث عن فلسطين ، وجاء فيه :

ثوري ولو فرش الذين طغوا
طرق الجهاد أسنة ونصولا

هذه المرة قرأ المدير نفسه بيت الشعر ، وربما حدث ذلك عرضاً لدى دخوله الصف خلال الفرصة ، فلما عدنا إلى الصف وبدأنا الدرس ، طرق الباب ودخل بهيئة تنم عن غضب وانفعال . فوقفنا جميعاً لدخوله ، فطلب منا الجلوس وتهامس مع المعلمة عمن كتب بيت الشعر ، ثم سأل بصوته ذي الجرس القوي ، القاسي ، عمن فعل ذلك . وللحال تلفتت رؤوس التلاميذ الي ، فاطرقت من خوف ، لكنه ناداني قائلا :

– من كتب هذا ؟

– . . .

– من كتب هذا ؟

واقترب مني وأمسك بشعري فرفع رأسي إلى أعلى كان المدير مشهوراً بقسوته . نفس شهرته بحبه للنساء وملاحقته للمعلمات ومضايقتهن ، وكانت المدرسة كلها ترتجف اذا غضب ، والتلاميذ يخافونه

حتى الرعب ، والمعلمات يكرهنه ويخفنه ، ولم يكن لي شافع سوى أن اعترف ، واتحمل ماينزله بي من قصاص .

اعترفت أنني كاتب بيت الشعر . تمتمت بذلك دون ان انظر إليه ، وعندئذ صاح بي :

ـ أتعرف ما معنى هذا ؟

أجبت بالنفي ، وهذا مازاد في غضبه وهياجه فصاح بي :

ـ أتكذب أيضا ؟ قل لي عن أي بلد قيل هذا الشعر ؟

وأومأت المعلمة برأسها أن أقول ، والا أخاف ، فجمعت شجاعتي وقلت :

ـ عن فلسطين !

ـ فلسطين ؟ وما علاقتك أنت بها ؟ وما علاقة المدرسة بالثورة الفلسطينية ؟ الا تعرف أن هذه مدرسة دينية ؟

لذت بالصمت . ترك شعري وراح يسير في الغرفة

بخطى يرن في وقعها العنف والتهديد ، ثم اتجه إلي من جديد وسألني :

– الست من حي الصاز ؟

– نعم !

– أنعم وأكرم ! !

قالها بلهجة ساخرة لاذعة ، وأضاف :

– ليس هذا بمستغرب اذن . . الستم انتم الذين هاجمتم السراي ؟

– والدي لم يفعل شيئا .

– باطل ! والدك آدمي ، كلكم أوادم ، نحن الذين فعلناها !

استمر هياج المدير . فار وانكب . ذرع الغرفة بخطوات صارمة ، ثم خرج وطلب من المعلمة أن تتبعه الى غرفة الادارة ، وحين رجعت كان العبوس يشيع في وجهها ، وأعلنت بكل ما استطاعت من حزم :

– ممنوع الكتابة على اللوح الا كلمات من كتبكم المدرسية ومن الصلوات التي تتعلمونها ، ومن يخالف يطرد .

ولم اقتنع بهذا الأمر ، كما لم أفهم سبباً لهياج المدير ، لأني ، أصلاً ، لم أكن قد فهمت المعنى الثوري لبيت الشعر ، وقبعت في الصف خلال الفرصة ، هرباً من تعليقات الأولاد على فعلتي ، فجاءت الي المعلمة مواسية وقالت :

– لماذا فعلت ذلك ؟ أما نهيتك عن الكتابة على اللوح؟

كانت لهجتها رفيقة ، عذبة ، خالية من كل تأنيب ، فوعدتها الا أعود الى مثل هذه الفعلة ،وعندئذ مسدت شعري بكفيها وقالت :

– يكفي اذن . أنس ما جرى . . ولا تهتم بما قاله المدير .

في المدرسة الرشدية لم يكن معلمات . وقد افتقدتهن كثيراً . كنت أشعر أنهن أقرب إلى فهمي ، وأقدر على بث الطمأنينة في نفسي ، وأفضل من المعلمين في تدريس التلاميذ أمثالي ، ولهذا استوحشت جداً في أيامي الأولى في المدرسة الجديدة ، وكنت أهرع ، ما أن ننصرف بعد الظهر ، إلى مدرستي القديمة ، فأقف على الباب الخارجي ، وأنظر بكثير من الحنان الى غرفها وباحتها وذلك القبرذي الكتابة اليونانية قرب كنيستها ، فيراني التلاميذ ويتراكض

بعضهم الي ، وطلبت مني المعلمات ، أكثر من مرة . أن أدخل واحدثهن عن مدرستي الجديدة ففعلت ، وكنت سعيداً بذلك غاية السعادة .

مدير المدرسة الرشدية كان تركياً من اللواء . درس في تركيا ، وتخصص في التاريخ ، فهو يدرسنا هذه المادة . كنا ندعوه الأستاذ محمود ، أو المدير ، وكان غريباً حقا ، بقدر ما هو ذكي حقا . انه يعرف كل ما في كتاب التاريخ غيبا ، لذلك لايعمد إلى فتح الكتاب عند التسميع ومتابعة ما يقوله التلميذ ، بل يصحح له من عنده ، بخلاف المعلمين الآخرين الذين ينظرون في الكتب عند التدريس .

كانت المدرسة تقع في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة ، لايفصلها عن السجن سوى الطريق ، وعن المبغى سوى النهر ، وكان فيها تلامذة كبار ، وثمة شباب في الصف الخامس ، صف الشهادة الابتدائية ، وفيها ذلك الطالب الذي اسمه حنفي ، الذي تزوج وصار له أولاد ولم يأخذ « السرتفيكا » بعد ، فكان زملاؤه الأصغر سنا يهزأون به ، ويمازحونه مزاحا قاسيا ، فيتحمل ذلك منهم ، لأنه صمّم على أخذ الشهادة !

وكان معلم اللغة الفرنسية شاباً أرمنيا أعرج ، مغرماً بشيئين : اللغة والرياضة ، فهو يرفض أن يتكلم معنا بغير اللغة الفرنسية ، وكنا لانعرف التكلم بها ، فكان يعاقبنا لذلك ، وهو يريد أن ينشيء فريقا لكرة القدم ، وقد نصب من نفسه مدرباً للفريق ، وفرض على أعضائه أن يشتروا الأحذية والفانيلات وكل عدة اللعبة ، واختارهم من الصفين الرابع والخامس، وكان الذين اختارهم من أكثر الطلاب تقصيراً في الدروس ، فجاء انتسابهم إلى فريق كرة القدم ليزيد في تقصيرهم ، وهذا ما أثار عليه المعلمين الآخرين ، وانتهت المحاولة ، إلى فشل انشاء الفريق ، وفشل التكلم باللغة الفرنسية ، وخابت آمال المعلم الشاب . فترك المدرسة في منتصف العام .

وكان معلم اللغة العربية يدعى الأستاذ أحمد ، وهو من حلب ، وقد درس في القاهرة ومفعم بالروح العربية ، فأخذ يحفظنا القصائد الوطنية التي أزكت حماستنا ، فكنا نجلّه ، ونحبه ، وكان هو يعاملنا كأصدقاء، وهكذا استقطبنا حوله ، مما أثار حفيظة فريق من الطلاب الأتراك ، فوقعت مصادمات بيننا ، وهي انعكاس مبكر للاصطدامات التي ستنشأ فيما بعد بين الأكثرية العربية في لواء اسكندرونة

والأقلية التركية ، والتي ستنتهي مع الأسف بسلخ لواء الاسكندرونة عن أمه سورية ، اثر التواطؤ الدولي المعروف عشية الحرب العالمية الثانية .

هؤلاء الثلاثة : المدير ، معلم اللغة الفرنسية ، معلم اللغة العربية ، هم الذين لفتوا انتباهي أثر دخولي المدرسة الرشدية . كنت صغيراً بالجسم قياسا إلى التلاميذ الآخرين ، وكنت هزيلاً إلى درجة مفرطة ، ولاتساعدني هيبتي الجسدية على طلاب الصف الرابع الكبار عمراً وجسماً ، الذين صرت عرّيفهم نتيجة تفوقي عليهم ونجاحي بالمرتبة الأولى ، ولكم عانيت منهم في الصف وخارجه ، إذ كان علي ، عقب كل فرصة في اليوم ، أن أنظم التلاميذ في صف طويل كباقي الصفوف ، فكانوا لايستجيبون لي ، ويحاولون تهديدي ، لكن الأخوين فلفاط انتصرا لي ، وهكذا استطعت التغلب على هذه العقبة ، اما داخل الصف فكانوا يرفضون الانصياع للهدوء في غياب المعلمين عن الحصص ، وخاصة المدير ، ويشرعون بخبط ارجلهم على الأرض ، وقبضاتهم على « الرحلات » ، ويخرجون أصواتاً كمواء القطط أو يقلدون الحيوانات ، أو يغنون ويرقصون ،.

وكثيرا ما قذفوا طاولة المعلم بالقشور والأوراق ، وكان في الصف تلميذ كسول جدا في دروسه ، نشيط جدا فيما عداها ، وقد جاء بمسامير دقها داخل « رحلته» ومد بينها اسلاكاً نحاسية كالأوتار ،فهو يعزف عليها ويهيج الصف ، ويطلب مني أن أنقله العمليات الحسابية ، فاذا رفضت زاد من شغبه ، حتى ضقت ذرعاً وتعمدت الاأنجحبالمرتبة الأولى لأعفى من مهمة العريف اللعينة . والغريب أن بعض التلاميذ كانوا يثيرون الشغب بوجود المعلمين أنفسهم ، وفي وجود المدير ذاته ، وكان عدم الانضباط يبلغ قمته حين يكون المعلم ضعيف الشخصية ، ضعيف القدرة على التعليم ، أو حين يسمح بزوال المسافة بينه وبين التلاميذ ، أو يتحدث عن نفسه أمامهم ، أو تخدعه مدائحهم وتملقاتهم . كانوا يشبهون مثل هذا المعلم بالممثل السينمائي الفلاني ، أو بالزعيم الفلاني في البلاد ، أويقولون له آن البنات معجبات به ، أو أن صوته جميل ويرجونه أن يغني أو ينشد لهم مقطعاً من نشيد ، أو يطرون معارفه ، ويمتدحون ثيابه ، فاذا وقع المعلم المسكين في أحابيلهم تعذر عليه ضبط الصف ، وفرضوا عليه أن يطوي كتاب الدراسة ليجري محادثة حرة معهم ، تتخللها كل أنواع النكات والمداعبات !

لقد افتقدت في هذه المدرسة الحكومية كل الجدية والمحبة والاحترام الذي شهدته في مدرستي الخاصة الأولى . وعزوت ذلك إلى كبر التلاميذ هنا ، وتعذر ضبطهم ، ورثيت لحال المعلمين ، وأشفقت عليهم ، وتصورت أن مهنة المعلم من أشق المهن ، وكرهت هذه المهنة ، وقلت لأمي :

– لاأريد أن أكون معلماً في المستقبل !

– لماذا ؟ ألا يعجبك أن يناديك التلاميذ يامعلمي ؟

آه يابني لو يصير ذلك يوماً ، لو أراك معلما !

– ولكن أنا لاأريد . .

– وما هو العيب ؟

فاعترفت لها :

– التلاميذ يضحكون على المعلمين !

فخفقت بكفها على صدرها مجفلة وقالت :

– آه ياربي . . يمكن أن يحدث هذا ؟

– نعم يمكن .. هذا ما يفعله التلاميذ في مدرستنا.

– وأنت ؟ هل تفعل هذا أيضا ؟

– أنا لاأفعله . . أنا أحترم المعلمين ، لكنني لاأريد أن أكون عريفاً ولا معلما .

ـ كن كاهناً اذن . . أنت تكتب وتقرأ ، وتستطيع أن تصير كاهنا .

ـ ولاهذا أيضاً !

ـ آه يابني ، آه ياصغيري ، لاتكفر فالله يسمعنا . . لاتقل لاأريد أن أكون كاهناً ، هذا خطيئة .

لم أقتنع أن هذا خطيئة . سكت . كنت أحرص على عدم اغضابها ، وكانت هي ، في اعماقها ، تنطوي على رجاء أن أكون كاهناً في المستقبل ، وبقيت على هذا الرجاء طويلاً ، ثم تخلت عنه آسفة عندما كبرت .

أما المعلم فلم تحرص على أن أكونه . تركت لي الحرية في ذلك ، وتكفلت مدرسة الرشدية باقتلاع هذه الفكرة من رأسي ، وزاد في جذرية أقتلاعها انني أرغمت على أن أكون عريفاً لمدة طويلة ، وتحملت ذلك بصبر ، فلم ارض ابداً أن أشكو الصف ، أو اياً من زملائي التلامذة إلى المدير . .

وكان هذا في شغل شاغل عن المدرسة ومديريتها . بماذا كان يفكر ؟ ولماذا يقف إلى النافذة وينظر أمامه في

خط مستقيم طوال حصص الدرس ؟ وماسبب هذا الغموض الذي يلف حياته فلا أحد يعرف عنه شيئاً ؛؟ وكيف يعيش مع المعلمين ثم لانراه يمشي أو يتحدث مع أحد منهم ؟

كان ربعة ، أفطس الأنف ، أبيض البشرة ، دقيق التقاطيع ، حاد الشخصية ، يلبس قلبقاً ، وسترة فوق صدرية مخملية ، وبنطلوناً أنيقاً من نفس سترته أو من لون ينسجم معها ، وحذاء ذا كعب عال خلافاً للزي الشائع . باختصار كان أنيقاً في غير إفراط ، رقيق البنية ، يدخن كثيراً ، وله أظافر مقلمة نظيفة ، ويمشي بخطى قصيرة ايقاعية ، ذات صوت يسمع في الممر قبل دخول قاعة الدرس ، وتلوح من هيئته كلها امائر جدية ، ويبدو غالباً في وضع المتأمل أو المفكر ، ويجلس عصراً في خمارة يونانية ، تظهر براميل الخمر في جوفها من الطريق العام ، ولهذا قدر التلاميذ أنه يشرب ، وأنه حين ينظر من النافذة فانه يرصد المبغى المجاور .

كان يدخل قاعة الصف بهيئته الجدية الصارمة ، فنقف جميعاً تحية له ، ويرد علينا باشارة من يده طالباً أن نجلس ، ثم يلقي الدرس بكلمات عربية سليمة ، وبايجاز

وصحة ، فلا يخطىء أبداً في التواريخ ، ويطلب من أحدنا أن يسمع ، فينهض التلميذ ويبدأ الكلام ، وينصرف هو إلى النافذة ، فلا يتحول عنها إلا نادراً ، وقد لايتحول عنها حتى لو انتهى التلميذ من التسميع ، أو توقف عن الكلام لأنه نسي الدرس أو لم يحفظه ، وعندئذ كان يسري في الصف نوع من الترقب ، ويظل التلميذ واقفا ، وتنتهي الحصة ويقرع الجرس والمدير إلى النافذة شارد مع أفكاره .

أحياناً كان يتحول فجأة ، عندما يخطىء التلميذ ، فينبهه الى الخطأ، أو يعاقبه لأنه لم يحفظ الدرس، وهكذا كنا في خوف دائم، نذاكر درس التاريخ جيداً، لأن أحداً لايعرف متى يجيء دوره، وكان مجرد استدارته من النافذة يبعث فينا الرهبة، ولكن هذه الالتفاتات كانت قليلة، وهذا ماأغرى ذلك الطالب المشاغب باسلاكه النحاسية أن ينهض عن مقعده، ويقوم بحركات مضحكة تنفس جو الكبت الذي يسود الصف.

ذات مرة ، وفيما كان التلميذ يقوم باحدى هذه الحركات ، التفت المدير فرآه. كان دوي المفاجأة مثل انقضاض الصاعقة. خيم صمت عميق على الصف، وسيطر

عليه التوتر، وأخذ التلميذ يرتجف، والمدير ينظر اليه نظرات تشتعل غضباً، دون أن يقول له شيئاً، ودون أن يطلب منه الخروج من مقعده لينال قصاصه كما جرت العادة.

وضع المدير يديه وراء ظهره وراح يخطو خطواته القصيرة، العنيفة، ذات الوقع العالي، الرتيب، معتصماً بالصمت كأنما ماحدث أكبر من الكلام. كان هذا كله معذباً، مؤلماً، تمنينا معه أن ينفجر غضبه على التلميذ، على الصف، وأن نعرف، أخيراً، نوع العقاب الذي سينزله بنا. لكنه استمر في صمته، وفي اكفهراره، مما زاد التوتر، وزاد الرهبة في نفوسنا، الى أن قرع الجرس، وخرج التلاميذ من باقي الصفوف الى الباحة، ونحن جلوس على مقاعدنا، عيوننا مشدودة اليه، وآذاننا مرهفة لسماع الحكم الذي سيلفظه لنتقبله مهما يكن قاسياً.

غير أنه لم يصدر أي حكم. خرج كما دخل، بنفس الخطا القصيرة، الرتيبة، الحادة، كأنها ايقاع أقدام تحمل معها نذيراً بعذاب مرير. وحين خرج تنفس الصف قليلا، وبعمق وارتياح، وظل التلميذ المشاغب

يرتجف وقد علت سحنته صفرة الرعب، الى أن جاء من يستدعيه الى غرفة المدير، وهناك طلب منه ان يحمل كتبه وينصرف الى البيت، مطروداً لمدة اسبوع.

وجدنا هذا القصاص خفيفاً. كنا نتوقع عقاباً اقسى بكثير، خاصة وأن سجل التلميذ طافح بشكاوى المعلمين منه، وقد اطلع المدير على ذلك في الادارة بغير شك، ومع ذلك لم يطرده من المدرسة نهائياً ، ولم يضربه، ولم يوبخه امامنا ، ولم تبلغ حركة التلميذ التي اكتشفها المدير ، ولا كل الأقوال التي كانت تصله على نحو نحو ما، ان تغير من طبعه او عاداته،ظلّ كما عرفناه، متأملاً ، مفكراً ، سارحاً وراء خيالات ورؤى عزيزة عليه ، لايفصح عنها لأحد ، ولازم مجلسه في الأمسيات عند ذلك الخمّار اليوناني ، غير مبال بما يمكن أن يحمله اليه مجلسه هذا من حرج باعتباره مديراً لمدرسة حكومية .

ان هذا المدير الذي اختفى فجأة من المدرسة والمدينة قد ترك فيّ تأثيراً حلواً من المودة الخالصة والاعجاب البالغ . لم أصدق ماقيل عنه ، ومن المؤكد أنه كان فناناً أكثر منه معلماً ، وربما كان يضيق بمهنة التعليم ، وربما كانت له

حبيبة أو خطيبة في مدينة بعيدة ، أو له صلات وأصدقاء وعلاقات تستأثر على هذا النحو بأفكاره ، ومهما يكن فانه كان انساناً غير عادي ، كان كائناً ، فيما خيّل الي ، عظيماً ونادراً .

ولقد سمعت ، فيما بعد ، أنه عاد الى تركيا ، وأنه دخل السجن بسبب أفكاره التقدمية ، وأنه عمل في الصحافة ، وصار كاتبا مشهوراً ، وأنه تعرض لكثير من الملاحقات والمضايقات وظلّ على جديته ، وغرابته ، ونزعته الفنية ، حياة وابداعا .

ولم يمهله العمر . خانه . ومات على نحو ما ، في عز الشباب .



في بداية موسم الحصاد حمل الوالد عدة « المشبك » ، ورحل مع الراحلين من أبناء الحي الى « سهل العمق » ، للقاط سنابل القمح وبيع الحلوى ، ولقد حاولت الوالدة أن تقنعه بعدم الذهاب ، وبالبقاء معنا في المدينة ، فأصر على رأيه ، معلنا أن الحر قد أقبل ، وأن بيع المشبك غير رائج بعد اليوم في القرى ، وأن من الأفضل الذهاب إلى سهل العمق ، هذا الذي يعرفه ، لأنه سبق أن ذهب اليه لقلع السوس عندما كنا في بلدة السويدية .

كانت الرغبة في الرحيل قد عاودته واستبدت به من جديد ، وفي هذه الحال لانفع من محاولات الإقناع . انه سيذهب إلى مكان ما ، ان لم يكن إلى سهل العمق فالى غيره ، ومن العبث امساكه عن ذلك . ولقد تألمت الام التي عادت الى الخدمة من هذه الرحلة ، وقالت انه لايجوز أن يترك البيت ويتركنا نحن الصغار ، فهي تتأخر ليلا عند أسيادها ، ومن الضروري وجوده إلى جانبنا ، لكن الوالد

لم يلق بالا إلى اعتراضها ، وهكذا بقيت أنا وأختي التي تكبرني ،والتي تركت الخدمة ، واختي الصغيرة وأمي . في غيابه الذي طال اسبوعين ، عاد بعدهما بحجة أنه سيجدد رأسماله ، لأن « المشبك » الذي صنعه قد بادل عليه بالقمح . . .

– وأين القمح ؟

– سنأخذه في الموسم

– وهل تظل تنتظر الموسم حتى تحصل ديونك ؟

– وماذا نفعل ؟

– نبقى هنا ، في المدينة .

– « المشبك » لايباع في الصيف .

– اشتغل في المرفأ

– وحقوقنا هناك ؟

– نتخلى عنها . فهي لاتساوي سفرك من جديد .

غضب الوالد وأصرّ على السفر ، وطلب من الوالدة أن تستلف له من أجرتها ، وحين عارضت هدد ببيع أغراض البيت . مما حملها على الرضوخ فاستلفت أجرة

شهرين ، وأعطته نصف المبلغ ، وهكذا اشترى الطحين والسكر والزيت ، واقترح أن يأخذني معه لأساعده في عمله ، وأقوم بلقط السنابل في أراضي الحصاد فوافقت من فوري . كان بعض أولاد حينا قد ذهب إلى هناك أيضا ، وأغراني ركوب السيارة ، فخالفت الوالدة وصممت على الذهاب مع الوالد ، ولم أتراجع عن رأيي ، وقلت لها انني سأكون مطيعا ومجتهدا ، وانه آن الأوان لكي أساعدهم بعمل ما .

ركبنا السيارة من اسكندرونة إلى (قرق خان) (١) فوصلناها مع العصر . أعلن الوالد أننا سننام فيها ، وقادني إلى أحد الخانات ، حيث استأجرنا فراشا وغطاء في غرفة صغيرة قذرة ، يسرح البق في أخشابها ، ويزحف على الجدران ، وبعد أن تناولنا عشاءنا في دكان صغير ، سهرنا في المقهى الرئيسي في البلدة. كان هذا المقهى يقدم مشروبات روحية ، وفيه تخت مؤلف من عازف على العود وعازف على الكمان وضابط ايقاع ، وامرأة بدينة تقدم رقصات شرقية ، وتحزم نفسها بمحزم لكي تخفي ترهلها ، وبدانتها ، وتقابل من الجمهور بالتصفيق والهتاف والصفير .

---

(١) بلدة الخانات الاربعين

لم أر وجهها عن قرب : كان مطليا بالأصباغ ، كان شعرها مبعثراً ، وفي يديها صنوج ، وكانت تجهد لارضاء الزبائن ، لكنهم كانوا سكارى ، وهم يقذفونها بكلمات نابية ، ويلقون على المسرح الخشبي الصغير بباقات الفجل والبصل وكل ما على موائدهم ، فتتقبل ذلك بالابتسام المغتصب ، وتحاول أن تغني أغاني تركية وعربية دارجة ، بصوتها الخشن ، ونبراتها الزاعقة ، فلا توفق إلى ارضاء الأذواق ، وأغلب الظن أنها تتعذب لذلك .

لقد اصطحبني والدي إلى هذا المقهى لأنه خشي أن يبقيني في الخان ، ولأنه كما قال ، أرادني أن أتفرج وأسمع الموسيقى ، وقد حاول اخفاء أنه يريد أن يشرب ويستمتع ، ولم استطع الرفض أو المقاومة ، لكنني اضطربت لمرأى السكارى ، وخفت أن يسكر الوالد ، وتصورت أمي المسكينة تخدم وهو هنا يلهو ، فآلمني ذلك غاية الألم ، ورجوته كثيرا أن ننصرف ، وتظاهرت بالنعاس ، وقال له بعض الرجال : ماذا يفعل هذا الطفل هنا ؟ فأجابهم : « يتفرج مثلكم » فأحرجني سؤالهم ، كما أحرجتني نظراتهم الي ، والححت في طلب الانصراف ، لكن الوالد أصر على البقاء ، وطفقت امارات السكر تظهر

عليه ، وكان علي ، من بعد ، أن أشهد خاتمة سكره المأساوية ، فقد أنفق أكثر ما معه ، وتعتعته السكر ، وكاد يتشاجر مع السكارى من-أمثاله .

عندما خرجنا من المقهى كان الليل قد انتصف . لقد احسست هناك بالاختناق ، وبكل مشاعر البؤس والعار ، وحاولت أن أسند والدي كيلا يسقط ، الا أنه سرعان ماتهاوى على الرصيف ، فجربت أن أنهضه وهو يضحك ، واجتمع علينا الناس ، من رواد المقهى ، وعالجوه فوقف على قدميه ، مستندا على الجدار ، طالبا العودة إلى المقهى ، ولما دفعته بيدي الصغيرتين ، لصده عن ذلك ، صفعني وهو لايدري مايفعل ، فتشبثت به وأنا أبكي ، واحتد رجل من الحضور وحاول ضربه انتقاماً لي ، لكنني صرخت ورجوته أن يدعه لي ، وسرنا في طريقنا وهو يترنح ، ودموعي تتساقط على خدي ، حتى أشفق بعضهم وخفّ لمساعدتنا في الوصول إلى الخان الذي ننزل فيه .

هناك ارتمى على الفراش بثيابه . غطيته باللحاف ، وقبعت في زاوية الغرفة يملأني قهر غريب . كان شيء ما يفور في ذاتي ضد والدي ، شبيه بذلك الذي يستولي على أمي حين يأتون به ثملاً إلى البيت . انها الآن ليست هنا .

ومن الخير انها غير موجودة ، ولم تر الوضع الذي رأيته عليه ، الوضع الذي كنت اسمع به ، فقيض لي أن أشهده بعيني ، وأن اتصور ما كان سيؤول اليه لو لم أكن معه . لقد تذكرت كل حكايات الوالدة والناس عن والدي ، وعن تشرده وسكره ، واضاعته لثيابه وأغراضه ونقوده ، وفقدانه لوعيه ، ونومه على الطرقات أو في باحات القرى ، وهزء من يراه به ، وسقوط اعتباره في نظر الآخرين ، وصدقت كل ذلك ، وساورتني نقمة عليه ، وشفقة على مصيره التعس ، وتمنيت لو لم آت معه ، وفكرت أن أدعه وأهرب عائداً إلى والدتي .

بقيت ساهراً حتى مطلع الفجر. لم أهرب لأنه لا مال معي ، وليس في وسعي السفر ومعرفة الطريق ، ولأنه عزّ علي أن أزيد في شقائه بسبب اختفائي ، واضطراره للعودة الى اسكندرونة وتحميل الام نفقات السفر ، ثم المها اذ تعرف كل ماجرى ، فابتلعت قهري ونمت على جانب الفراش ، ولم أفق في الضحى ، ورأيته منكباً فوقي يهزني ، وقد اعتراه ما يعتريه دائماً من ندم وخجل ، فلم أتلفظ بكلمة حول ما وقع ، وساعدته في جمع أغراضنا التي حملها على ظهره وانطلقنا ماشيين نحو القرية التي نقصدها .

لم تكن هذه قرية . كانت بيتاً حجرياً حوله عدة أكواخ من قصب الذرة ، وبضع خيام من شعر . وكان يسكن البيت الحجري بدوي يملك هذه المنطقة من السهل ، وفيها حقول القمح والذرة والعدس والحمص ،وفي الأكواخ والخيام المتناثرة حواليه يسكن أفراد من عشيرته . وكان ثمة نهر يجري قريباً من البيت والأكواخ ، وعلى كتف النهر تماما الكوخ الذي أقامه الوالد ، إلى جانب أكواخ من قصب تسكنها ثلاث أو أربع عائلات من حينا جاءت مثل الوالد للقط القمح .

فتنني النهر الذي كان يسيل ضحلاً رقراقا ، ويتجمع في منعطف قرب كوخنا قال الوالد انه دوار ، وانه عميق بخلاف مجرى النهر المحصّب . وكنا نشرب ماء النهر وننزل اليه فنغسل وجوهنا وأيدينا كما نغسل ثيابنا وأوانينا ، وكان في الدوار أعداد كبيرة من أسماك البوري الفضية ، ترى في الاصباح والأصائل حين يكون الماء رائقا ، وهي تتجمع وتتفرق ، وتقوم بحركاتها البديعة من غطس وقفز ، وقد شدتني اليها فكنت أقضي أوقات فراغي وأنا أتابع حركاتها ، وأفكر بطريقة ما لصيدها . خطر لي في البدء أن آتي بدبوس وأعقفه ليصبح كصنارة اصطاد بها . وقد جربت هذه الطريقة فربطت الدبوس بحبل وجعلت من الخبز طعما للأسماك ، لكنني فشلت . الدبوس ليس صنارة ،

وقد أكل السمك الطعم ، ولم يعلق . خطر لي بعدئذ أن آتي بغربال ، وأربطه بحبال من ثلاثة ثقوب أفتحها في طارته ، وأدليه في الماء ، حتى اذا صار السمك داخله رفعته ، غير أن هذه الطريقة كانت تتناسب مع عمري لامع الواقع ، وقد تصورتها دون أن أنفذها ،. لعدم وجود الغربال ، ولأن والدي ضحك منها . عندئذ لم يبق لي سوى التمني الأسيف في أن أوفق إلى اصطياد ولو سمكة واحدة وهذا لم يحصل . وقلت في ذاتي لو أن اسبيرو الأعور كان معي لتوصل إلى طريقة يصطاد بها . خيل الي أنه قادر على ابتكار طرق لاحصر لها لصيد ايما شيء . الا أن اسبيرو الأعور كان بعيداً ، فاكتفيت بأن أجمع بقايا الخبز ، وأقف أو أجلس على كتف النهر ، وأنثرها للأسماك ، وأتفرج عليها كيف تتزاحم لابتلاع هذا العلف الذي كنت ارميه يوميا لها .

وبدأنا العمل في اقتلاع شجيرات العدس اليابسة . كنا نذهب في الصباح إلى البراري ، ونحمل زوادتنا معنا ، وفي حقل العدس نشرع باقتلاع الشجيرات من الأرض الهشة ، فلا يكلفنا ذلك عناء .وقد أفعمني العمل سرورا ، فكنت أبذل جهداً متواصلاً ، واركض فأقتلع حزمة من شجيرات العدس ، أحملها إلى الكومة ، وأعود إلى الأرض ،

ولاحظ والدي ذلك فطلب إلي الا أجهد نفسي ، وأن أتقي الشمس الحارة بلف رأسي بمنشفة ، لكنني لم آبه لنصائحه مما سبب ظهور فقاقيع في كفي عند الظهر ، حرقتني بسبب ما امتلأت به من ماء ، وتدخل الوالد فأمرني أن أستريح ، وربط يدي بمزق من قميص عتيق ، واضطررت أن أنقطع عن العمل في اليوم التالي ، لأن رئيس العشيرة ، الذي سهرنا في مضافته علم أنني أقرأ وأكتب ، فطلب مني أن أقرأ له أي شيء يسليه ، وكان معي كتاب صغير للأغاني المعروفة في تلك الأيام ، فقرأت له أغنية :

زنوبة يا عرق التين   يامزينة البساتين

ابك ونوح يامسكين   على فراق زنوبة

كما قرأت له أغنية أخرى تقول:

بلا حسبك بلا نسبك   بلاعلمك بلاأدبك

غير الليرات ما بتحكي

ان كان عمرك فوق الستين   وجسمك فنيان ياربي تعين

خشخش ليراتك كن أمين   بتموت عليك بنت العشرين

فهتف الشيخ: « زين، زين، والله صدق، أكمل

ياابني أكمل» وأكملت قراءة أكثر الكتاب، والشيخ على غاية الانشراح، وكل من حوله يستحسن مايسمع ويستزيدني، وأنا مسرور بذلك، لأن رضى الشيخ عني سيجعل لوالدي حظوة لديه، ومعنى هذا سنكون آمنين بحمايته من غارات العربان التي كنا نخافها.

وقال لي والدي ونحن نعود إلى كوخنا«طلب الشيخ أن يعطوك حصة دون أن تشتغل. هذا توفيق من الله يابني.. بيضت وجهي أمامه، من حسن حظي أنني أحضرتك معي» وقد ملأني هذا الكلام سعادة وزهواً، وسهرنا مع جيراننا تلك الليلة الى منتصف الليل، لأنه كان على والدي أن يصلح بين رجل يدعى سليم السطل وزوجته، يضربها كل ليلة، ويؤكد هذا الوالد أن هذه الزوجة لاتعرف أن تنام دون أن يضربها زوجها، لأن جلدها يحكها. ولم أفهم كيف أن جلد المرأة يحكها في طلب الضرب، برغم أني رأيت كثيرات من النساء يضربن قبل الزواج، وكانت أمي أيضاً تضرب من قبل والدي، مع أنها وديعة كالحمامة، لذلك كنت في أعماقي، أميل الى المرأة المضروبة، وأود لو كفّ الرجال عن ضرب النساء، بخلاف والدي الذي يرى ذلك الضرب مشروعاً، ويمعن في عدوانيته

فيقول لسليم السطل: « اذا لم تضرب المرأة اضرب خيالها» فأتمنى لو ضربوا الخيال وتركوا المرأة، وأذهب الى زوجة سليم السطل الباكية فأحمل اليها الماء لتغسل وجهها، وقلت لها مرة: « مارأيك او أخبرنا الشيخ بما يفعل زوجك؟» فعبست في وجهي وأجابت: « مادخل الشيخ في هذا؟ اياك أن تتلفظ عنده بكلمة عما يجري. إنه زوجي ولا أريد أن يلحق به أذى» فذكرت أمي وقلت في سري «ما أطيب قلوب النساء!».

أما سليم السطل فكان فاسقاً، يتحدث عن النساء بفجور، والوالد ينهاه عن ذلك، فيمعن هو في الحديث، واصفاً كيف يمكن أن يأخذ الرجل المرأة، فإذا كانت بدينة فإن عليه أن «يقفصها قفصاً»، فتتمتم زوجه وهي قربي«آه أيها النذل أنت، اشبع الخبز اولا» وتلتفت إلي قائلة: « هيا لندخل الكوخ، وسأحكي لك حكاية» وأتبعها الى الداخل حيث تحكي لي بعض الحكايات.

انتهى قلع العدس والحمص، وجاء أوان الحصاد، وشرعنا نذهب الى الأراضي البعيدة، لنلتقط السنابل من وراء الحاصدين، وكنت أصر على هذا العمل، والشيخ يوصي بأن أترك وشأني، التقط السنابل من حيث أشاء، قبل أن

يسمح للآخرين بدخول الأرض المحصودة، وسليم السطل يوصيني« قل للشيخ أن يسمح لنا مثلك، فهو يحبك ولا يرفض طلبك» ويرد عليه الوالد:« دع الولد في حاله، ولا تجعل الشيخ يزعل منه» وأنا أداوم في النهار على جمع السنابل، وآخذ فوقها« شنبلة(١) » من وكيل الشيخ، ونعود الى الكوخ اصيلا لنقوم بدق حزمات السنابل التي جمعناها بمدقة الكبة، ثم نذروها في الريح فيطير القش الى جهة والحب الى جهة، ونضع ما يتحصل لنا في كيس نخبئه في الكوخ وأنظر اليه بفرح، لأنه بعض جهدي ولأنني سأجعل أمي مسرورة بما جمعنا حين نعود.

فجأة أعلن الوالد أنه سيكف عن لقط السنابل ويصنع المشبك ويبيعه. لم تكن أمي موجودة لتعارض، وأنا لم استطع صرف الوالد عن فكرته، وهكذا وجدنا أنفسنا والدي وأنا، على طريق القرى المتناثرة في سهل العمق، نمشي وسط الشوك والغبار، ونقطع المسافات الطويلة، وهو يحمل تنكة المشبك، وأنا أحمل السلة التي فيها الميزان وبعض الأغراض الضرورية.

---

(١) حزمة القمح الكبيرة.

كان السير ، في الفلاة، تحت وهج الشمس، مضنياً لي أنا الولد الناحل، ولكني كنت أقاوم، لكي أساعد والدي ، فنصل القرى التي نقصدها ونبيع المشبك ونفوز ببعض النقود والحبوب ، كي نعود الى بلدنا وقدجمعنا ما يتكافأ مع هذا التشرد والتعب . لكن تلك القرى كانت نائية، مبعثرة، ولم نتوفق الى بيع ما معنا في أية واحدة منها، فاضطررنا الى المبيت في احداها، بعد أن طفنا ثلاث قرى في يوم واحد.

لم يشرب الوالد أبداً.لم يكن ثمة كحول، وكان التعب قد هده وهو يحمل تنكة المشبك، وفوقها الكيس الذي يجمع به الحبوب، وقد بدا حزيناً، وذهب الى مختار القرية يلتمس مبيتاً وطعاماً، فاعطانا كوخاً، وجاءتنا امرأة فلاحة بأرغفة من الخبز الرقيق ووعاء من اللبن، فأكلنا ونمنا في ذلك الكوخ. كنت خائفاً لأننا في قرية لانعرفها، وبين فلاحين لم نألفهم، وساورتني شكوك في أن يهاجمنا بعضهم ويذبحنا لأخذ مامعنا من نقود،وكاشفت الوالد بذلك فابتسم محاولا طرد أوهامي، وقال لي ان مختار القرية أوصى بنا، وان أحداً لايستطيع الاعتداء علينا، غير أن القلق لم يزايلني، وقبعت الى جانب الوالد

في الظلام، ورحت أنظر من خلال الباب المفتوح الى الأشجار القائمة في البستان، والتي يغمرها ضوء القمر، فخيل الي أن ثمة اشباحاً بينها ، وأن عواء الكلاب ينطلق بسبب من ذلك، وارتعدت فرائصي فالتصقت بوالدي أكثر، وكان يحدثني كي يشجعني، ويقول لي غداً نبيع ماتبقى معنا من حلوى ونعود الى قريتنا، وبعد الحصاد نعود الى اسكندرونة حيث الأم والاخوات، وانه سيحكي لهن عن عملي واجتهادي، وعن قراءتي في كتاب الأغاني، وعن محبة الشيخ لي ، وما منحني من شنابل وامتياز في اللقاط، وسنعود محملين بالعدس ، والحمص والقمح، وستفرح الأم بذلك.

وقلت له: « لاأريد بيع المشبك في هذه القرى البعيدة ومن الأفضل لنا البقاء في مضرب الشيخ واللقاط في أراضيه.» فقال لي:« والعدة التي أحضرناها معنا؟ الا ينبغي لنا أن نصنع مشبكاً بما لدينا من سكر وطحين وزيت، ونبيعها ونكسب فنسترجع نقودنا؟ » قلت : «لاأريد، أنا خائف، ولم أحب هذه القرى الخاليةمن الناس، والتي لا يشتري أهلها مشبكنا . » قال : « ان القرى خالية لأن فلاحيها منتشرون في أراضي الحصاد ، ولو كانو في بيوتهم لنفقنا المشبك في يوم واحد.»

حين اردنا النوم طلبت منه أن يغلق الباب جيداً.
فاغلقه، لكنه كان بغير قفل، وهذا ما نفى طمأنينتي، واول مرة منذ كنت صغيراً، نمت تلك الليلة في حضن الوالد، وطلبت منه أن ينتبه جيداً، وقد لفني بين ذراعيه، فشعرت بأنفاسه على وجهي، وعانقته، وأحببته، وسألت الله أن يحفظه، وظلت أذناي مرهفتين تتنصتان الى كل نأمة تصدر في الخارج، وبعد قليل أغفيت ، فجأة... كيف؟لاأدري. أغمضت عيني وفتحتهما فاذا ضوء النهاريتشر، واذا الوالد جالس الى جواري، وهو يناديني فقمت ، وغسلت وجهي، وجاءتنا المرأة الفلاحة بخبز وحليب فأفطرنا، وخرجت من الكوخ استطلع ماأمامه وعاينت أشجار البستان المقابل التي أخافتني، وكان الى جانبنا غدير، فيه بطات، وثمة دجاجات وكلاب ، وعصافير تطير مزقزقة فرحة بمقدم النهار، والشمس الحلوة تغمر كل شيء، والرعيان يسوقون قطعانهم الى البراري.

باع الوالد ماتبقى معه من مشبك كيفما اتفق، واستفسر عن الطريق الى قريتنا فدلوه عليها، وساكناها وسط البراري، والشمس ترتفع في السماء وتحرقنا، ونحن نغذ السير، حاملين الحبوب التي بادلنا عليها،

ضاربين على غير هدى، نتبع الطريق حينا، وتضيع مناحيناً حتى بلغناما بعد الظهر، فأكلنا ما معنا من خبز وتابعنا السير، وكلما صادفنا أحداً سألناه عن الطريق، فكان البعض يشيرون لنا الى اليمين، والبعض الى اليسار، ونحن نتخبط، والعرق يتفصد من أجسامنا.

عطشت، ولم نكن نحمل ماء. قاومت عطشي، احسست بالجفاف يتصاعد من جوفي وينشر اليباس في فمي، مع ذلك مضيت أركض لألحق بالوالد، وكلما ركضت ازددت تعباً، وتفاقم ذلك الاحساس المروع بالظمأ الى درجة أن السراب بدأ يتشكل أمام ناظري، ويغريني، ويزيد في لهفتي الى الماء، وأخذ دوار خفيف يلم برأسي، وشرع الفضاء يدور من حولي، فتوقفت وقلت لوالدي: «أنا عطشان، أريد ماء» قال الوالد: «ليس هنا ماء ياحبيبي، امش قليلا أيضاً ولابد أن نصادف ماء فتشرب،» ومشينا فلم نجد ماء. كانت الدنيا من حولنا فلاة تمتد على مرمى البصر من كل الاتجاهات، وليس هناك بيوت أو أشجار، والشمس الحارقة تتساقط أشعتها ناراً على رأسينا، وأنا أفتح فمي لألتقط نسمة تبرد جوفي فلا أبلغ من ذلك شيئا، وبعد مسافة قصيرة عجزت عن

التقدم، وترنحت وسقطت أرضاً. كان صدري يخفق لاهثاً كأنني أحترق من الداخل. آه ماأشد وأقسى تلك اللحظات التي عرفتها. كان الماء الآن حاجة حياة. كان هو الحياة، وكانت حياتي تتوقف على قطرات منه ترطب فمي وجوفي اليابسين، وكانت الأرض من تحتي تشتعل أيضاً ، فأنزل الوالد حمله وأنهضني ، وقرفص قبالتي وضمني الى صدره، لكنني تهالكت بين يديه، وتلاشيت وتهاويت كأن قدمي اصبحتا من قطن . لم أعد أحس بتعب، ولا أرغب في شيء، وكل ماأريده أن أستلقي على التراب الحار، وأغمض عيني وأموت. صار الموت حلواً. لم أكن أعرف أنه الموت، وزاد العطش والطنين في رأسي، وتراقص الفضاء بسرعة، والسماء صارت بقعة زرقاء تضيق، واشتد لهاثي، وطفق صدري يخفق، فترتفع حركة تنفسي وتنخفض بقوة.

كنت وحيداً لوالدي،وكان والدي على اية حال. كان ابا يرى ابنه الصغير يموت، وكان عليه الا يدعه يموت، ولكن ماذا يفعل؟ الماء أيها الماء: ياماء السماء، أيها الاله الرحيم، أيتها البراري القفراء، أيها السراب الخادع، أيتها الكائنات! تركني الوالد وراح يركض في

كل الاتجاهات. كاد يجن، وبدا كأنه أصيب بمس، ورحت أبكي، وعاد الي وهو يبكي، ثم ترك أغراضه وحملني بين ذراعيه وراح يركض، ولكن الى أين؟ سماء زرقاء لاغيمة فيها، وقفر أجرد لاخضرةولا شجرفيه، وشمس تتلظى من فوقنا، والموت يزحف بطيئاً بطيئا.

مرة أخرى وضعني الوالد على الأرض وراح يركض الى أمام. ولقد أرعبني منظره فأيقنت أننا هالكان كلانا، ولكي أساعده قليلاً اتكأت على جنبي ولم أنطرح أرضاً، ورأيته يسرع الى أمام، ويقف ويتلفت، وينظر الى الأفق وينظر الى السماء، ويركض من جديد، ويبتعد، ويقترب، ويعاود الركض، ويستأنف البحث، ويعود ليتأكد من أنني لم أمت بعد، ويشجعني قائلاً: « ياحبيبي ياصغيري، قاوم العطش، قاومه قليلاً، اصبر وسنعثر على ماء» ثم يدعني ويمضي الى امام راكضاً، ملهوفاً. وفجأة انعطف الى اليمين، وانحدر في ارض واطئة وغاب عن ناظري. بعد قليل اقبل راكضاً نحوي، وحملني وقال لي: « لاتخف، وجدت ماء. الله نظر في وجهي. وجدت ماء. وجدت ماء». وانحدر بي في مجرى نهر جاف، وتلفت حواليه حتى عثر على تلك الحفرة

التي على جانب المنحدر، فأنزلني، وركع أمام الحفرة، وشرع يرفع السلاحف التي تجمعت فيها، فظهر ماء عكر في قاع الحفرة، غرف منه براحتيه وقال لي: «اشرب اشرب، ودع الماء يدخل الى جوفك، ولا تأبه للوحل.»

امتصصت كل مافي راحتيه، فعاود الكرة وملأهما وانسابت قربنا أفعى فلم يأبه لها، وصاح بي: «لاتخف دعها تذهب في سبيلها. اشرب أنت، واقعد فاسترح» وشربت الماء العكر ، الطيني، وجلست على حجر، وقلت لكي اطمئنه: « تحسنت، تحسنت » فركع حيث هو، ورفع يديه الى أعلى وقال بصوت مرتجف: «شكراً لك يارب، شكراً لك ياالهي» ومسّد على شعري وقبلني وهويقول: « آه ياحبيبي ، آه يابني ، الحمد لله،الحمد لله» وترك الماء يرقد قليلاً، ثم قطف بحفنتيه وسقاني، فقلت له: « اشرب أنت، اشرب» وأجابني « ليس قبل أن ترتوي أنت. آه يابني كسرت ظهري».

بعد وقت قصير كنا على الطريق من جديد. رجع الى الوراء فحمل الأغراض وجاء الي حيث كنت انتظر، وسألني عن حالي فقلت له «بخير» ورغب ان يحملني فوق الأغراض فرفضت، وقال: « لنمش على مهل»

ومشينا، وكانت الشمس قد مالت على منحدر الأفق، ونسمت الريح فابترد الجو، وشرع يحكي لي حكاية، واستعدت نشاطي فأصررت على حمل السلة عنه، وبدونا لمن يرانا، كانسانين يضربان في فلاة على غير هدى.. ولكن الطريق مالبث أن اتضح للوالد، فقال مازحاً: «اقتربنا من الضيعة، لاتخف نجونا باذن الله.»

وكان ماقاله صحيحاً!.



أحببت والدي بعد هذه الحادثة. اكتشفت بقعة الضوء في ذاته، البقعة التي يحجبها سواد أعماله. ولقد ملت الى التسامح معه، وقدرت مافي حياته وحياتنا من بؤس وشقاء، فكتمت عن الوالدة واقعته في «قرق خان»، وفرحت هي بعودتنا، وصار في بيتنا شيء قليل لمؤونة الشتاء. لقد أصرّ الوالد على بيع كيس من القمح كي يؤمن رأسماله لصنع المشبك. وأعلمتنا الوالدة بعد أسبوع أن أسيادها سيذهبون الى مصيف «صووق اولوق»(١) وأنهم يطلبون منها أن تذهب معهم، وقال الوالد ان في وسعنا أن نذهب جميعاً فنستأجر بيتاً صغيراً، ويبيع هو المشبك الذي سيروج في المصيف بسبب البرودة.

كانت معدتي قد بدأت تؤلمني، فأخذتني الوالدة الى جارتنا «ميلو» التي تداوي أمثال هذه الحالات. وقد مددتني ميلو على الحصير، وجاءت بزيت ساخن في ملعقة تناولت منه باصبعيها وجعلت تفرك بطني وتمسّده لأنني، حسب رأيها، ممعود، ولن يشفيني سوى التمسيد الذي تقوم به. لقد حملت من ماء «سهل العمق» الملوث الذي شربته داء معوياً سيلازمني كل حياتي

---

(١) المصيف البارد .

وينغص علي عيشي ؛وكان تدليك ميلو ينشط أمعائي ويصرف ماتجمع فيها من غاز، وكانت هي، كلما انتهت من تدليكي، تستلقي وتكشف عن بطنها وتمعده كيلا «تلقط» المرض، وكانت تزعم لبعض الناس ان معدهم منحرفة او مقلوبة، وتأتي بكوب فخاري بحجم كوز الماء وتحجمهم به، فاذا دخلت المعدة في الكوب أخذت تديره والمريض يتلوى بين يديها الى أن تعيد له معدته الى مكانها، او كانت تزعم أن عصفورة المعدة ساقطة، فتطلب من المريض بعد التدليك أن يتدلى بغصن شجرة .

صعردنا الى مصيف « صووق اولوق » في الجبل أنقذني من بين ايديها. وقالت لي: «عد إلي كلما عاودك الوجع» لكني لم أعد أبداً. وفي المصيف استأجرنا كوخاً خشبياً في بستان تفاح وفواكه يقع في الوادي، وكان التفاح يتساقط على الكوخ وأمامه، فنجمع منه أختي وأنا ونأكل، ومن الصباح تذهب الوالدة الى الخدمة في بيت أسيادها، ويتوجه الوالد الى القرى المجاورة لبيع المشبك، ونبقى مع أختنا الصغيرة في البيت.

ومن سوء الحظ مرضت الوالدة فانقطعت عن العمل.

أصيبت بالروماتيزم، وعاودتها النخزة القديمة. وعاودني خوفي القديم عليها، فخرجت من البيت أبحث عن عمل. اشتغلت أولاً أجيراً عند بائع حلويات افرنجية. ثم صرت أجمع الطابات في الملعب للتنس، ولم البث أن عملت في حمل حقائب المصطافين من السيارات الى بيوتهم، فكان علي، كحمال صغير، أن أعلق حبلا في رقبتي، لربط الحقائب ووضعها على ظهري.

كان المصيف يقوم على منحدر جبل. ويتدرج صعوداً مع القمة. تغطيه أشجار الصنوبر والعرعار، ويقع الى جانبه الأيمن واد كثير الخضرة، تسلقت البيوت كتفيه وجوانبه، وفيه يقوم فندق «عيواظيان» الكبير وصاحبه رئيس البلدية في الوقت نفسه، وأسرته سيدة القرية، فهي التي تحكمها وتدير شؤونها، واليها يرجع في أي حادث أو شجار يقع في المصيف، برغم وجود مخفر للدرك فيه.

كان الفرنسيون يصطافون هنا، والأغنياء وكبار التجار والموظفين، وعلى ذلك فقد كان أشهر مصيف في المنطقة، ويمتاز بمناخه الجاف، وبرودته، وغابات الصنوبر التي تغطي جبله كله، وتوفر الخضار

والفاكهة فيه، وعدد المقاهي والمطاعم التي تؤمن حاجة رواده الى التسلية والسهر والقمار أيضاً.

ولقد عملت حمالاً لأنني رأيت بضعة أولاد فقراء يفعلون ذلك، فهم ينتظرون عند مدخل المصيف، فما تلوح سيارة قادمة حتى يستعدوا للحاق بها ، فاذا توقفت ونزل منها الركاب هرع كل ولد الى حمل حقيبة أو أغراض احدهم، وكانوا يتمسكون بها، ويصرون على حملها، ويتدافعون ويتزاحمون، وقد يتعاركون لحمل حقيبة أو غرض ما. إن الركض وراء أي رجل أو امرأة، والامساك بما يحمل أو تحمل، ومحاولة نقله لهما، مقابل أي مبلغ، كان شيئاً مألوفاً، فإذا حاول صاحب الحقيبة أو الكيس الامتناع عن استخدامك في نقل حقيبته أو كيسه، فإن عليك أن تصر، وأن ترجو، وأن تتوسل كأنما تفعل ذلك شحاذة، أو أنك تطلب الأجر حسنة.

وقد عزّ علي أن أفعل ذلك كله. كنت ابن مدرسة والحياء في طبعي، وليست لي القوة البدنية للمدافعة والشجار، ومن أجل ذلك كان حظي قليلاً في الفوز بما أحمله، ولم أكن أتوفق في ذلك الا ظهراً، حين تكثر السيارات القادمة من المدينة، ويقل الزحام عليها. كنت أهرع الى السيارة، وأقف عند محملها الخلفي، وأمد

يدي لامسك أية حقيبة، فاذا رفض صاحبها انكفأت خجلا، حتى أن بعضهم، مع الأيام، لاحظ ذلك، وصار يشفق علي وينتقيني بالذات لاحمل حقيبته وأغراضه.

ولأن أحداً منا لايعرف اين تقف السيارة، ومن الصعب الركض وراءها واللحاق بها وهي تصعد الجبل وتدور في المنعطفات، فان الحمالين الصغار كانوا يقفون عند رأس المرتفعات، ويفيدون من بطء السيارة فيقفزون الى «التابونيه» في خلفيتها، أو يتعلقون بشباكها ويقفون على الرفراف، ويعرضون أنفسهم لخطر السقوط، والتكسر، والموت احياناً. وكان علي، لكي أقدم مساعدة لعائلتي، وأشتري الدواء لأمي المريضة، أن أفعل مثلهم، وأتعرض للخطر كل يوم، ولم يثنني عن ذلك أن بعض الأولاد سقط أمامي، وأن أحدهم مات وهو يتدحرج إثر سقطته العنيفة. إنني إذ أفكر الآن بما كنت أصنع، ارتجف لمجرد تصور سيارة تمر، وطفل يلقي بنفسه عليها ويتعلق بها. لقد حدث ذلك معي، وكانت أية سقطة قمينة أن تودي بحياتي، غير أن اللقمة كانت تدفعني الى هذه المخاطرة في سبيل قروش معدودات آخر النهار.

في ساعات العطالة، بين الضحى والظهر، حيث

يقل مرور السيارات ، كنا نتسكع في الشارع عند مدخل المصيف ، وبعضهم يجلس كالكبار ، في المقهى ، فكنت خلال ذلك أحاول أن أكون نافعا لشيء ما ، واعرض خدماتي الصغيرة على صاحب المقهى ، وكان يونانيا يدعى يورغو ، فادخل لأغسل الصحون عنده ، او أحمل النار للاراكيل ، أو اذهب إلى البيت لاجلب له مايحتاج منه ، وكان يورغو أعزب ، في الخمسين من عمره أو يزيد ، وله أختان عانسان ، وقد أنست اليه ، واحب في الاجتهاد والطاعة ، فعرض علي أن أعمل في مقهاه ، وسألني عن أهلي فاخبرتهخبرهم ، وببالغ التأثر انهيت إليه أن أمي مريضة؛ واني أخاف عليها أن تموت اذا لم أجلب لها الدواء .

اني أتوقف هنا لاقول : انه بمقدار مافي الدنيا من أشرار فيها من أخيار . بل ان الاخيار أكثر . وقد التقيت بهم في كل مكان ، وحتى الأشرار كانت في نفوسهم نقاط خير ، فاذا استطعت ملامستها اضاءت ، وعندئذ كانوا يبذلون الاشياء عن طيبة خاطر ، كأنما ليعوضوا عن الحمأة التي يترددون فيها . ولقد دفعني عطف الناس ومؤاساتهم ، والخير البادي أو المستتر في نفوسهم ، إلى حب الآخرين ، إلى حب الانسان والانسانية حبا عظيماً ،

وإلى الايمان بأن الحياة شيء جميل ، وانها جديرة بأن تعاش برغم كل الشقاء الذي تغوص به .

يورغو كان من هؤلاء الاخيار ، عاملني كأخ صغير ، كابن ، كقريب ، وطلب إلي أن آتيه بوصفات الدواء لامي كي يشتريها لي ، وكان يسمح لي أن أذهب إلى البيت عدة مرات في اليوم لأتفقدها ، ويشركني معه في طعام الظهر الذي احمله له من البيت ، ويعطيني أجري في المساء ، ويوصيني أن أنام باكرا ، كي احضر إلى المقهى باكرا ، وكنت أنفذ وصيته ، وأجهد لارضائه .

ولما ، في أواسط الصيف ، تشاجر رئيس الندل في المقهى مع أحد السائقين ، واقتيد إلى السجن ، لم يشأ ان يبحث عن نادل جديد ، او كل هذه المهمة الي ، حملني ذات صباح على كتفه كأرنب ، وقال للعاملين في المقهى : هذا هو رئيسكم ، وهو نائب عني في غيابي ، وهو الذي سيتسلم الماركات ويحاسب الزبائن ، فهل من يعترض منكم ؟ صمتوا كلهم على مضض ، حسبوا ان هذا « التنصيب الاحتفالي » الغريب الذي أقامه لي مزحة ، وطمع بعضهم في غشي ، وقال بعضهم الآخرانني سأفشل في محاسبة الزبائن ، وعاملوني كلهم ،

بادىء الامر ،بلا مبالاة ، لكن يورغو قال لي : « ابلغني عن كل مايجري في غيابي ، ومن يعصك دعه لي . انني ابن هذه الصنعة ، واعرف كيف أجعل من يتعرض لك بسوء عبرة لغيره » .

تهيبت « المنصب » الذي وجدت نفسي فيه فجأة . أعطوني صدرية بيضاء كان يضعها ندل المقاهي في تلك الايام ، فكانت طويلة جدا ، فثنيتها عدة مرات ، وربطت الزنار فوق الثنيات ، وتسلمت « الماركات » ورحت أعطي مقابل كل طلب يخرج من«البوفيه » فيشة من فئة معينة ، كثمن للطلب ، وعلي في المساء أن اسدد الحساب ليورغو بمقدار ماتجمع عند عامل البوفية ، من فيشات ، على أن أحسم منه الدين لان يورغو أخذه على عاتقه .

في اليوم التالي عددت الفيشات والنقود عدة مرات ، كنت خائفاً ان ينقص الحساب ، غير أنني وجدته يزيد ، لان الزبائن ، عندما ينهضون للانصراف كان الندل ينادون « بانكو » فاهرع لاتسلم ثمن المشروب ، وكان الزبائن ينفحونني الحلوان جريا على العادة ، وقد سخروا مني في البدء ، وقالوا ليورغو : « ماهذا الطفل ؟ الم تجد أصغر منه ليصبح « بانكو » لديك ؟»

فضحك يورغو وقال : « هذا الصغير فعله كبير ، سأدربه على يدي » .

تثبت بعد أيام في « منصبي » . كانت الدنيا لاتسعني فرحاً ، وكنت اشتري الاغراض والهدايا لأمي وأختي ، واعطي الوالدة بعض النقود من الحلاوين التي أحصل عليها، فتعانقني وتقول : « آه يابني ، آه ياحبيبي ، من أين تأتي بكل هذه النقود ؟ » فاشرح لها ، وتغمرها سعادة ، وتربت على ظهري قائلة : « لا عدمتك، ياصغيري الحبيب ، انت سندي ، وسأنسى على يديك مالقيت من عذاب ، في حياتي » فاقبل يدها وانصرف وهي تلاحقني بالدعاء لله أن يحفظني ويحرسني ، من العين .

وبخلاف ماوصاني يورغو لم اشأ الاساءة إلى أحد ممن يعمل معي . لم اش بهم أو أشكوهم ، وتحملت مضايقاتهم بصبر ، وتغلبت عليها فجعلتهم يحبونني ،لاني في المساء ، كنت أوزع بعض ماأنال ، من حلاوين عليهم ، وكان هذا شيئا جديداً بالنسبة إليهم ، وكان عامل « البوفيه » ، الذي يصنع القهوة والشاي والاراكيل ، يرسلني إلى بيته ، قبل أن اتسلم « منصبي » لاخذ الخبز وبعض الاغراض إلى زوجه ، وقد داومت على ذلك بعده . كنت أحضر إلى المقهى باكرا ، قبل مجيء يورغو

الذي يتأخر في السهر ، فارتب بعض الاشياء ، ثم أشتري الخبز واذهب إلى بيت عامل « البوفيه » حاملا بعض الاغراض أيضا . وكان هذا شاباً ضئيلاً ، عييا ، عيبه الاكبر أنه بخيل ، واقول بالمناسبة انني لم أر زوجة تحب زوجها البخيل ، وكانت زوجه تكرهه ، وقد انتهت ، بعد ذلك بسنوات كثيرة ، إلى محاولة حرقه ففشلت وطلقته . وكان من عادته ان يرسل إليها الخبز ، وكمية قليلة جداً من الخضار ، ويعطيني بعض القروش لاشتريها ، فلما صرت « البانكو » وصارت الحلاوين تنهال علي ، رفضت أن آخذ قروشه ، وقلت له انني ادفع ثمن ماشتريه له من جيبي ، ففرح بذلك ، واراد ان يغش ، فرفض أن يأخذ « الفيشات » المستحقة كاملة ، لكنني رفضت بدوري ، وزدت في حصته من الحلاوين ، وهكذا كنت انفق على بيته كرجل صغير ، ويبدو أنه حدّث زوجته بذلك ، فلما جئتها بعد ذلك اكرمتني ، ودللتني ، وهذا مادفعني ، باحساس عاطفي ، مبكر ، إلى أن اشتري لها الحلوى والمكسرات ، ، حتى اطمعتني فهجمت عليها وقبلتها ذات يوم ، فدفعت ثمن قبلتي الاولى غاليا ، لان الزوجة الشابة هددتني أن تشكوني لزوجها : وهذا ماخافني جداً ، فرجوتها ألا تفعل ، وراحت تطلب ـ

كثمن للسكوت ، اشياء اضافية ، وكنت اشتريها لها وانا أكتم السر عن الجميع ، وبقيت كذلك إلى آخر الصيف .

لقد ازدادت اعبائي المالية ، ولكن دخلي ازداد أيضا ، وكان يورغو هو السبب ، وهو المحسن ، الكريم . فبعد اسبوع من عملي اطلعني على سر . قال لي : « لاتنصرف مساء . . . ابق في المقهى ، وتعلم أن تصنع القهوة والشاي » وتعلمت صنعهما بسرعة ، وفي الليل بدأ زبائن من نوع جديد يفدون إلى المقهى . اولئك هم المقامرون ، كان بعضهم من المدينة ، وبعضهم غرباء من حلب أو غيرها ، وفي الغرفة الخلفية للمقهى ، كانت ثمة طاولة خضراء يلعبون البوكر المفتوح عليها . وكان دوري أن أراقب الطريق ، فاذا رأيت الدرك مقبلين نبهت يورغو الذي يلعب معهم ، فيخفي « الفيش » والورق ، وتبدو الجلسة عادية ، كنت أجلس على جدار اسمنتي ، على كتف الوادي ، واتخذ منه نقطة مراقبة ، وكنت اتمسك بالجدار لئلا أغفو فاسقط في الوادي العميق واتمزق اربا ، غير انني كنت أجاهد كي ابقى يقظا ، فاذا مرت دورية الدرك وصعدت في الجبل ، كنت أخبر يورغووعندئذ يطلب المقامرون الشاياوالقهوة، فاحملهما اليهم ، وكان يورغو، كلماوجدعلىالمائدة«صحنا»

كبيراً من الفيش ، مدّ يده وتناول فيشة وضعها جانبا قائلا : « هذه للولد » واحيانا يفعل المقامرون ذلك بانفسهم ، وكان ثمن الفيشة الواحدة خمسة قروش إلى خمسين قرشا ، فاذا تجمع لي ، آخر الليل ، عشر فيشات ، من مختلف الفئات ، كان هذا بمثابة ثروة صغيرة ، وكنت لاأصدق أن حظي قد واتى بهذا الشكل ، وكثيراً ماسهرت الليل بطوله ، ونمت ساعة او ساعتين في الصباح فقط ، محتكراً لنفسي هذا السر ، ومصدر هذا الكنز ،

وذات يوم جاء رئيس جديد لمخفر الدرك ، سرعان ما تعرف يورغو إليه ، وعقد معه صفقة رابحة . وقد ناداني وقال لي : « لاتراقب الدرك منذ اليوم ، تفاهمنا معهم » ، وصارت المقمرة تشتغل نهاراً وليلاً ، وتابعت العمل في الجهتين ، ومنع يورغو على أي من الندل دخول غرفة القمار ، وأبقاه امتيازاً لي .

شرعنا ، في النهارات ، نستقبل بعض النساء من لاعبات البوكر أيضا . كن جميلات ، ثريات ، يصلن بالسيارات ويدخلن غرفة القمار بوقار وابهة ، فاذا بدأ اللعب صباحاً دام إلى المساء . وكن كريمات ، يلعبن بكميات كبيرة من الأموال ، وينفحنني بنقود

كثيرة ، وكان اللعب ، في أكثر الاوقات ، مختلطاً ، بين الرجال والنساء ، ومع أن بيع الكحول أو تقديمه إلى الزبائن ممنوع في المقهى ، فقد كان يورغو يطلب إلي أن أقدم الويسكي بالثلج من حين لآخر ، وهذا مازاد في مجازفات اللاعبين ، وفي كرمهم أيضا ، فكنت أجمع في كل يوم مبلغاً جيداً ، اوزع قسماً منه، واحتفظ بالباقي . وقد دفعني حبي ليورغو أن أعرض عليه يوماً ، أن يأخذ من الحلوان الذي يأتيني ، فنظر الي ، وجمع كتفي الصغيرين بين يديه وقال : « ترشوني ، انا أيضاً ؟ » ثم ابتسم وقال لي : « احتفظ بكل مايأتيك لانه من تعبك » ولما قلت له انني أعطي زملائي قسما منهقال : « هذا جيد ، انني الاحظ ذلك ، أنت ولد كريم ، ويمكن الاعتماد عليك» .

اما هو فلم يكن يعتمد على المقهى بل على المقمرة . وكان من المقامرين المدمنين ، فهو يلعب ويخسر ، ويبدد على هذا النحو كل مدخوله . كان أزرق العينين ، رمادي الشعر ، له انحناءة خفيفة ، ابيض البشرة ، بشوشا حساسا ، واريحيا محبوبا من الذين يلعبون معه . كنت ألاحظ أنه يرغب في اللعب مع النساء ، واحسب

أنه كان يتساهل معهن ، ويدين من تحتاج إلى نقود ولايستغل أيأمن الزبائن اذا وجده في موقف حرج .

قبل ظهر أحد الأيام ، ناداني لاعب في استواء الرجولة ، ذو شارب أسود ، عريض الكتفين، مرح، ومظاهر القوة تتبدى من كل حركاته . قال لي : « أتعرف فلانة التي تلعب هنا ؟ » كنت لاأعرف اسمها ولكنني عرفتها من أوصافها ، فقال لي : « اذهب إليها وسلمها هذه الرسالة » ثم أوصاني بنبرة جد حاسمة : « الرسالة شخصية فاحذر أن تقع في يد أحد » قلت : « وزوجها » قال « خاصة زوجها »،فتناولت الرسالة ووضعتها في صدري . كنت أعرف بيتها ، فمضيت إليه متسلقا خاصرة ربوة صنوبرية قريبة ، وانا افكر: « ماذا في هذه الرسالة ؟ » . لم أكن اعرف ماذا يقول الرجل للمرأة في الرسائل ، ولاسمعت كلمات الحب من أحد ، ولا رأيت رجلا وامرأة يتعانقان ، وفجأة فتحت هذه الرسالة ، كل مجاري تفكيري الجنسي ، وجمح خيالي وراء صور ابتدعتها خاطرتي ، فوددت لو عدت إلى تلك المرأة التي ابتزتني وقبلتها ثانية . كنت أمر وسط رابية تتشابك عليها اشجار الصنوبر ، والخضرة تكسو ماحولي ، والطريق الجبلي الذي عبدته الأقدام ينساب

متعرجا ، والشمس الساطعة ، والكون يبتسم بألف فم ، وفي داخلي تمور احاسيس لذيذة ، تستيقظ لها غرائزي الناعمة ، فتوقفت ، واخرجت الرسالة ، ونظرت إليها ، وقلبتها بين يدي ، ثم أعدتها إلى مكانها ومضيت .

حديقة مربعة ، ذات مجاز يعرّش عليه الياسمين ، ومربعات ومستطيلات هي مساكب ورود وزهور ، وشجيرات تفاح وكرمة ، والبيت يقع آخر هذه الحديقة تحيط به أشجار السرو، ويبدو سطحه القرمدي الأحمر مضوأ بالشمس ، والنوافذ الزرقاء تطل على الحديقة ، تحجبها من الداخل ستائر مخملية ،واللوحة ، على الباب الخارجي ، واضحة . . انه بيتها !

عبرت الحديقة فوق الحصى التي تفرش المجاز وشعرت براحة نفسية وددت معها أن يطول الطريق ، وان يتسنى لي أن أتنزه في هذه الحديقة قليلا . كنت أرغب في قطف باقة من الورود لمعلمي يورغو ، وفهمت لماذا لم يحملني صاحب الرسالة باقة ورد إلى هذه المرأة . ان حديقتها تغنيها عن كل الزهور ، وتدل على مبلغ اعتنائها بها ، وعن الثراء الذي تنعم به ، وعجبت

عندئذ كيف تقيم صلات مع رجل غير زوجها الذي يوفر لها كل هذا الجو .

قرعت الباب ففتحت لي الخادم.طلبت مقابلة السيدة لاسلمها الرسالة ، فقالت ان سيدتها في الحمام ، وسألتني عن الرسالة فأجبتها أنني مكلف بأن اسلمها اياها شخصيا ، وذهبت فأخبرتها بما قلت . وعادت تطلب مني الانتظار ، فجلست على مقعد في الصالون ، ورحت أنقل بصري دهشا بين الاثاث واللوحات والستائر ، مستشعرا عالما غريبا من الاناقة والفخامة ، وعجبت أن يكون في هذه القرية بيت على مثل هذا الترف ، وتصورت السيدة بقامتها الفارعة ، وجسمها الزنبقي ، والماء ينساح عليه، وينقط من أطرافه ، وعاودتني مشاعر حسية اهاجتني، فتمنيت لو استطيع أن أراها عارية ، وسمحت لخيالي المراهق أن يتابعها وهي في حمامها ،وحسدت جدران الحمام وأرضه واشياءه .

عندما خرجت إلي ، وعلى رأسها منشفة معقودة إلى أعلى ، وعلى جسمها « روب دي شامبر » حريري ، كان عطر بنفسجي يتضوع منها ، كان خداها موردين ، وعنقها الأبيض الجميل عار إلى جذور النهدين ، ومن

كل هيئتها يتبدى أثر الحمام ، الذي أخذته لتوها .
كانت منتعشة ، باسمة ، طبيعية ، لاأثر للمساحيق على وجهها ، وقد عرفتني فقالت : « الست صبي المقهى ؟ »
أجبت بنعم ، وناولتها الرسالة ، ففتحتها بلهفة ، وقرأتها وقسماتها تنفرج عن ارتياح بلغ حد السعادة حين أوفت على نهايتها .

كان جوابها شفهيا : سآتي فورا . وطلبت محفظتها لتعطيني حلوانا ، الا أنني رفضت ، هربت خارجا ، قبل أن يتاح لها أن تفعل ذلك ، فعلت هذا بعفوية . ماكنت أريد نقوداً ، كانت رغبة أخرى ، مبهمة ، تساورني. كنت طفلا محروما الآن ، وكان حرماني لايمت إلى الخبز اوالمال بصلة . ولو أنها منحتني ماأريد لخشيت أن أتناوله . كنت سأهرب أيضا ، كان يكفي أن أقضي وقتاً أطول عندها ، وان تسمح لي بأن أنشف قدميها العاريتين ، أو أفعل شيئاً يدخل البهجة إلى نفسها .

وحين جاءت إلى المقهى ، كانت ترتدي ثوبا معرقا ، يكشف عن صدرها ، ويجعل من ينظر إليها ، او يجلس أمامها ، ينسى نفسه ، وورق اللعب الذي بين يديه ، وقد قدرت انها ستربح لهذا السبب ، بالذات ،

وجعلت أكثر من الدخول إلىغرفة القمار ، لا لانال حلوانا كما كنت أفعل في السابق ، بل لأراها ، ولأخطف نظرة من صدرها ، واسمع صوتها وضحكتها ، واكون ، على نحو ما ، قريبا منها ، وكان يخيل إلي ان كل من حولها يمارس نفس شعوري نحوها ، ونفس تهيبي أمامها ، وكانت تبدو لعيني ماكة حقيقية ، ملكة ذات هيبة ، وذات جمال ، وان احدا لايستطيع المساس بكبريائها .

غير أنني ، بعد أيام رأيتها في وضع يتنافى وجلالة الصورة التي انطبعت في مخيلتي عنها .

كانت فيما يبدو ، قد خسرت في القمار خسارات متلاحقة ، وكانت ذلك اليوم ، ظهرا ، قد أفلست تماما ، فانسحبت إلى غرفة جانبية ، ولحقها ذلك الرجل الذي حمّلني رسالته اليها ، اثر اشارة منها .

أنا لم أقصد أن أتلصص عليها . ولم أكن أعرف أنها موجودة في الغرفة مع ذلك الرجل ، ولكنني حين فتحت الباب بهدوء تسمرت على العتبة ، كانت في وضع مهين أمامه ، ترجوه أن يعطيها مالاً لتواصل اللعب ، وكان الرجليقول لها : « كفى . . . عودي إلى البيت» وهي تتوسل قائلة : « لاأستطيع . . لقد احترقت .

أريد مالاً . . . اعطني ، ارجوك ، تراجعت إلى وراء وبقيت أنظر من خصاص الباب ، إلى مليكتي التي قامت بحركة تشبه الركوع أمام ذلك الرجل ، وهو يرفض طلبها وينصحها ، ببرود أن تكف عن اللعب وتعود إلى البيت . لقد « احترقت » كما قالت ، وفي سبيل المال كانت مستعدة في هذه اللحظة ان تسلم بكل مايراد بها . ولقد نفرت من هذا الرجل ، وحملت بعضا من موجدة عليه ، وقلت في نفسي لو كان يورغو مكانه لتصرف بشكل آخر ، احفظ لكرامتها ، لكن صورة مليكتي ، برغم كل تعاطفي معها ، لحقها شيء من عطب . . . ان قامتها الشامخة قد تطامنت ، وكبرياءها انشرخت في نظري .

وفي نهاية ايلول فرغ المصيف ، وقال لي يورغو عندما اغلق مقهاه .:

– مارأيك أن تعمل عندي في المدينة؟ لدي مقهى هناك ايضا .

وقلت له مندهشا :

ـ والمدرسة ؟

فاستدرك قائلا :

ـ آه ! لقد نسيت . . نعم ياعزيزي ، المدرسة ، اذن سنفترق !

وافترقنا .



نزلنا من المصيف والوالدة لاتزال مريضة . كان الروماتيزم ، أو مرض النخزة ، هو الذي تعاني منه . وكانت قد انقطعت عن العمل تماما بسببه ، وكذلك انقطعت أختي الكبيرة لأنها خطبت إلى شاب من الحي ، ولم يعد هناك من يعمل في العائلة سوى الوالد ، والاخت الصغيرة .

ولقد تيسر لنا ، في المصيف ، ان نجمع شيئا من مال ، من دخلي في مقهى يورغو ، فاقترحت الوالدة ، ان نبدل القش الذي على سقف البيت بالقرميد الأحمر ، وهي الأمنية التي طالما داعبتها ولم تستطع تحقيقها ، برغم انها تعذبت كثيرا من القش ، وخاصة في الشتاء ، حين كان المطر يهطل أياماً متتاليات والسقف يدلف علينا ، فتتساقط القطرات غزيرة على الفرش والحصيرة وكل انحاء البيت ، وتترك لطخات سوداء تشوه الاثاث والثياب .

ان فرح الام بالاشياء التي كانت تتحقق في بيتنا كان فرحاً طفولياً غامراً ، وقد فرحت بالقرميد الاحمر الذي رفع مكانة مسكننا من كوخ إلى بيت حقيقي ، وراحت تقول : « هذا الشتاء سأغسل صدأ قلبي » وباتت تترقب هطول المطر لتسمع وقع قطراته فوق القرميد ، ولتنعم بالراحة ، فلا تحتاج إلى إيقاظنا في أنصاف الليالي كي نبدل أماكن نومنا التي يدلف السقف فوقها ، ولاتضطر إلى نقل كل الطناجر والصحون ، ونشرها فوق الاسرة والحصيرة ، وفي انحاء البيت ، لتمنع وصول قطرات المطر الدالفة إلى أغراضنا .

وكانت المسألة الثانية التي شغلتها ، بعد نزولنا من المصيف ، هي شراء صندوق عرس لأختي المخطوبة التي ستتزوج قريباً ، وكان هذا الصندوق متوسط الحجم ، ذا واجهة من التنك الاصفر فوق قطعة من القطيفة ، وقد لصق عليه ورق معرق من الداخل ، وهو بمثابة خزانة العروس ، وفيه تضع جهازها الذي ينقل يوم العرس إلى بيتها الزوجي . وقد كلف شراء هذا الصندوق ، وبعض الثياب لأختي المخطوبة ، ان تستلف الام من أجرة اختنا الخادم ، وهذه هي المرة

الوحيدة التي ذهبت بنفسها تستلف ، دون أن تشعر بالاسى الذي كانت تستشعره عندما كان الوالد يفعل ذلك ليدفع دينا ، او يرحل إلى جهة ما ، او يجددرأسماله. واحسب أن فرحتها بشراء صندوق الجهاز كانت جزءاً من فرحة الام بزواج ابنتها . وقد اصطحبت معها امرأة خالي ، واحدى قريبات العريس ، إلى السوق ، وحين عادوا بالصندوق زغردت امرأة الخال وجاءت الجارات يهنئن الام ،وجرى توزيع القهوة والمرطبات .

كان عريس أختي شاباً من الحي ، وقد ماتت أمه فتزوج والده امرأة أخرى ، فهي تذيقه العذاب ولاتني تستعجل زواجه ليرحل عن بيتها . كان يعمل ماسح أحذية ، وهو أمي ولم يتعلم ايما مهنة ، وكان خاملاً ، فهو غير ناجح في عمله ، وليس له من متاع الدنيا شيء ، ولم تحبه أختي ، ولكنها بنت ، والبنت يجب أن تتزوج ، فأكرهت على قبوله خطيباً،ثم تعقد الوضع ،لأن نصف عائلة الخطيب رضي بها والنصف الآخر رفضها ، والذين قبلوها لجأوا إلينا ، لكي نزوجها نكاية ، فنقبل العريس كما هو ، ونقوم بتجهيز كل لوازم العرس .

لقد وقعت الأم في ورطة . كانت تريد أن تفرح

باختي ، وماكانت تدري أن ماظنته فرحاً سينقلب إلى ترح . ومن المؤكد أن الخطوبة فسخت أكثر من مرة ، وأن الخطيب جاء متوسلاً إلى الأم ، باكياً لديها ، وأنه تعهد بأن يعمل ، وأن يكون زوجاً صالحاً للأخت ، وأن الأم وافقت ، وأعادت الخطوبة ، على أمل أن يتحسن الخطيب ، ويعمل كالآخرين ، مادام شاباً ، وفي وسعه أن يكون ماسح أحذية ناجحاً ، أو حمالاً في المرفأ ، أو شغيلاً في أي مكان ، لكنه خيب ظنها به ، فهو كسول ، بليد الإحساس ، قليل المروءة ، وقد انكشف كل هذا بعد زواجه ، وأصبح هو وزوجه شبه عالة علينا .

المهم أن العرس جرى ذلك العام ، وقد استأجرنا للأخت كوخاً خشبياً قريباً منا ، وأثثناه بسرير وطاولة وكرسيين ، وكانت بذلة العرس هي المشكلة الحقيقية ، وهي البذلة الأولى التي لبسها في حياته ، فتعاون نصف عائلته الموافق مع الأم على شراء الجوخة ، وأخذوها إلى خياط من الحي أخاطها له كيفما اتفق ، ويوم الأحد لبسها ؛ وامتنع ذلك اليوم عن مسح الأحذية ، وبعد الظهر جرت الحفلة أمام بيت والد العريس ، وجاء التخت الموسيقي المؤلف من زمر قصب يعزف عليه دميان الزمار ، ودربكة خالي عبد الله ، وأقبل المدعوون من أهالي الحي .

ألبست أختي ثياب العروس ، وبكت كما هي العادة ، وبكت الأم بصدق وتأثر ، وأوصت الوالد ألا يسكر ذلك اليوم ، احتراماً للمناسبة ، ولكي نظهر بمظهر الأوادم أمام الناس ، فشتم الوالد السكر والذي يتعاطاه ، ووعد ... وأخلف ، وقامت الأم بكل واجبات أهل العروس ، وزاد من بهجتها أن السرجان عبده حضر العرس ، فأضفى عليه قيمة لمجرد حضوره .

كان العريس قد ترك شعره ولحيته بغير حلاقة ، وحسب الأصول جاء الحلاق فاستقبل بالزغاريد وأجلسه على كرسي ، بينما الموسيقى تعزف ، وجرى قص شعره وحلق لحيته أمام الناس ، وكان قد ذهب إلى الحمام قبل ليلة ، وبذلك اكتملت زينته ، وبدا شاباً لابأس به من حيث المظهر ، وإن كان قد ظل من الداخل بليداً ، لايؤرقه شيء ، ولايستشعر حرجاً من شيء ، وكان سعيداً بزواجه ، هذا الذي لم ينفق عليه فلسا ، لأن الأم هي التي دفعت له ماسوف يعطيه للحلاق من أجرة ! .

أنا لاأدري لماذا أخطأت الأم هذه الخطيئة ، طيبتها التي لاحدود لها هي السبب ، وكذلك إهمال الوالد ، ولامبالاته بالأشياء من حوله ، وقد استغلت خالة العريس

كل هذا لتتخلص من ابن زوجها ، يضاف إلى ذلك رغبة الأهل في تزويج ابنتهم بأي شكل ، تخلصاً من العار الذي يمكن أن تجلبه لهم ! !

لقد دفعنا الثمن غالياً لأول زواج يقع في عائلتنا ، فبعد العرس باسبوع بدأت شكوى الأخت من زوجها ، وكان على الأم أن تتحمل النتائج ، وأن تقوم بأود عائلتين بوقت واحد ، لأن الزوج الكسول كان يحمل صندوق الأحذية ويذهب إلى المقهى فيلعب الورق ، حتى إذا جاء الظهر عاد إلى البيت فارغ اليدين وكان يستلقي على الحصيرة ويرفع رجليه ويسندهما على الجدار ، بانتظار أن تحمل لهما الأم الطعام من بيتنا ، فإذا طالبته زوجته بشيء أجاب أنه لايملك نقوداً ، وتذرع بأنه لم يشتغل ، وإذا قالت له : « دبر شغلاً غير هذا » أجابها : « دبري لي أنت وأنا أشتغل » ، ويقع الشجار بينهما ، فيضربها وتأتي إلى الأم باكية .

كنت أشهد كل ذلك وأتألم له ، وسمعت الأم تقول للأخت : « حظك مثل حظي » فقالت الأخت : « ولكني لن أعود إلى خدمة الناس بعد الزواج ، لماذا رميتني هذه الرمية ؟ » وأجابت الأم : « نصيب ! » وانفجرت الأخت

باكية وهي تقول : « لماذا كتب علينا أن يكون نصيبنا هكذا ، أنت وأنا ؟ » وسكتت الأم وهي لاتعرف بماذا تجيب . إن الحظ الأعمى قد اغتال ، كرة أخرى، أفضل أمانيها ، وهي أمام هذا الحظ كحمامة أمام نسر ، ينشب أظافره فيها دون أن تكون لها قدرة على المقاومة ، وربما قاومت الحمامة ، غير أن الأم كانت تبدو مهيضة الجناح ، مستسلمة لواقع تبدو ابدا عاجزة أمامه .

ثم انتهت الأمور إلى أسوأ . هجرت أختي بيت زوجها وعادت إلينا ، فنظم زوجها ، مع القسم المعادي من عائلته ، هجوماً على بيتنا ، يريد انتزاع الأخت بالقوة ، وحين تصدى لهم الأب ضربوه، وضرب زوج أختي ، الشهم، أمي بعصا على رأسها ، فنفر الدم ، وتراكض الجيران فحالوا بين الطرفين ، وبكت الأخت ، واجتمع الناس ، وسمعت بعضهم يقول للأم : « ارفعي دعوى عليهم » ولكي يكون الدم من المستمسكات فقد منعوها أن تبدل ثيابها أو تغسل وجهها ، وذهبت الأم مع الوالد إلى مخفر الشرطة في السراي ، وأقاما دعوى على المعتدين ، فجاءت الشرطة وألقت القبض عليهم ، وهكذا دخلنا أبواب المحاكم ، الروحية والمدنية على السواء ، وبعد مدة تدخل المصلحون ، فعادت الأخت إلى زوجها ، لتعود سيرتها

في الشقاء والشجار معه .

هل بسبب من ذلك ، ولكي تعطي ابنتها بعض المصروف ، رجعت الأم إلى العمل ؟ إنني أرجح ذلك ، فقد كان عليها أن تفعل شيئاً لأجلها ، وكما تعذبت لأجلنا ونحن صغار ، فرض عليها أن تتعذب لأجلنا ونحن كبار ، ولن تستريح إلا بعد سنوات ، عندما سأباشر عملاً منظماً مستقراً ، أنا الذي تنقلت بين مهن مختلفة ، وفرض علي ، كأمي ، أن أحمل هم العائلة ، وأشارك في مواجهة دوامة حياة دار بها الإعصار طويلا ، قبل أن يدعها تثبت أقدامها على أرض واقع لا يتحرك من تحتها وينسرب كرمل في مهب الريح .

خدمت الأم في بيت موظف شاب ، له امرأة جميلة ، وطفل صغير ، وكان عليها ، إضافة إلى الخدمة ، أن تعتني بالصغير ، وأن تقوم مقام الخادم والمربية . ولقد أرهقها الصغير الذي تجن سيدتها إذا سمعته يبكي ، فكانت تضعه في عربة وتدور في حديقة البيت ، ما أن تنتهي من عملها في المطبخ ، ولكي أخفف عنها قليلا ، صرت أذهب بعد الظهر إلى بيت مخدومها ، وأعتني بالطفل ، حتى يتاح لها هي أن تعود إلى البيت . وقد وجد سيدها في ذلك مكسباً ، فاعتبرني خادماً أيضاً ، وأخذ يعاملني

على هذا الأساس ، دون أن يدفع أجراً إضافياً .

لقد أحببت الطفل ، ووجدت فيه سلواي خلال الساعات التي كانت تغيب فيها أمي ، كان صغيراً جميلا، معافى ، وله رائحة عطرة . وكان علي أن أحمله على ذراعي وأدور به في الحديقة أو أتنزه به في الشارع أمام البيت ، فإذا عدت إلى الداخل ، صاح بي الأب: «اخرج به أيضاً .. لم ننته من شغلنا بعد» فكنت أخرج وأضعه في العربة ، وأدفعها أمامي حتى أمل من المجيء والذهاب ، وتستبد بي رغبة شديدة في تركه والهرب إلى حيث أولاد الحي يلعبون . إلا أنني أتجلد ، وأقاوم رغبة الهرب ، وأصبر كيلا أعرض الأم إلى تعنيف السيدة ، أو أجعلها تتألم لفعلتي .

وبمقدار ماأحببت الطفل كرهت والديه . كانا يعتبرانني طفلا ، ويبيحان لنفسيهما أن يقوما بحركات جنسية مكشوفة أمامي ، تثير في مشاعر متضاربة ، وتجعلني التهب من فرط الغضب ، دون أن أستطيع تحديد سبب لذلك، ودون أن أقوى على مفاتحة أمي بالأمر . كان الرجل متهتكاً ، وكانت المرأة مستهترة ، وكانا يمارسان الحب طوال بعد الظهر ، وكنت أسمعهما وأنا تحت النوافذ ، أحمل الطفل أو أدفع عربته في الممشى ، فأحاول الابتعاد ، لكن المرأة

كانت تصرخ صرخات تحرق أعصابي ، وتتلفظ بكلمات مثيرة أسمعها لأول مرة بهذه الصراحة ، فأتسمر مكاني ، متمنياً أن ينتهي كل ذلك ، وأن يسرع الرجل في الذهاب من البيت . غير أنه كان يناديني ، وهو مازال مع زوجه في الفراش ، طالباً مني كأساً من الماء . وكنت أدخل عليهما فأجد الرجل عارياً ، وأرى جذعه ظاهراً من تحت اللحاف ، والزوجة إلى جانبه ، لايبدو منها سوى رأسها ، فأقدر أنها عارية كلها ، وأخرج وأنا أتصور جسمها الفتي ، الممشوق ، وأستعيد صرخاتها وكلماتها ، فأهتاج وأحس أن تيارات غريبة ، لذيذة ، حارقة ، تنتظم جسدي كله .

لم أقو على الاحتمال ، فأبلغت والدتي أنني لاأريد الذهاب إلى بيت أسيادها ، وقالت الأم انها هي أيضاً ستترك العمل عندهم ، وتركته فعلا ، ثم لم تعد تعمل ، لأن أحداً لم يعد بحاجة إلى خادم . كانت اسكندرونه قد صارت مسرحاً لأحداث واضطرابات متواصلة ، وكان عرب اللواء يحاولون ، بكل الوسائل ، أن يمنعوا كارثة التتريك التي تزحف وتتكاثر نذرها في الجو ، دون أن يستطيعوا التغلب على قوى خفية ، تعمل لها .

كان الانتداب الفرنسي قد قرر ، بالتواطؤ مع دول

أخرى ، أن يقتطع اللواء من جسم سورية ويعطيه لتركيا . وكانت سورية وهي محكومة بهذا الانتداب ، تناضل بغير جدوى لإحباط المؤامرة ، وهكذا غدا اللواء مسرحاً لصراع سياسي ، وكتب علينا ، نحن سكانه ، أن نشهد تلك الأيام العاصفة التي كنا نخرج فيها ، من الصباح إلى المساء ، بمظاهرات تنادي بعروبة اللواء ، وتندد بالمؤامرة الجارية عليه .

ولقد عاد فايز الشعلة من السجن ، ورأيته يتقدم المظاهرات ، كما رأيته يعقد الاجتماعات في الحي ، وكان يؤكد ، في كل مكان ، أن اللواء عربي بأكثريته ، وعلينا أن نناضل بكل مااستطعنا للحفاظ عليه . وكانت القوى العربية ، من كل الفئات ، قد اتحدت ، وتشكلت في المدينة قيادة موحدة ، وجرى تنظيم حراسة في الأحياء ، لأن الشائعات كانت تتكاثر عن نية الأتراك بالهجوم على الأحياء العربية .

وأشيع أن استفتاء سيجري ، لمعرفة ممن تتشكل أكثرية اللواء . ودهش الناس لذلك ، فهم يعرفون أن الأتراك أقلية ، وهم أقلية ضئيلة ، غير أنهم بدأوا يتكاثرون في السنوات الأخيرة . لقد فتحت الحدود أمامهم ، وكل شيء صار

جاهزاً للفصل الأخير في المأساة – الملهاة . وذات يوم أعلن أن الجيش التركي سيدخل اللواء ، ودخل فعلا. ووقف السكان العرب على جوانب الشوارع ، ينظرون إلى صفوف الجند بقهر وخيبة ، وأيقنوا ، إذ ذاك ، أن كل شيء قد انتهى ، وأن عليهم أن يختاروا بين الهجرة والبقاء .

أهلي اختاروا الهجرة . كثيرون في الحي اختاروا الهجرة. شرع الناس ببيع أغراضهم لتأمين أجرة رحيلهم ،ولم يبقوا منها إلا الفرش والثياب ، أما البيوت فلم يكن هناك من يشتريها ، فكانوا يخلونها فارغة ويهاجرون . وكانت قوافل المهاجرين تنطلق باتجاه سورية من كل أنحاء المدينة، في البواخر ، والسيارات ، والعربات . وكان الأقرباء والجيران وأبناء الحي يودع بعضهم بعضاً قائلين : «الوداع ! قد لانلتقي مرة أخرى » وكانوا يتعانقون ، ويبكون ، ويفترقون كل في سبيل .

وفي عرض البحر وقفت السفن . كان الأرمن يهاجرون بكثرة ، جماعات جماعات ، وكان الميناء يزدحم بهم ؛ وتراهم منتشرين على طول الشاطىء هم وأطفالهم وأغراضهم ، بانتظار دورهم في الرحيل ، ينامون ثمة ، في العراء ، ويقضون أيامهم تحت الشمس المحرقة .

ويتزاحمون في النزول إلى البحر ، والفرار إلى جهات مختلفة ، ناجين بأرواحهم ، وهذا مانشر الذعر ، وبث الاضطراب في المدينة ، وزاد من الإقبال على الهجرة وعلى الحصول على وسائل النقل ، وادى إلى ارتفاع أسعارها ، وندرتها ، بحيث ان العائلة المهاجرة كانت تنتظر الأسابيع ، وأغراضها محزمة ، قبل أن تحصل على واسطة تنتقل بها إلى خارج حدود اللواء ، تاركة بعد ذلك للأيام أن تتدبر أمرها .

إن مشهد مدينة ماتهاجر من أوجع المشاهد وأقساها . العيون حزينة ، منكسرة ، والوجوه واجمة شقية ،والبيوت خاوية ، مهجورة ، والأمهات والأطفال على الدروب ، والرجال يحملون الأغراض ويسوقون العربات ، والسيارات تهدر في قوافل محملة بالأثاث ، والعويل والبكاء ، واختلاط الناس بعضهم ببعض كأنه يوم الحشر ، والشمس ، في السماء ، صفراء من أسى ، فكأنها تشارك هذه الجموع النازحة مصيرها المجهول ، البائس .

لقد رفض الأتراك شراء الأغراض والبيوت لكثرتها ، أو لعدم الرغبة فيها ، أو لأنهم سيستولون عليها بعد هجرة أصحابها، ولهذا عمد المهاجرون ، كما يعمد الجنود

المنسحبون أمام عدو غاز ، إلى تدمير مابنوه بايديهم ، وإلى إحراق أشياء عزيزة عليهم لايستطيعون نقلها معهم . كانوا يفعلون ذلك سراً ، خشية أن تكتشف السلطة فعلتهم فتعاقبهم أو تعرقل هجرتهم ، ولقد فعلنا ذلك نحن أيضاً . كان البيت عزيزاً على الأم . كان كوخاً ولكنه كان عزيزاً ، وازدادت معزته بعد أن وضعنا القرميد على سطحه ، وقالت الأم بأسى : « لماذا كتب علينا أن نتشرد من جديد ؟ لقد عرفنا هنا الاستقرار . لسنا في وضع جيد ، ولكنه أفضل من الضياع في القرى . إننا في المدينة ، وابننا أخذ الشهادة ، وكنت آمل أن نعرف أياماً حلوة تنسينا شقاء الماضي ، فلماذا انقلب كل شيء فجأة ؟ وإلى أين نرحل ؟ وكيف نبني بيتا من جديد ؟ وهل يجتمع شملنا أم نتفرق ؟ » وبكت . . ولم تكن الباكية الوحيدة هذه المرة ، كانت نساء الحي يبكين أيضاً ، وكان الوالد حائراً ، لايعرف أن يستقر على رأي ، وكنا نجلس في الليالي على الحصيرة أمام الباب ، ويروح الوالدان يتحدثان عن المستقبل المجهول ، ويرتبان أمور السفر . وقال الأب للأم : « ليس لنا سوى اللاذقية ، هناك أهلنا ، ومهما كانت المصاعب ، فإنها معهم تهون . لابد أن يساعدونا ،

ولابد أن نأخذ بهم روحاً » . . وووافقت الأم ، وتقرر أن نسافر إلى اللاذقية .

شرعنا باتلاف أغراضنا التي لم نستطع بيعها ، ولاإمكان لنقلها معنا . ووضعت الأم سلما وراحت تنزل قرميد البيت فنقوم بتكسيره . لقد فرحت به جداً يوم اشتريناه ، لكن فرحتها كانت قصيرة ، وهاهي ، بيديها اللتين رفعتاه إلى السطح ، تنزله عنه ، وكانت تمسك بالآجرة فتقبلها ثم تحطمها ، وكنا نفعل مثلها ، والوالد صامت ، يدخن ، ويدخن ، ويدخن .

أخيراً جاء يوم الرحيل . . .

وجاءت سيارة الاوتوبيس الصغيرة التي استأجرناها نحن وعائلتان أخريان . كانت أمتعتنا جميعاً على جانب الطريق ، وخرج الجيران لوداعنا ، فحملنا الأمتعة ، وتعانقنا ، وبكينا ، وألقينا نظرة أخيرة على البيت ، والحي ، وصعدنا إلى السيارة ، ومن نوافذها امتدت أيدينا تلوح للأيدي الحبيبة التي تركناها على جانب الطريق .

كانت السيارة صغيرة ، انحشرت فيها العائلات الثلاث حشراً ، وجلس الأطفال في حضون الأمهات ، ووضعنا بين أرجلنا بعضاً من متاعنا ، وانطلقت السيارة

بنا بطيئة مزمجرة في البدء ، ثم سريعة هادئة ، يتردد في جوانبها نشيج مكتوم ، وتخلف وراءها ، شيئاً فشيئاً ، أغلى الذكريات وأطيب المودات .

وعندما بلغنا ، بعد الظهر ، نقطة الحدود قرب كسب ، نظر بعضنا إلى بعض برجاء وأمل ، وما كاد تدقيق الأوراق ينتهي ، وندخل الحدود العربية السورية ، حتى صاح الوالد .

— هاتوا الطربوش !

وأخذه ووضعه على رأسه ، بعد أن حرم منه عاماً ونصف العام ، لأن الأتراك فرضوا على الناس لبس القبعة ، وعاند الوالد فلم يلبسها قط .

وحوالي المغيب كنا في أعلى قمة من جبال كسب ، نمر بين أشجار الصنوبر الكثيفة المتشابكة على الجانبين ، وكان الوادي الأخضر الجميل عن يميننا ، والأفق ، من بعيد ، يزدان بسحب حمر ، والدنيا صحو ، وقمر وليد على طرف السماء الزرقاء ، وكنا الآن في طريقنا إلى اللاذقية ، ننحدر من الجبال إلى السهل ، رويداً . . رويداً . . رويداً . .

مؤلّفات حنّا مينة

المصابيح الزرق
الشراع والعاصفة
الثلج يأتي من النافذة
الشمس في يوم غائم
الياطر
بقايا صور
المستنقع
القطاف
الأبنوسة البيضاء
المرصد
حكاية بحّار
الدقل
المرفأ البعيد
الربيع والخريف
مأساة ديمتريو
حمامة زرقاء في السحب
نهاية رجل شجاع
الولاعة
فوق الجبل وتحت الثلج
الرّحيل عند الغروب
النجوم تحاكم القمر
القمر في المحاق
المرأة ذات الثوب الأسود
حدث في بيتاخو
عروس الموجة السوداء
المغامرة الأخيرة
الرجل الذي يكره نفسه
الفم الكرزي
حارة الشحادين
صراع امرأتين
ناظم حكمت: السجن، المرأة، الحياة
ناظم حكمت ثائراً
هواجس في التجربة الروائية
كيف حملتُ القلم؟
البحر والسفينة... وهي!

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب. ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت



